ثلاث حيوَات لرجلٍ واحد

بومدين بلكبير

ثلاث حيوات لرجلٍ واحد

ISBN 9789776597101

© Willows House 2021

الطبعــة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

بومدين بلكبير

ثلاث حيوات لرجل واحد

روايــة

I

كما لو أني لم أكن..

« لن نحتاج كثيرا إلى الكلام

سنكتفي بالحياة وسنكون قد تعلّمنا كيف نحياها.»

آنّا غريكي (١٩٣١-١٩٦٦) م.

-١-

نهضت مذعورا، حلقي جاف، وشفتاي متيبستان، وفرائصي ترتعد. وأصابع يديّ ترتجف. جسدي مبلل بالكامل بفعل العرق الذي لم يتوقف عن السيلان من كل مسامات جسمي التي أشعر بها تتسع وتتسع حتى تستحيل إلى فجوات هائلة. أحس بنبضات قلبي المتصاعدة كأنها تريد أن تخترق صدري الذي لم يعد يقوى على التحمل أكثر، وأنفاسي متقطعة ومختنقة كأن رئتيّ معتلتان أو كأن هناك من يجثم فوق صدري بكتلته العظيمة.

استيقظ كل من في البيت فزعين على وقع صرختي المدوية التي أطلقتها من أعماقي المتشظية. هرعت سكينة إلى فراشي.

- إن شاء الله خير. ما بك عبد القادر، ما بك؟

كان صوتها الضعيف فزعا، وبالكاد يصلني. فقد ضعف سمعي منذ ثلاث سنوات فقط، وباتت أذني اليسرى كخرقة بالية مثقوبة. قصدت عشرات الأطباء، لم أجن من وصفاتهم

الطبيـة سـوى رمـي أمـوالي في الريـح، وإنهـاك سـمعي أكـثر. لا طائـل منهـم كأنهـم طلبـة في مرحلـة تدريـب. ولا فائـدة مـن أكيـاس الأدويـة التـي تعـج بهـا أدراج غرفـة نومـي، لم أعـد أثـق في هـؤلاء الأطبـاء إطلاقـا، ولـن أسـلمهم نفـسي للعبـث بهـا مـرة أخـرى، لسـت فـأر تجـارب.

اقتربـت منـي أكـثر، شـعرت بذلـك لمـا لفحتنـي أنفاسـها الدافئـة. حاولـت أن ألتفـت بوجهـي صوبهـا، سرت ارتعاشـة في نصفـي العلـوي، وبعـسر تمكنـت أخـيرا مـن الالتفـات والنظـر صوبهـا. لمحتهـا جامـدة في مكانهـا كالجليـد مـن فـرط الفـزع. لم أنبـس ببنـت شـفة، فقـط عينـاي غائرتـان وشـفتاي عاجزتـان عـن التحرك.

- عبـد القـادر، هـل أنـت بخـير؟ مـن الأفضـل أن يأخـذك إدريـس إلى المسـتوصف.

مـرة أخـرى عجـزت عـن الـكلام، أشرت لهـا بتحريـك رأسي ذات اليمـين وذات الشـمال. فهمـت عـدم تحمـسي لمقترحهـا، لذلـك لم ترغـب في معانـدتي خوفـا مـن إزعاجـي ورفـع توتـري. فهـي أدرى بطبعـي ومزاجـي المتقلـب. اكتفـت فقـط بالغمغمـة:

- عـلى راحتـك. كل مـا في الأمـر أننـي فكـرت فقـط في مصلحتـك، وخفـت أن تتدهـور صحتك.

ثـم شـدت عـلى معصمـي بيدهـا اليـسرى، وبسـطت كفهـا الأيمن عـلى جبهتـي الملتمعـة بحبـات العـرق البـارد، وراحـت تحـرك شـفتيها وتتمتـم بالأدعيـة وبتـلاوة المعوذتـين، تـؤدي طقوسـها تلـك

بخشوع وتضرع مغمضة عينيها كأنها ملاك رحيم. أحاول أن أتلوى، لا أقوى، رجلاي تخذلانني، كأنهما مشلولتان. أرغب في البكاء حتى أتحرر بعض الشيء، صوتي يتلاشى ويذوب في العدم كأنني أبكم، ودموعي تأبى عن الانهمار كأن مآقي جفت.

انتفضت سكينة بجسدها الهزيل واقفة، ثم خرجت حافية القدمين مهرولة باتجاه المطبخ. بعد هنيهات عادت كأنها تسابق الزمن، مضت تلك الهنيهات بالنسبة لي كدهر. جلبت كيس الملح، وراحت تذروه في زوايا الغرفة وتحت السرير، كأنها تطارد روحا شريرة وتحاول بحرص زائد أن تُضَيِّقَ عليها الخناق في كامل أرجاء غرفتي الباردة.

لما فرغت جلست مجددا بالقرب مني، وأخذت عودا خشبيا يابسا، ولفته بغطاء رأسها، ثم راحت تحرك العود وقطعة القماش تلك في حركة دائرية منتظمة من الأعلى للأسفل، ومن الأسفل للأعلى، وهكذا استمرت تكرر العملية بشكل مفرط، وتتمتم بكلمات غير مفهومة. وكلما كانت تنظر إلى نتيجة حركتها تلك، كان يمتقع وجهها أكثر، ويتقطب حاجباها، وتعتريها حالة من الذهول.

كنت أغفو وأصحو بانقطاع، في شبه هذيان. الكوابيس ذاتها تعاودني، ترفض أن تتركني في حالي بسلام. منذ سنوات لم أنم أكثر من ثلاث ساعات، أنام قبل منتصف الليل بقليل وأنهض قبل صياح الديك. يا لهذه الكوابيس اللعينة! لا تكتفي بقض مضجعي فقط، بل أصبحت تدخلني في حالات صراع

مريـرة مـع نفـسي، لا أفتـأ أن أخـرج منهـا إلا خائـر القـوى، ضائعـا، غـير متصالـح مـع ذاتي، أجـري خلـف سراب الغفـران، ولا أطالـه. أحيانـا تتملكنـي رغبـة جامحـة في فقـدان الذاكـرة، كي أنعـم براحـة النسـيان. عندهـا ينتابنـي شـعور بالضعـف واليـأس، وأفكـر في مدى هشاشـة الإنسـان، مهـما كان أرعـن، أو متسـلطا، أو مسـتبدا، أو صاحـب مـال وتـرف، أو ذا جـاه ومكانـة!

وهكـذا مـع انتصـاف النهـار بـدأت أتخفـف وأتحـرر تدريجيـا، وأحـس أن جسـدي يلفـظ الأذى رويـدا رويـدا. وبـدأت أسـتعيد حـواسي وأشـعر بأعضـائي. في أول الأمـر شـممت رائحـة الملوخيـة تفـوح في أرجـاء البيـت، ثـم سـمعت صـوت الخـلاط المنبعـث مـن المطبـخ.

- كـم أضيـف مـن حبـة مـوز للحليـب يـا يُمَّـا؟ صـاح ابنـي سـعيد موجهـا كلامـه إلى سـكينة.

- حبتين فقط.. يكفي، يكفي. ردت سكينة بمرح.

بعـد لحظـات يسـيرة لمحـت طيـف سـكينة يجتـاز بـاب الغرفـة. اتجهَـت صـوب النافـذة، رفعَـت عنهـا السـتائر المسـدلة، ثـم فتحَتهـا قليـلا. أنـارت أشـعة الشـمس المتسربـة مـن الخـارج الغرفـة، شـعرت بدفئهـا يـسري في جسـدي ممزوجـا بنسـمات الهـواء التـي تسـللت مـن الجـزء المفتـوح مـن النافـذة.

فركـت عينـي بدافـع قـوة النـور المتدفـق، لأن الظلمـة كانـت قبـل ذلـك تكتسـح المـكان، وتثاءبـت في حركـة تلقائيـة. لمـا رفعـت

يـديّ إلى الأعـلى بعـض الـشيء، كي أتمطـط، شـعرت بجسـدي متهالـكا كمـن خـاض حربـا ضروسـا ونجـا منهـا بأعجوبـة.

حدقـت في ظهـر سـكينة المنحنـي قليـلا إلى الأمـام. بـدت لي اليـوم أكـثر مـن أي وقـت مـضى كهيـكل قـاب قوسـين أو أدنى مـن التداعـي. التفتـت بوجههـا نحـوي، وبلهجـة أقـرب للنصـح كثـيرا وأبعـد عـن التأنيـب قليـلا، قالـت مخاطبـة إيـاي:

- أعتقـد أنـك الآن أفضـل بكثـير، أنصحـك أن لا تغفـل عـن الاهتـمام بصحتـك. ليـس هنـاك جـدوى مـن تحـدي المـرض، لـن تجنـي أي شيء مـن ركـوب رأسـك. مـع التقـدم في السـن تصبـح أجسـادنا أوهـن، وتختلـق أي مـبرر للمـرض، مـا يجعلنـا أكـثر شـكوى مـن أي طـارئ ولـو كان بسـيطا.

لم آبه كعادتي بكلامها.

عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت تخافنـي وتهابنـي بسـبب رعونتـي، ومزاجـي المتقلـب، وسـوْرة غضبي الهسـتيرية غـير المتوقعـة، وصدع رأسـها بالتأنيـب المسـتمر واللـوم المتكـرر؛ أعـترف أننـي صعـب الإرضـاء، ومـن الاسـتحالة بمـكان عـلى أي شـخص أن يعـاشرني، أو أن يتأقلـم مـع طباعـي المنفـرة، ويصـبر عـلى تصرفـاتي غـير اللبقـة، كـما فعلـت هـي! فقـد كانـت معـي في منتهـى اللطـف، روحهـا سـخية، ولم تثبـط سـلوكاتي تلـك معنوياتهـا، أو تضعـف اسـتعدادها لخدمتـي وللسـهر عـلى راحتـي. ولم أحـس في يـوم مـن الأيـام بتذمرهـا، أو أرى تبرمهـا في وجهـي. كانـت كلهـا عطـاء، ولطفا، وودا.

وكنت على الجانب النقيض منها؛ يجب أن تظهر للمرأة العين الحمراء، كي تبقى تحت جناحك دوما، ولا تسول لها نفسها ذات يوم الطيران خارج سربك، أو التفكير حتى في عصيانك. متى كان الرجل قويا وصلبا في مواقفه وحاسما في قراراته كسب ودّ المرأة وتقديرها، ومتى كان مهزوما ومستكينا لها ومترددا زاد احتقارها ونفورها منه. فهي بحاجة إلى قوة الرجل وأن تكون تحت ظله أكثر من حاجتها إلى عطفه وحنانه. فأن تتنازل للأنثى وتعاملها بود وتخفض لها جناح الرحمة يعني أنك أتحت لها ركوب ظهرك عن طيب خاطر، ومنحتها من دون أن تدرك عصا السيطرة عليك، وقيادتك وفق مشيئتها الناقصة ومنطقها الأعوج. هكذا كنت أفكر دوما، وهكذا أنا في تعاملي مع النساء.

أعيش ثلاثة عوالم مختلفة، كما أنني أتقمص شخصيات متعددة، لكل شخصية سماتها وصفاتها الملتصقة بها كالجلد واللحم. وجه واحد وثلاثة أقنعة، هكذا صنعت لكل عالم شخصيته التي تنطبق عليه كالقالب والأصل.

فقد عملت طوال عمري على أن أمتلك ثلاث حيوات متباينة، واجتهدت أن أفصل بينها بجدار عال وسميك وعازل من الصمت والكتمان، لا يمكن خرقه أو القفز عليه. فلكل حياة ناسها وأسرارها، وتفاصيلها البرانية الطفيفة التي أظهرها كالزبد لمن أرغب من عامة الناس أو من يقعون في الدائرة المقربة، على حسب القدر الذي أريد، كما لها خصوصياتها

الجوانيــة التــي تســكن في أعــماق أعماقــي المظلمــة، لا يســمع همســها أحــد غــيري.

بذلــت قصــارى جهــدي واســتنفدت كامــل طاقــاتي الظاهــرة والباطنــة عــلى أن لا تتقاطــع تلــك العــوالم، والشــخصيات، والحيوات مــع بعضهــا البعــض، عــلى مــا فيهــا مــن تناقــض وتبايــن صارخــين.

غلّقــت معظــم أبــواب المفاجــآت التــي تتســرب منهــا الصــدف أو المفارقــات غــير المتوقعــة، لا مجــال أمامــي في هــذا الشــأن لارتــكاب الأخطــاء، وإن كانــت صغــيرة، فــكل خطــإ قاتــل بالنســبة لي مهــما كان حجمــه، فــما بالــك أن تحــل حيــاة محــل أخــرى!

عالمــي الأول مــع عامــة النــاس، الجــيران والأصدقــاء ومــن ألتقــي بهــم يوميــا في الشــارع أو في المقهــى الــذي اقصــده بانتظــام، وعالمــي الثــاني مــع عائلتــي في تطــوان التــي انقطــع حبــل التواصــل معهــا منــذ ســنين طويلــة، وأسرتي الصغــيرة هنــا في عنابــة، وعالمــي الثالــث مــع ذاتي وبــئر أسراري الخاصــة التــي لــن يدلــف إلى عمقهــا أي دلــو، فــكل مــن حــاول الغــوص في أعماقــي عــاد خائبــا، لأن كل الــدلاء ظلــت تســحب فارغــة.

فكلــما اتســع العــالم، ضــاق فهــم النــاس إيــاي، وتعــذر عليهــم إدراك حقيقتــي، لذلــك لا أهتــم كثــيرا بأحــكام النــاس المســتعجلة، والتــي تــأتي دومــا عــن جهــل ونقــص درايــة.

المفارقــة أني عشــت تلــك الحيــوات الثــلاث بمــا فيهــا مــن فضائــل ومــا عليهــا مــن رذائــل. كــما خــبرت ثــلاث تجــارب زواج؛ زواجــي

مـن جميلـة ابنـة عمـي مصطفـى الـذي لم يـدم طويـلا، وزواجـي مـن بختـة رحمهـا اللـه، وأخـيرا زواجـي مـن سـكينة. مـن الصعـب الحكـم عـلى مـدى نجاحهـا أو فشـلها، كل تجربـة زواج خبرتهـا بمثابـة عـالم مختلـف عـن الآخـر، لا خيـط تشـابه يربـط بـين تلـك التجـارب إطلاقـا.

كـما عشـت في ثلاثـة أمكنـة مختلفـة، مـكان الميـلاد والنشـأة مدينتـي تطـوان التـي أديـن لهـا بالكثـير والتـي لم تغـادر صورتهـا وذكرياتهـا مخيلتـي وروحـي أبـدا، عـلى الرغـم مـن ظلمهـا ونكرانهـا لي في أشـد لحظـات عمـري هشاشـة واحتياجـا. ومدينـة تلمسـان، وكذلـك منطقـة مغنيـة التـي احتضنتنـي بعـد أن ضاقـت بي الدنيـا ولفظنـي كل العـالم. ثـم مدينـة عنابـة الحلابـة التـي فتحـت عينـي عـلى أشـياء كثـيرة. فقـد عرفـت حيـاتي ثـلاث مراحـل حاسـمة تراوحـت بـين الشـدة والرخـاء، مرحلـة المغـرب، ومرحلـة الالتحـاق والمشـاركة في الثـورة التحريريـة الجزائريـة، ومرحلـة مـا بعـد الاسـتقلال.

كـما نجـوت ثـلاث مـرات مـن مـوت محقـق أثنـاء الثـورة التحريريـة؛ في المـرة الأولى رصاصـة فجـرت رأس الشـهيد الطاهـر الملتصـق بجنبـي الأيـسر، والرصاصـة الأخـرى فجـرت الصخـرة التـي كانـت تخفـي الجـزء الأيمـن مـن جبهتـي.

أمـا في المـرة التاليـة خرجـت صدفـة مـن صـف سـير الجنـود، لأننـي انشـغلت بمطـاردة أرنـب بـري لفـت انتباهـي لونـه الأبيـض الناصـع المخلـوط بالبنـي الخشـبي وأغرتنـي سـمنته، فأنفجـر لغـم

أرضي عـلى الرجـل اليمنـى لـلأخ المجاهـد محمـد الصغـير بـارة بـدلا منـي، إذ كان خلفـي مبـاشرة في خـط السـير، وتقـدم بعـد أن تركـت الصـف، وهـو إلى غايـة اليـوم يعيـش برجـل خشـبية وضعـت لـه في مشـفى تونـسي آنـذاك.

وفي المــرة الأخــيرة كادت أن تعــثر عــلي فرقــة الكولونيــل شـاربونيي أو فرقـة الجحيـم كـما كنـا نسـميها آنـذاك أنـا ورفـاق الكفـاح بعـد أن أعدمـت نصـف مجموعتنـا، إذ كانـت تصنّفنـي مـن بـين أخطـر المبحوثـين عنهـم ضمـن قوائمهـا بعـد أن فـررت مــن مركــز التعذيــب، وتعــرض أمــوالا مغريــة لــكل مــن يــشي بنـا. ونجـوت حينهـا مـن المـوت بأعجوبـة، إذ سـارع فـلاح، كان عائـدا صدفـة بأغنامـه، إلى مسـاعدتي عـلى الاختبـاء خلـف كوخـه الحجـري، بمطمـور القمـح عـلى عمـق أمتـار تحـت الأرض، فـكان مـن الممكـن أن أكـون ميتـاً منـذ عقـود طويلـة لـو لا تدخـل القـدر لصالحـي ثـلاث مـرات.

وقبــل كل ذلــك، تحالفــت ثلاثــة ظــروف دفعتنــي لمغــادرة المغـرب والالتحـاق بالثـورة التحريريـة في الجزائـر؛ الظـرف الأول سـاهم فيـه عمـي جلـول الصبايحـي، وهـو خيـال جزائـري التحـق بالمغـرب ضمـن كتائـب الصبايحيـة المشـكلة مـن لفيـف مـن أبنـاء المسـتعمرات الفرنسـية. لكنـه فـر مـن المعسـكر الفرنـسي، وحـرق برنوسـه الأبيـض وشاشـه الأزرق وسروالـه الأحمـر وبـاع جـواده في مكنـاس، وأحتفـظ فقـط ببندقيتـه الحربيـة كتـذكار ولمـآرب أخـرى، ثـم أسـتقر وتـزوج في تطـوان.

كنـا نلتقـي في حـي الخرازيـن حيـث اكـترى محـلا هنـاك وانخـرط في بيـع المنتجـات المصنعـة مـن الجلـود. أخـبرني أنـه اضطر للانضـمام لكتائـب الصبايحيـة عـلى وقـع المجاعـة التـي حلـت بالمنطقـة التـي كان يقطـن فيهـا، وأن هنـاك مـن أبنـاء منطقتـه مـن جنـدوا في تلـك الكتائـب بالإجبـار رغـما عنهـم، وقـد حلفـوه عـلى المصحـف الشريـف عـلى أن يكـون وفيـا للدولـة والجيـش الفرنسـين، ويحـترم مبادئهـما، وأن لا يخونهـما، وبأنـه مسـتعد لأن يضحـي في سـبيل ذلـك بـكل غـال ونفيـس.

أخـبرني عمـي جلـول عـن تظاهـره بالقتـال أثنـاء المعـارك التـي خاضهـا مـع الجيـش الفرنـسي في دول عـدة، حيـث كان يتـم وضعهـم في مقدمـة الجيـش. كـما كان يدعـي المـرض في أحيـان كثـيرة، كذريعـة للهـرب مـن سـاحة الوغـى، فيضطـر لجـرح سـاقه بآلـة حـادة، محدثـا جرحـا عميقـا، ثم يـذري عليـه بـراز الحيوانات، فيلتهـب الجـرح ويتعفـن أكـثر، وتظهـر عليـه التقيحـات، ويفـرز روائـح كريهـة مـما يفـزع الأطبـاء، وبالتـالي يضمـن لـه الإقامـة المريحـة لفـترات لا بـأس بهـا، قـد تطـول لأشـهر بأكملهـا في أجنحـة المشـافي الحربيـة.

فقـد حدثنـي كثـيرا عـن الجزائـر كبلـد جميـل وغنـي بالمـوارد والخـيرات، وعـن شـعبها المقـاوم والباسـل، وعـن المجـازر الفظيعـة التـي كان يقترفهـا قـادة وجنـود الجيـش الفرنـسي بـدون رحمـة. كل ذلـك نَـمَّى في داخـلي وعيـا عظيـما والتزامـا قويـا بالمسـؤولية تجـاه محنـة هـذا البلـد الجـار.

أما الظرف الثاني فنشأ مما كان يصلني من أخبار شحيحة عن اجتماعات جرت في تطوان بالذات والناظور وغيرها من مدن الريف المغربي، بين المقاوم المغربي عبد الكريم الخطابي والمقاومين الجزائريين المعروفين، البطل العربي بن مهيدي والقائد محمد بوضياف. العربي بن مهدي صاحب مقولة «ارموا الثورة للشارع يحتضنها الشعب»، حيث أعدمه الاستعمار الفرنسي فيما بعد بطريقة تراجيدية، ومحمد بوضياف الذي قُتل وهو رئيس للدولة المستقلة، برصاص ضابط أمن كلف بحراسته في تسعينيات القرن الماضي، أثناء إلقائه خطابا في قصر الثقافة بمدينة عنابة، في مشهد مفزع صورته كاميرا التلفزيون العمومي على المباشر، وشاهده الملايين. وتلك الأنباء المفرحة التي سمعتها عن تأسيس جيش تحرير المغرب العربي، وقبول الإخوة الجزائريين بإسناد قيادته إلى عبد الكريم الخطابي لأصوله الجزائرية.

في حين ارتبط الظرف الثالث بعوامل شخصية وذاتية، بعيدا عن الموضوعية التي اقتضاها الظرفان السابقان. فقد استحالت حياتي مع زوجتي وابنة عمي جميلة إلى جحيم، بت لا أطيقها، ولا أرغب حتى في رؤيتها. فقد هجرتها في الفراش، وأصبحت أخرج من البيت ولا أعود إلا بعد أن يسدل الليل ستائره. فلا أكلمها ولا أجتمع معها على مائدة الأكل، ولا أنام معها على سرير واحد.

لست أدري هل نفوري منها كان مأتاه حقدي على عمي

مصطفى، الذي تفرد بتركة جدي عبد الكبير الركراكي رحمه الله، بصفته الأخ الأكبر بين إخوته وأخواته، وأن ذلك يمنح له الحق في فعل ما يشاء. وما حيرني أكثر هو صمت والدي القاتل ورضوخه التام لرغبة أخيه، من دون أن يتبرم أو أن ينبس بكلمة، بله أن يقاوم رغبة عمي ويتخذ أدنى خطوة في صده عن مبتغاه، على اعتبار أن احترام الأخ الأصغر لأخيه الأكبر منه سنا يقتضيها العرف والشرع! بالعرف الأعرج والشرع المبتور استحوذ عمي على الميراث وحده.

أم أن مبعث نفوري منها هو حنيني إلى علاقتي السابقة بليلى حمودان الإدريسي أخت صديقي الأمين. فقد جمعتني بها قبل أن تُزوِّجني أمي بجميلة علاقة حب استثنائية، غالبا ما كنت أتوارى خلف السؤال عن الأمين أو السعي في طلبه، للظفر برؤية ليلى. ورويدا رويدا توطدت علاقتنا بشكل أعمق، حينها قللت من ترددي على بيتهم، حيث كنت أتسكع هناك دوما، لأنه أضحت بيننا أنا وليلى طبعا، مراسلات ثم لقاءات ومواعيد مختلفة، طبعت ذلك الحب الفطري كختم أبدي على قلبينا العاشقين. إلى أن تزوجت ليلى من صديقي محمد المريبطو. صراحة، كيف له أن يعيش مع امرأة يعلم أنها كانت في علاقة مع صديقه المقرب؟

دوما ما كنت أطرح ذاك السؤال على نفسي بصوت مسموع. دون أن أتلقى أي إجابة مقنعة. وعلى الرغم من مضي وقت طويل لم أصل لفهم مسوغات ما حدث، وكانت أسئلتي

الحارقة بمثابة صوت يولد من أعماقي المعطوبة لا يكاد يقابله في الجهة الأخرى أي صدى يذكر على الإطلاق.

هل جمال المرأة وحده قادر على أن يعمي البصيرة، ويجعل من بين الناس من يضحي بالعشرة والصداقة، ويتنازل عن كل ذلك وأكثر مقابل الظفر بامتلاكه؟ وهل ذلك يُسوِّغ لهؤلاء الميل المرضي للبحث عن الوصول إلى ما في يد الآخرين؟ مجرد رغبة في الامتلاك! الامتلاك هنا يقتل المملوك في الجوهر، لأنه ينتزع منه حريته، أن تمتلك شيئا وتضعه في قفص، حتى وإن أطلقت على ذلك القفص الملعون اسم الزواج، فأنت في النهاية قد دمرت ما ملكت في أعماقه الإنسانية.

أي بؤس حل بالناس، وأي لعنة لوثت عقولهم؟ فلست ناقما فقط على عمي الذي نهبنا واستولى على نصيبنا من الكعكة التي تركها جدي المرحوم، أو صديقي محمد الذي خذلني وطعن صداقتنا في العمق، بل بت ناقما على تطوان كلها، وأضحى بلدي يضيق ويضيق إلى درجة أنه لم يعد يتسع لي. هو ملك مشاع للاسبانيين والفرنسيين والغربيين الذين يعبثون بأشيائنا الحميمة، أضحى المغرب نهبا لتلك القوى الاستعمارية المتعددة، والتي اشتركت في اغتصاب سيادته وتقاسمت الأدوار في انتهاك شرفه وفض بكارته.

حتى أولئك المثقفون والكتاب الغربيون الكبار الذين سحرتهم تطوان وطنجة وغيرهما من المدن، وطالما كانت إقامتهم تطول، وما أن تنتهي حتى يغلبهم الحنين ويعاودون الكرة،

مـرات ومـرات. أغلبهـم تحركهـم شـهواتهم ومجونهـم وعبثهـم! لا حبهـم ووفاؤهـم للمـكان، جـان جينيـه العربيـد العابـث، الباحـث عـن الشـهوة واللـذة إرضـاء لميولـه المثليـة، كان يتصيـد الفتيـان والشـبان السـود أو الغـلاظ في مقاهينـا وشـوارعنا ويغـدق عليهـم بالمـال والعطـاء!

المفارقـة الأخـرى أني أقيـم في ثالـث بنايـة في الحـي، وفي المدخـل الثالـث مـن البنايـة، وفي الطابـق الثالـث في بيـت متواضـع مكـوّن مـن ثـلاث غـرف؛ شـقتي لا تتجـاوز السـبعين مـترا، بصالة متوسـطة المسـاحة تضـم ثـلاث كنبـات، وطاولـة مسـتديرة يحيـط بهـا أربعـة كـراسي، وصـورة لي بالبذلـة العسـكرية وعـلى ظهـري بندقيتـي مـع رفـاق السـلاح إبـان الثـورة التحريريـة معلقـة عـلى الجـدار، وعـلى جنبهـا علقـت شـهادة مجاهـد ممضيـة مـن قبـل الرئيـس هـواري بومديـن. وبغرفتـين ضيقتـين، إحداهـما غرفـة نومنـا أنـا وسـكينة، تحتـوي عـلى سريـر متوسـط الحجـم مغطـى في غالـب الأحيـان بمـلاءة خـضراء أو زرقـاء باهتـة اللـون بالـكاد يكفـي جسـدينا المتكوريـن، وخزانـة ملابـس مـن الخشـب الأحمـر تضـم ثلاثـة أبـواب ومجموعـة أدراج.

الغرفـة المتبقيـة خصصناهـا لـلأولاد: إدريـس وسـعيد، بهـا سريـران منفصـلان وخزانـة بابهـا دومـا مفتـوح، ومكتـب صغـير وضـع عليـه حاسـوب وبجنبـه آلـة طباعـة متعـددة الوظائـف، ومشـجب خلـف البـاب والملابـس موضوعـة في كل مـكان كيفـما اتفـق! وهنـاك مجموعـة مـن الكتـب غـير المرتبـة والأوراق غـير

المنسـقة مبعـثرة عـلى الكـرسي والأرضيـة وفـوق المكتـب والسريـر بشـكل فوضـوي.

بقـي لي عـلى قيـد الحيـاة ثلاثـة أبنـاء؛ عبـد اللطيـف وإدريـس وسـعيد. الأول هـرب مـن البيـت، وبعـد فـترة سـمعت أنـه رحـل إلى المغـرب، ومـن حينهـا لم يصلنـي عنـه أي خـبر، أمـا الولـدان الآخـران فهـما مقيـمان معـي. هكـذا كانـت لي مصادفـة غريبـة مـع الرقـم ثلاثـة، وبـت راضيـا بقـدري خـيره وشره.

-٢-

كنت أرى الجميع يتكالب على الثورة التحريرية التي خضناها بشرف، ولم يسلم من همزهم ولمزهم حتى رموزها. وأدرك بوضوح مدى تحسرهم وتألمهم على خروج فرنسا من الجزائر صاغرة بعد استنفاد كل محاولاتها الفاشلة في البقاء.

لم أرتح أبدا لالتحاق الضباط الذين كانوا في الجيش الفرنسي بجيش التحرير الوطني إبان الثورة، كما لم أطمئن لتبوئهم مناصب سامية في الجيش الشعبي الوطني بعد الاستقلال. فلطالما كنت متوجسا منهم، ولم أكن مقتنعا على الإطلاق بأن الذي حمل السلاح في وجه إخوانه المجاهدين، سيأتي يوم ويكون بجنبهم في الكفاح!

كما كنت أرى خطر وصول هؤلاء إلى قيادة الجيش ثم إلى السيطرة فيما بعد على دواليب الحكم في البلد!

وهو ما حدث فعلا!

الشباب اليوم متذمر مما آلت إليه أوضاع البلد، يصدعون رؤوسنا صباح مساء بشكواهم وضعف حيلتهم، يتحدثون عن

حقوقهم فقط، الحق في منصب عمل، الحق في سكن، الحق في حياة كريمة. ولا مرة تسمع هؤلاء يناقشون واجباتهم، ما هو المنوط بهم في خدمة هذا الوطن المفدى والتضحية في سبيله إن استدعت الحاجة.

لما كنا في سنهم كنا مختلفين عنهم، حررنا وطنا بأكمله من ربقة أعتى قوة استعمارية في العالم، ثم خضنا تحدي بناء بلد مستقل حديثا، مستنزف ومنهك تماما.

هؤلاء الشباب يثيرون الاشمئزاز بنواحهم وعجزهم، لا هَمَّ لهم سوى الحصول على نصيبهم من الكعكة، كعكة الريع البترولي. سيبيعون البلد الذي حررناه من أجل الحصول على المال، أو من أجل الحصول على متع زائلة. ويزعمون أنهم مظلومون ومقهورون، لا يجيدون غير إتقان دور الضحية. البلد يتربص به الكثير من الأعداء، والكل لعابه يسيل طمعا في خيراتنا وثرواتنا، وينتظر بشغف للنيل منا في أقرب فرصة متاحة، لا يؤتمن لهم جنب، هناك مؤامرة في الداخل وفي الخارج.

شبابنا مخدرون بمشاكلهم وقضاياهم واهتماماتهم الوهمية، مقتنعون أننا بمنأى عن تلك التربصات وتلك التقلبات والأعاصير التي عصفت ببلدان مجاورة وقريبة. ما حدث لغيرنا يجعلنا نفكر ألف مرة، قبل أي خطوة نخطوها، أن نكون يدا واحدة وصوتا واحدا في وجه أعدائنا والمتربصين بنا. ما يجعلنا أكثر مناعة وأكثر حصانة واستعدادا لمقاومة أي خطر قادم أو تهديد محتمل.

سبق، وفي أكثر من مناسبة، أن حذرت سعيد وإدريس ونبهتهما بالقول:

- إن الخطر يتقدم نحونا ولا فائدة من تجاهل الأمر كغرس رؤوسنا في الرمل كالنعام، علينا مجابهته بشجاعة، وإلا فما حدث لغيرنا سيحدث لنا.

ذاك الصباح كنت أذرع الغرف بحثا عن صورة جمعتني بعبد المجيد بن منصور ونحن نرتدي قشابيتيْ صوف وعلى ظهرينا بندقيتان بارزتان، كنا حينها في أوج شبابنا، رمينا كل شيء خلف ظهورنا استجابة لنداء الواجب.

كنا مختلفين تماما عن شباب اليوم، هؤلاء الشباب الذين لا هَمَّ لهم إلا إشباع ملذاتهم والجري خلف شهواتهم! والذين لا يصغون لنصائحنا نحن جيل التحرير، متوهمين أنهم أذكى منا، وأكثر معرفة وخبرة بشؤون حياتهم وتصاريفها، نحن الذين عرّضنا حياتنا للموت لأجل أن ينعموا هم بخيرات الاستقلال.

جيل متعجرف بليد الذهن يقتات من الأوهام، توهموا أنفسهم أبطالا! لا بطل في هذا البلد غير جيلنا، أما هم فأبطال خرافيون يصارعون طواحين الهواء.

فتّشت عبثا في كل مكان، لم أعثر على تلك الصورة.

في رواق البيت لمحت سكينة وهي تنفض ذراعيها بعد أن تجاوزت ستار إطار باب المطبخ الملطخ بالمرق. سددت إلي

نظـرة مقتضبـة وواصلـت طريقهـا مـن دون أن تنبـس ببنـت شـفة، نظـرت إليهـا بنـوع مـن الاسـتهجان بسـبب حركتهـا تلـك، ثـم سـألتها بنـبرة اسـتغراب:

- أين إدريس، لم يظهر اليوم؟

- لم ألتـق بـه هـذا الصبـاح عـلى طاولـة الفطـور، لأنـه خـرج باكـرا عـلى غـير عادتـه قبـل أن أنهـض مـن فـراشي.

لم أضف أي تعقيب على كلامها.

في صالـة البيـت كان سـعيد واقفـا يعبـث بـأزرار أداة توجيـه التلفـاز، القنـوات تتقافـز أمامـه الواحـدة تلـو الأخـرى. إلى أن وقف جاثمـا أمـام الشاشـة العملاقـة يتابـع لقـاء عـرض كتـاب عـلى قنـاة كنـال ألجـيري، ثـم فجـأة غـير القنـاة.

كنت خلفه، أمرته أن يرجعها حالا.

لاحظت بعض ملامح الحيرة التي اعترته، لم أبال.

استجاب لطلبي من دون تردد.

حدقـت في التلفـاز شـابكا يـدي عـلى صـدري مـن شـدة ذهـولي بمـا كانـت تعرضـه تلـك القنـاة العموميـة. قـرأت اسـم ضيفـة اللقـاء المكتـوب وسـط أسـفل الشاشـة (فريـال بـن شـيكو فـيرون).

المـرأة كانـت تسـتحضر بطـولات جدهـا البشـاغا بـن قانـة بـكل فخـر واعتـزاز، ومنشـط اللقـاء يتابـع كلامهـا باهتـمام ظاهـر، دون

مقاطعتها، مبديا موافقته بحركة من رأسه.

غير أني في المقابل ظللت مشدوها، لا أعرف أأصدق ما أرى وأسمع أم أكذب!

هل أنا أحلم أم أهلوس؟

لاحظت أن سعيدا كان يتململ لأنه لم يدرك ما كان يتوزعني لحظتها، انتبهت إلى نظراته الحائرة وهو يترقبني تارة ويحدق في الشاشة تارة أخرى. وحتى أشبع بعضا من فضوله الحارق وأبدد سحب حيرته، خاطبته دون أدنى مقدمات أو اعتبارات لردة فعله، قائلا:

- لقد قطع هذا الرجل أذان ورؤوس مئات الجزائريين، وقدمها كعربون ولاء ووفاء لأحد جنرالات فرنسا، كما قام بأعمال فظيعة أخرى يندى لها الجبين إبان فترة الاستعمار الفرنسي!

- مستحيل! قال سعيد صارخا، وهو فاغر فاه، غير مصدق. وتأملني متفاجئا ومستاء في الوقت ذاته من هول ما سمع.

- هذا الشخص سيء الصيت كان عميلا للإدارة الاستعمارية، وهو مجرم حرب أيضا، وكونه جد المؤلفة هذا لا يمنحها الحق في أن تصفه بملك الزيبان. وأن تتغنى بمآثره وبطولاته المزعومة.

أردف سعيد بصوت ممزوج بالغضب والمرارة:

- هـذه إهانـة أخـرى لذاكـرة الشـهداء، فكيـف تقـوم قنـاة تلفزيونيـة عموميـة بتمجيـد ذاكـرة قاتـل ومعـذب الجزائريـين؟ تلـك القنـوات التـي تصـدع رؤوسـنا صبـاح مسـاء بشـعارات الوطنيـة، والواجـب الوطنـي، وغيرهـا مـن المقدسـات الأخـرى!

لأول مـرة أتفهـم ضجـر سـعيد مـن تلـك القنـوات، وانصرافـه لمـا كنـت أرفـع صـوت التلفـاز عاليـا حـين تبـدأ أخبـار الثامنـة. حاولـت أن أدعمـه في رأيـه:

- كان الأجـدر أن تهتـم قنواتنـا بمـن خـدم الثـورة، بأولئـك الأبطـال الحقيقيـين. ففـي الوقـت الـذي كان فيـه هـذا البشـاغا وأمثالـه ينكلـون بإخوانهـم الجزائريـين، كان هنـاك بعـض مـن الفرنسـيين والأجانـب الذيـن سـاندوا الشـعب الجزائـري بعدمـا وقفـوا ضـد إدارتهـم الاسـتعمارية، واختـاروا الدفـاع عـن القضيـة العادلـة. كموريـس أودان، وبيـار شـولي، وكلوديـن غيـو، وفرانـز فانـون، والمئـات مـن غيرهـم.

انتقل سعيد إلى موضوع آخر:

- سـبق لي وأن سـمعت بالمعمريـن والأقـدام السـوداء الذيـن رفعـوا دعـاوى قضائيـة لاسـترداد مـا يعتقـدون أنهـا ممتلكاتهـم العقاريـة، يدعـون أنهـم تركوهـا خلفهـم بعـد خروجهـم مـن الجزائـر تجـاه فرنسـا عقـب الاسـتقلال.

- إنـه عـار علينـا جميعـا يـا سـعيد، هـذه الأخبـار تذلنـا جميعـا. تعـرف أنـه في منتصـف ثمانينيـات القـرن المـاضي التهبـت السـاحة

غضبا بإقدام جريدة «Algérie-Actualité» الحكومية على إجراء حوار مع الجنرال السفاح مارسيل بيجار، أحد أهم ضباط فرنسا في حرب الجزائر، وصاحب مقولة: «التعذيب شر لابد منه». والكارثة الأكبر أن صحفي تلك الجريدة ختم الحوار بـــــــ»شكرا يا حضرة الجنرال».

- الأمر ذاته يا أبي بخصوص تشريف البشاغا بن قانة في قناة حكومية. المشكلة أن لا أحد يحاسب في هذا البلد. الكل يفعل ما يحلو له، دون عقاب أو تأنيب حتى.

لم تعد تصلني كلمات سعيد، فقط كنت أرى شفتيه تتحركان ببطء، وملامحه باهتة، ولغة جسده فاترة، وحفيدة البشاغا استحالت كمسخ مقزز على الشاشة الصامتة.

ظللت أفكر مكتوم الصوت في ملحمة (قالوا العرب قالوا)، كانت تصلني أصوات النسوة القسنطينيات وهن يتغنين بها، كما كنت أسمع موسيقى وطرب شيوخ المالوف بكلمات تلك الملحمة التي تروي مآثر وبطولات أحمد باي وخيانة بن قانة. كما تذكرت حكاية عقاب المناضل والمسرحي المكي شباح، وقفزت أمام عيني صورة قيام البشاغا بن قانة بجره وسحله وراء حصانه، لمسافة تتعدى المائة كلم، بعد اتهامه بتصريحات معادية له وللسلطات الفرنسية.

-٣-

هكـذا بـدأت حكايتـي مـع عريفـة الخياطـة، دون مقدمـات طويلـة، أو مثبطـات مفتعلـة، أو تمنـع مبالـغ فيـه. في البدايـة قـادني حـدسي إليهـا.

كلـما تصـادف وأن لمحتهـا في طريقـي تمـشي، إمـا وهـي قاصـدة التبضـع مـن المحـلات القريبـة، أو أثنـاء ولوجهـا مدخـل البنايـة وصعودهـا درجـات السـلم الإسـمنتية بكعبهـا العـالي المطقطـق، وجسـدها المتمايـس ذات اليمـين وذات الشـمال عـن قصـد وعـن غـير قصـد، إلا واشرأبـت نحوهـا الرقـاب والتهمتهـا العيـون بوميضهـا الحـارق، فقـد كان جسـدها البـض متوثبـا وكل مـا فيـه يكشـف عـن ذلـك.

كانـت ممتلئـة، «أيـن تلمـس تجـد»، كـما يصـف دومـا إبراهيـم صاحـب مقهـى أم درمـان محبوبتـه المحتملـة، لا هـي ثخينـة ولا هـي نحيلـة، لم تكـن تعـاني مـن أي عيـب كأغلـب أترابهـا مـن النسـاء، اللّـواتي أثقلـت حركتهـن كميـة الشـحوم البـارزة، أو غزتهـن

الصفـرة والجفـاف كأنهـن مجـرد هيـاكل فوقهـا أسـمال.

لهـا ذوق في الملابـس والألـوان، فقـد كانـت تختـار مـا ترتـدي بعنايـة بالغـة، وهـو سر تناغـم ملامـح جسـدها مـع كل مـا تلبسـه. إذ ذاك كانـت تتبـع دومـا حدسـها في اختيـار التصاميـم والألـوان والأقمشـة، تحـب التمتـع بالحيـاة وتهـوى الألـوان الهادئـة؛ غالبـا مـا كنـت أراهـا بالزهـري الباهـت أو الزهـري الناعـم، كل تفاصيـل ملابسـها تعـبر عـن شيء مـا في داخلهـا، فتصاميمهـا غارقـة في الأنوثـة، لكنهـا في ذات الوقـت تعكـس شـخصية امـرأة قويـة، فهـي كـما وصفتهـا تعـرف جيـدا كيـف تختـار أثوابهـا التـي تمنحها سـحرا لافتـا قلـما تجـده في امـرأة. فتلـك الثيـاب والملابـس التـي ترتديهـا ليسـت عاديـة، وغـير مكـررة، ولا تظهـر أجـزاء مـن جسـدها لكنهـا مغريـة في الوقـت نفسـه.

مضـت فـترة طويلـة وأنـا أتلصـص عـلى مشـيتها، وقـد بـدت لي مـن أول مـا لمحتهـا في ناصيـة الشـارع الـذي يعـج بالباعـة المتجولين وبطـاولات بيـع الخـضر والفواكـه أنهـا امـرأة لعـوب. ولمـا جـاءت فرصـة غـير منتظـرة وغـير مواتيـة تمامـا، لم أتركهـا تضيـع منـي، حاولـت أن أسـتغلها.

لمـا أمعنـت النظـر في عينيهـا فهمـت كل شيء، عـلى الرغم من أن الفـترة التـي تقاطعـت فيهـا نظراتنـا مـرت كلمـح البـصر، هـي نازلة وأنـا صاعـد في درج البنايـة، كان بشـير ميزيغـاش معـي، كيـف لي أن أهـرب منـه، وهـو ملتصـق بي كالشريـط اللاصـق، حيثـما يـراني يحـشر نفسـه، كرهـت منـه ومـن أسـئلته المنفـرة ومـن فضولـه

الفـج.

اسـترقت النظـر مـن دون أن ألفـت انتباهـه، شـتت تركيـزه بالـكلام، حظيـت بمجـرد ثـوان معـدودة، إلا أننـي تمكنـت مـن قـراءة الكثـير مـن الأشـياء في ذلـك الزمـن الهـارب والمتواطـئ.

اعترتنـي لحظتهـا رعشـة رهيبـة سرت في كامـل جسـدي مـن قمـة رأسي إلى أخمـص قدمـي، كادت أن تقـذف بقلبـي صوبهـا بمجـرد رؤيـة عينيهـا اللوزيتـين الكبيرتـين وحركـة رموشـها الآسرة.

لأيـام متتاليـة وتلـك الصـورة لم تغـادر مخيلتـي، أينـما وليـت وجهـي كنـت أراهـا.

أمـا لمـا سـمعتها تتكلـم بغنـج ودلال، أيقنـت دون أدنى مجـال للشـك أنهـا كـما توقعتهـا، وأن فراسـتي سـليمة؛ كـما لم يسـبق وأن خانتنـي مـن قبـل، إطلاقـا.

صوتهـا يلخـص كل الجـمال، مـضى رنينـه يخترقنـي، ويؤنـس وحـدتي بعذوبتـه ورقتـه وحنـوه، فقـد كان صوتهـا الآسر كنهـر عـذب يـروي بتدفقـه روحـي العطشـانة، أنـا الرجـل المتعـب مـن الخيبـات، المثقـل بـالآلام، لم أعـرف الفـرح، ولم يكتـب لمـسراتي أن تسـتمر.

مـن يومهـا تطـور مجـرى الأحـداث، ونشـأت بيننـا أمـور بقـت متواريـة عـن الأنظـار، فقـد بذلنـا قصـارى جهدنـا عـلى إبقائهـا بعيـدة عـن عيـون قاطنـي العـمارة المتربصـة بالأنفـاس وبـكل

كبـيرة وصغـيرة، وبتنـا نتقاسـم أسرارنـا وجنوننـا، وكان جـل مـا يحـدث بيننـا طـي الـسر والكتـمان. فهـي المـرأة الوحيـدة مـن بـين كل مـن عرفـت، التـي بإمكانهـا أن تخمـد نـار اللهفـة والشـوق والغوايـة، ولهـا القـدرة في ذات الوقـت عـلى أن تلهـب كل النـيران.

أعتقـد أننـي لم أعـد أشـتهيها فقـط، فقـد اسـتحال مـا كان بيننـا إلى حـب عميـق. وليـس في الأمـر أي شيء يدعـو للتفكـير أو التفلسـف، فعـلى قـدر بسـاطته كان محـض صدفـة لا غـير، وكل مـا في الحكايـة وهـي طبعـا وليـدة المصادفـة، أننـي وجـدت في عريفـة ذلـك الجانـب الـذي ينقصنـي، والأمـر ذاتـه حـدث معهـا.

إلى أن حـاول النـزق شـكري ابـن ميلـود قرباجـة الجـار السـاكن مقابـل بيـت عريفـة، البـاب بالبـاب، أن يهـدم جبـال الأسرار تلـك بمعـول الطمـع والتهـور. فـذات مسـاء عـلى غـير عادتـه اقـترب منـي، ثـم ألقـى عـلي التحيـة:

- مساء الخير عمي عبد القادر.

ردت عليـه بمثـل تحيتـه، وعلامـات الاسـتغراب باديـة عـلى وجهـي:

- مساء الخير ولدي.

رفـع رأسـه وثبـت عينيـه في عينـي ثـم فتحهـما أكـثر، وبعدهـا أردف قائـلا:

- تعرفنـي لا أحـب اللـف والـدوران، مـن الأخـير «أَزْرَعْ يَنْبَـتْ»

كـما يقـول المثـل الشـعبي.

شـتت تفكـيري بكلامـه. حاولـت أن أسـترجع كل مـا يمكـن أن يكـون ذا علاقـة بكلامـه، فعلـت ذلـك عبثـا مـن دون جـدوى. لم أصـل لأي شيء ذي قيمـة. لذلـك سـألته مسـتغربا:

- كيف، ما قصدك؟

تنفـس بمـلء مـا فيـه، وأعتـدل في وقفتـه مبديـا بعـض التحـدي، ثـم أردف:

- رأيت كل شيء بأم عيني.

حاولـت قـدر المسـتطاع أن أتماسـك، وأن لا أبـدي أي شيء قـد يورطنـي مـع هـذا المجنـون. وبنـوع مـن الحـيرة التـي لم أقـو عـلى إخفـاء علاماتهـا المباغتـة، سـألته مقاطعـا:

- عن ماذا تتكلم بالضبط؟

بمجرد أن أكملت السؤال بادرني قائلا:

- شاهدت ما يدور بينك وبين عريفة الخياطة.

كان المجـرم يتجسـس علينـا مـن عدسـة منظـار بـاب بيتهـم. فقـد لفـت انتباهـه أننـي لمـا أنـزل مـن الطابـق الثالـث وبمجـرد أن أكمـل درجـات الوصـول للطابـق الأول حيـث يقيـم، حتـى ينفتـح بـاب بيـت عريفـة نصـف قطـر أو أقـل بقليـل، وهـو رآني -حسـب مـا أخـبرني فيـما بعـد- أتجـاوز عتبـة بـاب البيـت أكـثر مـن مـرة.

اعتراني اضطراب وتوجس كبيرين، وبصوت متلعثم خاطبته:

- أخفض صوتك، تريد أن تفضحني. ما دخلك أنت في شؤون الكبار. الأفضل لك أن تنسى الموضوع، ولا تردد سيرتها على لسانك مرة أخرى.

ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة، ثم تنحنح، وبصوت كله إصرار خاطبني قائلا:

- لن أصمت هكذا دون مقابل. أريد مليون سنتيم.

دارت بي الدنيا واعترتني حالة ذهول. أحاول أن أثبت رجلي اليمنى على الأرض، كانت ترتعد بدون توقف.

لا أدري ما أصابني لحظتها، يدي بدأت ترتجف كذلك. أعتقد أن ضغطي ارتفع. بدأت أفقد السيطرة تدريجيا على الغضب الذي بدأ يعتمل في داخلي، وبصوت أجش يشي بكل ما اعتراني من قلق وذهول قلت له وأنا أدفعه من معصمه:

- غدا سأحضر لك المبلغ، اليوم البوسطة ما تخدمش. أسلمك المال شرط أن تبلع لسانك، وإلى الأبد. فهمت.

رد بإيماءة من رأسه مبديا موافقته على كلامي، لم يجرؤ هذه المرة على رفع عينيه اللتين أبقاهما مسمّرتَيْنِ بالإسفلت. ثم غمغم:

- حاضر، حاضر. فهمت.

نظرت إليه باشمئزاز، وتلا ذلك صمت خانق.

الملعون يحاول ابتزازي مقابل سكوته، ماذا أقدر على فعله، وأنا أشبه بالميت في يد من يغسله؟

لا مجال أمامي سوى الرضوخ لمطالبه.

ليلتها لم يغمض لي جفن، بقيت طيلة الليل وأنا أتقلب في الفراش، بالي مشغول بما دار بيني وبين هذا المخلوق السافل القذر، فقد كرهته لدرجة اشمئزازي من نطق اسمه.

كنت أنتظر ميلاد اليوم الجديد بفارغ الصبر، كمن ينتظر مولودا جديدا على أحر من الجمر. مضت الدقائق والساعات مملة ورتيبة، كأن الزمن يتباطأ عن قصد كي يغيظني.

مع تباشير الصباح بكرت قاصدا مركز البريد كي أسحب مبلغ المال المطلوب، وأغلق نهائيا باب جهنم الذي فتحه علي ذاك الملعون، لن أمنحه فرصة إفساد ذلك العالم الجميل الذي بنيناه أنا وعريفة، بكل مباهجه وأفراحه وحميمياته.

لن أسمح له، أو لأي كان من شياطين الإنس أن يخرجنا من جنتنا تلك، سأفعل أي شيء ممكن أو مستحيل، لا يهمني المال أو أي مقابل آخر، بقدر ما يهمني أن أحافظ على بقاء عالمنا غير المرئي الذي نفعل فيه ما بدا لنا، بعيدا عن قيود وإكراهات عالم الناس البائس.

أسلمه المال وأنتهي تماما من وجع الرأس.

فاجأني طابور طويل للرجال وآخر قصير للنساء عند بوابة بُوسْطَةْ البريد المغلقة.

أعتقد أن هناك من يبيت الليل كله بجانب السور المحيط بالمركز، خصوصا من المتقاعدين والشيوخ؛ فذات سفر إلى العاصمة انتبهت إلى جماعة أغلبها من كبار السن، مقرفصين وجالسين على حجارة مغطاة بورق الكرتون الممزق أو فوق مقاعد خشبية صغيرة جلبوها من بيوتهم، الواحد خلف الآخر، على شكل صف باتجاه البوابة.لم أعر الأمر انتباها وقتذاك، لكن اليوم أدرك المغزى من تجمعهم حينذاك.

بعد انتظار ثقيل فتحت الأبواب، انفرط عقد الطابور، وأنطلق الجميع في حركة عشوائية مسرعين ومهرولين، وبالقرب من مدخل القاعة زاد التصاقهم وتدافعهم وعلت جلبتهم وضجيجهم.

كانت القاعة تغلي والفوضى تعم كل المكان، وكنت أعطس من شدة الحساسية، فبعض الأجساد المتزاحمة تفوح نتانة وقذارة كجثة عفنة.

نظرت إلى ساعة يدي، الثامنة وست دقائق!

مازال الوقت مبكرا.

ذاك اليوم بقيت إلى غاية المساء، أتحمل هراء موظفي البريد وحكايات بعض الغوغاء الذين كانوا مصطفين معي في

الطابـور.

تـارة ينفـد المـال مـن الصنـدوق، وطـورا تتوقـف الموظفـة عـن الرقـن عـلى لوحـة مفاتيـح الحاسـوب الـذي أمامهـا، وتفتـح عينيهـا عـلى آخرهـما محدقـة بنظـرة بلهـاء صـوب الشاشـة، ثـم تنخـرط في الثرثـرة مـع زميلاتهـا أو في قتـل الوقـت الميت بالتسـكع بـين مكاتب المركـز وهـي تمضـغ العلـك كبقـرة تجـتر مـا أكلتـه مـن كلإ، أعتقـد أن تلـك العلكـة مـن فـرط مـا مضغتهـا فقـدت لونهـا وطعمهـا، تحـاول النفـخ في العلكـة التـي في فمهـا بطريقـة مقـززة، بشـفتيها المنتفختـين اللتـين تخفيـان خلفهـما أسـنانا ملطخـة بالسـواد.

ونحـن جاثمـين في مكاننـا، مستسـلمين لقدرنـا، لم نتحـرك قيـد أنملـة، فـأي إشـارة أو حركـة غـير مدروسـة قـد تجلـب لنـا متاعـب نحـن في غنـى عنهـا، في هـذا البلـد تتعلـم الاسـتكانة والرضـوخ مـع حليـب أمـك، فـأي موظـف بيروقراطـي تافـه بإمكانـه إدخالـك في متاهـة لا مخـرج لهـا، الحيطـة والحـذر مـن هكـذا رد فعـل جعلتنـا كالخـراف التـي تضـع رقابهـا تحـت رحمـة سـكين الجـزار. أعتقـد ونحـن في هـذا الموقـف أن المسـاجين أكـثر تحـررا منـا، وأن أي موظـف عمومـي بغـض النظـر عـلى أهميـة منصبـه أو حقارتـه قـد يكـون أكـثر جبروتـا وتنكيـلا وخشـية مـن أي سـجان.

لم يتجـرأ أي منـا عـلى النهـي عـن هـذا المنكـر، ولـو بكلمـة، الـكل راض وراضـخ لمشـيئة تلـك الموظفـة المسـتهترة. إلى أن انتفـض الرجـل الـذي أمامـي في الطابـور حانقـا:

- لـو كان رجـل يعمـل في مكانـك، لأخذنـا أموالنـا وانصرفنـا مـن سـاعات. الرجـال تفتـك بهـم البطالـة وأنـتن تنعمـن بمناصـب الشـغل، زاحمتنّهـم في كل شيء، حتـى في سـياقة السـيارات، وفي النهايـة لا شـغل ولا مشـغلة غـير تعطيـل خلـق اللـه.

كنـت أراقبـه خفيـة بطـرف بـصري، إنـه كهـل يطـرق أبـواب الشـيخوخة، يرتـدي سـترة دونغـري وتحتهـا قميـص عليـه خطـوط زرقـاء، شـعره لا هـو أسـود ولا هـو أبيـض، حاجبـاه مقرونان بشـعر كثيـف يـكاد يلامـس عينيـه البنيتـين، يظهـر أنـه حلـق وجهـه هـذا الصبـاح بعنايـة فائقـة قبـل أن يخـرج، أنفـه طويـل بعـض الـشيء لكنـه لم يفسـد وسـامته، يرتـدي سروالا فولـور داكـن اللـون، وحـذاء متواضعـا وغـير ملفـت بشـكل كبـير.

حـل صمـت ثقيـل داخـل المركـز، كل الأبصـار مصوّبـة نحـو المـكان الـذي يصـدر منـه الصـوت، تترقـب بفضـول كبـير لاكتشـاف صاحبـه وسـط الزحمـة التـي تعـم المركـز.

هـذا الوضـع شـجع الشـيخ عـلى مواصلـة كلامـه والاسترسـال في التذمـر، عـلى الرغـم مـن أنـه كان يتنفـس بصعوبـة وبالـكاد يلحـق الكلمـة بالأخـرى، وعـلى الرغـم مـن المشـقة يظهـر أن الغضـب الـذي كان يمـور داخلـه حـرر لسـانه ومنحـه الجهـد والطاقـة كي يفـرغ تلـك الشـحنة الثقيلـة:

- لـو كان الأمـر بيـدي لسـننت قانونـا يحـرم عـلى المـرأة العمـل والخـروج مـن بيتهـا، ولا أسـتثني سـوى الأمـور التـي تقتضيهـا

الـضرورة ويبيحهـا الـشرع. عمـل المـرأة هـو السـهر عـلى تربيـة أبنائهـا ورعايـة زوجهـا والحفـاظ عـلى أسرتهـا.

اعـترت ملامـح المتدافعـين في الطوابـير مسـحة مـن الرضـا، فالشـيخ نـاب عنهـم وعـبر عـن صوتهـم الداخـلي المكتـوم، فقـد أشـفت كلماتـه بعضـا مـن غيظهـم.

تململـتُ مـن الوقـوف، ولمـا التفـت خلفـي وقـع نظـري عـلى زيـن العابديـن لَعْـرَجْ وهـو جالـس بالقـرب مـن طاولـة مهملـة يحـاول إخفـاء ضحكـة صفـراء انفلتـت منـه دون قصـد، بالانكبـاب عـلى تعبئـة رصيـد شـيك للمـرأة المتسـمرة أمامـه، فهـو يحـاول جاهـدا كسـب ود موظفـي البوسـطة، فيضطـر في سـبيل ذلـك إلى القيـام بـشراء طلبياتهـم وتلبيـة حاجاتهـم؛ كجلـب القهـوة والشـاي والسندوتشـات إلى مكاتبهـم وشـبابيكهم.

يقـوم بـكل تلـك الأدوار وأكـثر مـن أجـل غـض طرفهـم عـن ارتزاقـه مـن تعبئـة الشـيكات والحـوالات الماليـة لكبـار السـن وللعاجزيـن عـن الكتابـة.

يقـال أن عرجـه ناتـج عـن إصابتـه بشـظية متفجـرة مـن قنبلـة تقليديـة لمـا كان مجنـدا في صفـوف الجيـش، في أتـون الحـرب الأهليـة بـين أبنـاء البلـد الواحـد، التـي قطفـت أرواح مئـات الآلاف مـن الضحايـا الأبريـاء.

فجـأة ظهـرت الموظفـة القميئـة، وراحـت ترغـي وتزبـد بطريقة هسـترية حتـى كادت حنجرتهـا أن تنفجـر مـن شـدة صراخهـا،

فـكان رأسـها يتحـرك كـرأس أفعـى، وعيناهـا تتراقصـان غيظـا ووجههـا الحـاد مـا ينفـك يلتفـت في كل الاتجاهـات كالممسوسـة.

كانـت تقـذف بكلماتهـا صوبنـا دون اسـتثناء، كمـن يفـرغ رشاشـه في وجـه كل مـن يعـثر عليـه أمامـه. دومـا الحجـج ذاتهـا، يتعطـل النظـام الالكـتروني بسـبب الضغـط، أو بسـبب ضعـف تدفـق النـت. لكـن أغلـب مـن في الطابـور متيقنـون أن العطـل مقصـود وتـم بفعـل فاعـل مـن داخـل مركـز البريـد، كي يتـاح لهـم التهـرب مـن العمـل والركـون للراحـة والكسـل، دومـا هـذا هـو ديـدن الغالبيـة العظمـى مـن موظفـي الهيئـات العموميـة.

عـلى كل خرجـت مـن البوسـطة منهـكا، ومتهالـكا، ومعنويـاتي في الحضيـض. غـادرت ذاك المسـاء البوسـطة خـالي الوفـاض، كيـف أفعـل مـع الملعـون الـذي وعدتـه بإحضـار المـال؟

-٤-

بينما كنت أعبر الشارع المقابل للسوق المغطاة، أسمع الأطفال ينادون الواحد تلو الأخر:

- «يا الطاهر يا المهبول.. يا الطاهر يا المهبول...».

سرعان ما يكررونها، وبعدها ينقطعون، فجأة يجرون هاربين، هنيهات، ثم يتوقفون متفرقين، يلتقطون أنفاسهم، ويواصلون عبثهم الثقيل. يستأنفون جريهم من جديد، يظهرون ثم يختفون بسرعة، في مداخل العمارات المحيطة، وخلف البنايات القريبة، أو وراء أي شيء صالح للاختباء.

لا أثر لهم كأنهم تبخروا في الهواء.

المسكين يرغي ويزبد، أراه يستشيط غضبا، وهو يلهث من شدة الجري والبحث عنهم، هنا وهناك، وفي كل الأمكنة التي تصلها قدماه.

وجهه يكاد ينفجر من شدة الغيظ، وهو يصرخ فيهم سبا

وشتما، لم يترك ولم يبق أي كلمة، لا كبيرة ولا صغيرة في قاموس الكلمات النابية، إلا وقذفهم بها.

هؤلاء الأطفال لا يسلم من أذاهم عاقل أو مجنون.

أباؤهم يلدون ويتكاثرون فقط، ثم يرمون ببرازهم على خلق الله.

في هذا الحي لما يتذمر أحدهم من السلوكات الشاذة والممارسات الطائشة لهؤلاء الأطفال، لا يتورع عن لعن أبائهم بصفة مباشرة وصريحة، وفي أغلب الأحيان هناك اتفاق غير مقصود أو ربما مقصود بصفة رمزية غير معلنة على الأقل، بين سكان الحي أو سكان الأحياء القريبة على صيغة موحدة في الوصف، فغالبا ما يتم نعت هؤلاء الأولياء بالكلاب التي تترك جراءها في عراء الشوارع السفلية. دوما ما كان حدوث هذا الأمر لما يتصادف مع حضوري، يشفي بعضا من الغيظ في داخلي، فدوما ما كنت أرفع عن هؤلاء الأطفال الشياطين مسؤولية أفعالهم، على الرغم من بغضي الشديد لهم، وكرهي الذي لا يوصف لطفولتهم المريضة والمشوهة والمنحلة، التي نبتت وانتشرت مثل ورم خبيث في أغلب الأحياء.

كنت ألعن في داخلي آباءهم، وأشبهم بالدواب أو بما هو أشد، يتناكحون وكفى، لا مسؤولية، ولا تربية، ولا رعاية، ولا هم يحزنون! بعدها يتباكون: «لماذا أولاد فلان وعلان نجحوا وصلح فيهم ربي، وأولادنا نحن فاشلون، وخايبون، وما قَرَّشْ فيهم».

طبعا كان كل هذا يدور في خاطري، وحتى وإن فكرت به بصوت مسموع، لم يسبق وأن تجاوز الأمر جدران بيتي.

في الصباح لما أقصد كشك الجرائد المقابل لدار البلدية، كثيرا ما كنت ألمح الطاهر سموك البهلول يتأبط جريدتين. ففي كل صباح جديد كان يقتني جريدتي الشرق الجمهوري والوطن الناطقتين باللغة الفرنسية، الأولى جريدة محلية والثانية وطنية. وكل مرة هناك من جيرانه أو من معارفه من يدفع عنه ثمن الجريدتين. على شرط أن يشرح لهم نظريته المسماة: «الرَّهْجْ في البَاراَجْ». طبعا من أجل التسلية التي يضفيها الطاهر بجديته الظاهرة في الحديث وقصفه المتهكم على المجتمع بكل شرائحه، دون استثناء أحد، حتى ولو كان هو.

لما كان يسترسل في الشرح، كان الأمر يروقهم كثيرا، لما كان يظهره من سذاجة وبلاهة، تراهم منبسطين ومأخوذين خلف كلماته اللاذعة والجارحة والناقمة. والطاهر بمعطفه الطويل المتسخ والممزق، وشعره الأشعث والأغبر، ولحيته غير المتناسقة، والتجاعيد التي بدأت تظهر فوق عينه السوداوين، وبقعة شبه زرقاء أسفلهما كسحابة سوداء داكنة، يحرك يديه في كل الاتجاهات، محاولا إقناعهم بمنطق نظريته، كأنه في مدرج يحاضر عن نتائج دراسة مهمة.

في البداية كنت أسترق السمع، وفجأة غمرتني رغبة في الاستماع إلى الطاهر، جذبتني كلماته، لذلك اقتربت. وكلما كان الطاهر يواصل، زاد التفاف الخلق من حوله على شكل

حلقـات متلاصقـة، لا تتوقـف عـن الاتسـاع. مـا جعلنـي أسـترجع تفاصيـل حلقـات سـاحة الهديـم بمكنـاس أو سـاحة الفنـا بمراكـش، وغيرهـا. كـما كانـت الابتسـامات الماكـرة ترتسـم عـلى وجـوه الحشـد، والضحـكات تتعـالى بفعـل السـخرية السـوداء التـي كانـت تطبـع كلـمات الطاهـر.

كان اليـوم ربيعيـا لكـن أشـعة الشـمس كانـت جارحـة وحارقـة بعـض الـشيء، كنـت تـارة أحمـي عينـي بكـف يـدي اليمنـى مـن أثـر انعكاسـها، وطـورا أتركهـا بـلا حمايـة تـرف باسـتمرار. لم أبـال بأشـعة الشـمس، كنـت لحظتهـا وسـط الحشـد، أصيخ السـمع وكأن عـلى رأسي الطـير، ثابتـا في مـكاني، لا أتحـرك ولا أسـتدير خلفـي أو في أي اتجـاه آخـر، عـدا أن نظـري وكل حـواسي كانـت كلهـا مصوبـة إلى البقعـة المظللـة التـي كان يقـف عليهـا الطاهـر، في الحقيقـة كنـت مسـحورا بكلامـه، مزيـج غريـب بـين الجنـون والعقـل! عـلى الرغـم مـن حماسـته في الـشرح، وقدرتـه عـلى الـكلام دون انقطـاع، إلا أنـه بـدا خائبـا، ويشـعر بنـوع مـن الغثيـان مـن هـذا «الشـعب الغـارق في بؤسـه وتناقضاتـه ونفاقـه واسـتكانته، إلى درجـة أنـه مسـتعد لمـدِّ رقبتـه بـكل رضـا وخنـوع لـكل مـن يرغـب في ذبحـه مـن الوريـد إلى الوريـد، للظلاميـين سـادة القتـل والتخريـب، كـما لـولاة الأمـور وعبـدة السـلطة والمسـؤولية سـادة النهـب والفسـاد، مهـما كان ترتيبهـم في السـلم الوظيفـي أو في هـرم القيـادة»، كـما كان يـردد في كلامـه.

الجميـع وفـق رأيـه: «متـورط وغـارق حتـى الـرأس في الفسـاد

والخـراب». عـلى الرغـم مـن اعتقـادي بأنـه بالـغ بعـض الـشيء في هـذا الوصـف الشـنيع.

لكـن لا يعنـي أن عـدم اتفاقـي معـه، واعـتراضي عـلى مـا كان يقولـه، سـينفرني مـن الاسـتمرار في الإصغـاء لكلامـه، بـل بالعكـس، واصلـت الإصغـاء لـه بـكل اهتـمام.

مـن حـين لآخـر كان يتعـالى صـوت نشـاز ثـم يخفـت، حاولـت أن أتبـين مضمـون كلـمات ذلـك الصـوت، بصعوبـة تمكنـت مـن تفكيـك لغزهـا، كان صاحـب الصـوت يـردد:

- «ألعبها مهبول تشبع كسور.. ياو فاقوا..».

عـلى الرغـم مـن أن الطاهـر واصـل كلامـه في البدايـة، غـير مبـال بمصـدر الصـوت وفحـواه، فإنـه مـع تكـرار الأمـر، بـدا منزعجـا بعـض الـشيء، مـن صخـب التعليقـات والهمهـمات والقهقهـات التـي أثارهـا ذلـك الصـوت؛ مـن خـلال تقطيـب جبينـه، وأصابـع يديـه التـي مـا ينفـك تـارة يحـك بهـا أرنبـة أنفـه، وطـورا يمسـح بها جبهتـه، ثـم ظهـر عليـه التشـنج والاضطـراب والتلعثـم في الـكلام.

بـدأ بعـض الحضـور ممـن هـم في الحشـد يتضايقـون ويصرخـون عـلى صاحـب ذلـك الصوت:

- «أششت..أسكت..أسكت.. أقفل فمك.. بَلَّعْ فمك».

خمـد ذلـك الصـوت النشـاز، مستسـلما وراضخـا لرغبـة النـاس. هـدأ الحشـد، وعـم السـكون المـكان، عـدا صـوت الطاهـر الـذي

ساد مجددا، وأستأنف حضوره الطاغي، فالجميع يصغي بانبهار لما كان يتلفظ به.

حدثنا الطاهر يومها عن حكاية نظريته «الرهج في الباراج»، وأطنب في التفسيرات والشروحات المستفيضة كأنه مجنون في ثوب عاقل؛ مما قاله إن « هذا الشعب من رأسه إلى ذيله، ميؤوس منه، ولا خير يرتجى منه، ولا جدوى من بقائه، ويجب تطهير البلد منه. لا حل متاح يخلصنا من شر هذا الشعب البائس، إلا تسميم كل السدود التي يتزود منها بالماء الشروب». ونذر نفسه للقيام بهذا الواجب المقدس.

كما أخبرنا الطاهر أنه «بعد أن يطمئن على نجاح مهمته، طبعا من خلال موت جميع أفراد هذا الشعب، دون استثناء لا النساء ولا الأطفال ولا العجائز، حينها سيأتي دوره، ويشرب من هذا الماء المسمم عن طيب خاطر. عندها لا يبقى أي أحد على قيد الحياة، وفي انتظار أن يأتي الأمل على يد شعب آخر، يستوطن أرض هذا البلد، ويعمرها من جديد».

من حين إلى آخر كنت أرى كتابات باللغة الفرنسية على أرصفة الشوارع، وعلى بعض المساحات القريبة من المقاهي والمحلات التجارية، كنت أشد على فتحتي أنفي بالسبابة والإبهام، الرائحة كريهة ولا تحتمل إطلاقا.

لما سألت، أخبروني أن الطاهر سموك البهلول يبيت الليل يخط أرصفة الأحياء القريبة بالغائط. إلى أن شاهدته ذات صباح

باكـر يغـرز أصبعـه في أعـماق دبـره، بطريقـة مقـززة ومقرفـة إلى درجـة أننـي تقيـأت مـن بشـاعة المنظـر. لم أسـتطع التوقـف، أخرجـت كل مـا في أمعـائي.

ومـرات أخـرى كنـت أراه طـوال اليـوم إمـا نائمـا أو يهـرول وينـادي عـلى الأشـهاد:

- «يـا نـاس مـا بقـا والـو.. بقـا غـير المـاء يحـما.. الدنيـا بنـت كلـب.. والنـاس عميـان وراهـا.. كلاونـا الكوافـة والجبـورة.. ولينـا أحنـا أولاد البـلاد ضايعـين.. وهـما يحكمـوا بأحكامهـم.. وجـوه البـق، دمنـا كامـل مصـوه.. مـا يشـبعوه، يوكلـوا كي الحلالـف، الجيعانـين في كروشـهم.. مـا يحشـموش، وجوهـم صحـاح مـا يعرقـوش، ومـا يعرفـوش القـدر.. بـلا أصـل.. لا ديـن ولا ملة..فرنسـا خرجناهـا بالقـوة وهـم اسـتعمرونا.. وجـوه نمي..تفووووه..الـخ».

تلـك الجمـل مـا فتـئ الطاهـر يكررهـا بمواظبـة وحـرص شـديدين، كأنـه يـؤدي طقوسـا دينيـة غريبـة، كانت أشـبه بصلوات يرددهـا كل يـوم في أوقـات منتظمـة بعينهـا، كلـما حطـت ركائبـه في شـارع مـا أو في مـكان يتجمـع فيـه النـاس، كالسـوق الفوضـوي، أو بمحـاذاة المحـلات المتراصـة بالقـرب مـن بعضهـا دون هامـش أو مسـاحة.

سـمعت مـن بشـير ميزيغـاش أن الطاهـر قبـل جنونـه كان يشـغل منصبـا مهـما في مركـز السـيفوص للتكويـن المعـروف والذائـع الصيـت، والمصنـف آنـذاك الأول إفريقيـا. كان حينـذاك

يحسب له ألف حساب؛ سلطة المنصب ونفوذه منحاه هيبة ووقارا وكلمة مسموعة.

الرجل أكمل دراساته العليا في فرنسا، ومن فترة لأخرى يتم إرساله في بعثات تكوينية لتنمية معارفه ولتطوير كفاءته واكتساب مهارات مهنية جديدة، إلى بعض الدول الأوروبية وعلى رأسها الشرقية، وبحكم أن هناك شراكة مع الاتحاد السوفياتي سابقا، كان يتردد كثيرا على موسكو وكييف الأوكرانية على وجه الخصوص.

لكن بعد تسريح العمال في فترة التسعينيات، وغلق أهم المؤسسات والشركات العمومية بطريقة تعسفية، وفي الأول والأخير كانت اليد الطولى لرجال يدعون الوطنية، أصحاب المهام القذرة، في تطبيق تلك السياسات الليبرالية المتوحشة التي أقرها خبراء صندوق النقد الدولي.

كان الطاهر ضمن بقايا الموظفين والعمال الذين فرض عليهم خيار التسريح، كان يعتقد أنه سيتمكن من خط حياة جديدة بتوظيف مبلغ المال الذي منح له في إطار التسريح الطوعي.

في البداية اعتقد أن المبلغ مهم، وبإمكانه أن يوفر له حياة كريمة من خلال استثماره في مشروع إنشاء شركة صغيرة.

مع مضي الوقت بدأ المال ينفد رويدا رويدا، فزوجته استماتت في طلب تجديد أثاث البيت وفرشه، وفي اقتناء

الكماليات الأخرى. على الرغم من أنه عارض الفكرة في بداية الأمر، لكنه استسلم لرغبتها تلك بعدما استنفدت كل أساليب الإغراء وطرق الضغط من أجل غايتها.

ذات صباح نهض على حقيقتين مفزعتين؛ الحقيقة الأولى هي أنه أصبح خالي الوفاض؛ صرف كل المال الذي كان معه، ولم يبق منه أي فلس. إلى أن أصبح عاجزًا عن اقتناء كيس حليب لأولاده. كما أن زوجته حزمت حقائبها وغادرت البيت دون أن تشعره بخبر رحيلها.

هربت من دون رجعة، وتركت له بنتا وولدين، أحدهما معوق توفي فيما بعد. عاش أسوأ الأحوال. تبنت أخته الزهرة التكفل بابنه وابنته التوأمين. من كثرة المشاكل، والعيش بمفرده، جن بعدها.

-٥-

في طريق العودة إلى البيت، صادفت عديلة المومس خارجة من محل سلمى الحلاقة. يلحقها صرير الباب الذي أغلقته كيفما اتفق، وانطلقت مخطوفة إلى سيارتها المركونة عند الرصيف، وهي تضغط بسبابتها على المفتاح بشكل ظاهر.

كنت قريبا جدا منها، إلى درجة أن صوت سيارتها وهي ترغي صدع أذني.

تجاهلتني، ولم تكد تلتفت باتجاهي.

كانت في كامل أناقتها، بشعرها الذهبي المنسدل، وقد غطى عينها اليمنى، وهي ترتدي المعطف الأحمر الطويل، وتنتعل الكعب العالي. كانت دوما حريصة على الظهور بشكل مميز ولافت.

تلفح وجهي نفحات عطرها الباريسي شانيل.

إنها امرأة في الخمسين من عمرها، ومع ذلك لا تزال غضة

وممشوقة القوام. كأنها لا تكبر إطلاقا، أو كلما تتقدم في السن يتفتح جمالها أكثر.

غالبا ما كنت أختلس النظر إليها، خصوصا أثناء ارتشافي كوب الشاي المعشب على شرفة بيتي.

أعرف أنها لم تكترث لوجودي، فلم تكن بيننا معرفة، ولم يسبق وأن تجرأت وكلمتها.

حركت المفتاح، شغلت محرك السيارة، من خلف زجاج سيارتها بدت أكثر فتنة.

دقائق معدودة وانطلقت السيارة، تبعتها بعيني إلى أن تلاشت.

عديلة المومس تقيم في العمارة المقابلة لمسكني، منحها والي المدينة الأسبق -قبل عقود- سكنا، كهبة نظير خدماتها في توريط الفتيات الصغيرات والقاصرات في الدعارة والبغاء. ومعروف أن هذا الوالي وزع عشرات السكنات على حبيباته وعشيقاته في مختلف الدوائر؛ كالبوني وليزالمو على وجه الخصوص. وهو ما يتداوله الناس هنا سرا وجهرا، في أحاديثهم ومجالسهم المغلقة والمفتوحة، دون أدنى حرج أو تحفظ.

كما سمعت كذلك من بشير ميزيغاش، الذي يعرف أسرار وحكايات وحوادث الناس بكل دقائقها وتفاصيلها الكبرى والصغرى، كما يعرف راحة يده؛ أن هذا الوالي يعيش اليوم

حيـاة ضنكـة، فقـد تسـبب لـه ارتفـاع مفاجـئ في ضغـط الـدم في إصابتـه بشـلل نصفـي، أقعـده الفـراش مـذ سـنوات.

وذات يـوم أخرجـه ابنـه للتفسـح معـه، كان الابـن يجـر بـه كـرسي المقعديـن المتحـرك، بالقـرب مـن ثانويـة القديـس أوغسـطين. بينـما كانـا يتبـادلان أطـراف الحديـث، كانـت عينـاه في ذات الوقـت ترقبـان المبـاني وحركـة النـاس وملامحهـم وسـحنتاهم، وفجـأة ودون سـابق إنـذار توقفـت أمامـه امـرأة طويلـة ومكتنـزة، ترتـدي مـلاءة سـوداء وعجـارا، لا يظهـر مـن وجههـا سـوى عينيهـا الملتمعتـين ببريـق التحـدي، أمـا الجـزء الطفيـف الظاهـر مـن أسـفل سـاقها فيظهـر تلـك الحمـرة الممزوجـة ببياضهـا الشـمعي.

حدّقـت فيـه مليـا، ثـم حولـت بصرهـا إلى سـترته الزرقـاء ذات الماركـة المعروفـة. وأردفـت قائلـة بعـد أن ركـزت عينيهـا في حذائـه الأنيـق جـدا والنظيـف واللامـع، والـذي يظهـر أنـه لم يطـأ الأرض قـط:

- هل عرفتني يا ...؟

نظـر الرجـل إلى اليسـار مسـتغرقا في التفكـير، ومحـاولا أن يسـتذكر رابطـا مـا. وقـال مسـتغربا:

- معذرة يا سيدتي لم أتذكرك، خانتني ذاكرتي.

- أنا والدة سلوى مرابط.

زادت حـيرة الرجـل وذهولـه، وحـاول اسـتقراء واسـتنتاج مـا

تفكر فيه تلك المرأة، نظر في وضعية عيونها عله يكشف شيئا ما. ولما عجز أمام عينيها اللتين تتقدان شررا، توجس خيفة مما قد تخفيه خلف ملامحها غير المطمئنة، لذا طلب من ابنه أن يتركه وحده مع تلك المرأة، بعد أن ابتعد ابنه أردف قائلا:

- مرة أخرى، خذلتني ذاكرتي المثقوبة. فقد مر علي في حياتي أناس كثيرون، ويستحيل علي أن أتذكرهم جميعا.

لم تمهله المرأة حتى يكمل كلامه، قاطعته مذكرة:

- ابنتي التي فضضت بكارتها وهي قاصر، لما كنت على رأس الولاية.

دمعت عيناه، ثم أجهش في البكاء؛ بكى الرجل يومها بحرقة شديدة، إلى درجة أنه أصبح في حالة يرثى لها، فظهر كقط يرتجف بطريقة تثير الشفقة بعد أن أخرج من برميل ماء بارد.

وجهه تبلل وأنفه تمخط.

انتبه له بعض المارة من الذين كانوا يقطعون ممر الراجلين القريب منه، أو يعبرون على الرصيف الضيق بمحاذاته، لم يأبه لهم، ولا لفضولهم القاتل وتلصصهم المرضي الذي جعلهم يبطئون الخطى، ويرهقون أذانهم في استراق السمع. لأنه كان مصدوما، ومشتتا، ونهبا لكل الهواجس والمخاوف المفزعة التي

كانـت تتوزعـه لحظتهـا.

لم يخطـر عـلى بالـه مـا حـدث، كان وقـع كلام المـرأة عليـه كوقـع قنبلـة انفجـرت عـلى حـين غـرة، وسـط جمـع مـن النـاس، تختلـط فيهـا الأشـلاء المتطايـرة مـع الغبـار الكثيـف.

حـاول عبثـا أن يشـد عـلى يدهـا ويقبلهـا، حـررت يدهـا مـن قبضتـه القويـة، وسـحبتها إليهـا بغضـب. قبـل أن يخاطبهـا مترجيـا بصـوت كان مختنقـا داخـل حلقـه:

- أرجوك سامحيني، واغفري لي.. أترجاك بكل عزيز عليك.

لم تجبـه المـرأة عـلى الفـور، فقـط ثبتـت عينيهـا الجارحتـين مـرة أخـرى فيـه، كسـهمين حادين مصوبـين نحـو وجهـه المنهـك، والـذي تقلـص بفعـل الصدمـة، إلى درجـة أنـه أصبـح بحجـم برتقالـة.

تـلا ذلـك صمـت رهيـب وطويـل كاد يخنـق الرجـل ويعصـف بـه.

- .....

بـدا الرجـل لحظتهـا عاجـزا ومتهالـكا جـدا، ووجـه مصفـر كحبـة ليمـون، كان منظـره يثـير شـفقة كل مـن يـراه عـلى هكـذا حـال. وهـو لا يلبـث وأن يكـرر رجـاءه عـلى المـرأة، بصـوت خفيـض ومسـتكين، كأنـه يريـد أن يخلـص رقبتـه مـن حبـل المشـنقة الملفـوف عليهـا:

- أنت ترين بأم عينك وضعي، يكفيني ما حل بي.. لقد سددت الفاتورة كاملة، وأكثر. لقد دفعت ثمن أفعالي دون تقسيط. أتوسل لك، اصفحي عني. أريد أن أتخفف من ثقل ما أقدمت عليه في الماضي.. أطلب الرحمة والغفران.

مرة أخرى، لم تمهله المرأة مواصلة حديثة. بنبرة متعالية وماكرة خالية من أي شفقة، قاطعته:

- إطلاقا، لن أسامحك ما حييت. وسأبقى أدعو عليك؛ وما حدث لك قليل.. وانتظر، وستعيش لترى الدود ينبجس من لحم فخذيك المتحلل والمتعفن.

لم تضف أي كلمة أخرى، فقط انصرفت، ثم اختفت. ذابت في زحمة أزقة حي لاكولون، كأن الأرض انفتحت وابتلعتها. حاول الرجل أن يعرف أي اتجاه سلكته المرأة المغادرة. لكن عبثا لم يوفق.

لم أكن أتخيل انتقام الحياة بهذه الطريقة البشعة؛ إذ أصبح الناس يجنون محصول تصرفاتهم في الحين، دون أدنى تأجيل أو تأخير. أضحوا يدفعون الثمن في الدنيا قبل الآخرة. لا مجال للتملص مما جنته أيدينا، أو التهرب من تحمل مسؤولية أفعالنا، أو التظاهر بالنسيان ونكران الحقيقة. الجميع معرض للحساب والجزاء، دون استثناء، مهما كان المنصب الذي تبوأه، أو النفوذ الذي يحظى به، أو السلطة التي بين يديه. إذ ينبغي أن يقف الجميع سواسية، على حد سواء، فوق حبل المواجهة

والمكاشـفة. الدنيـا كالبحـر تصفـي نفسـها بنفسـها، لهـا قانونهـا الخـاص، بالمحصلـة كل شيء بقـدر ومقـدار.

كان هنـاك شيء مـا في داخـلي يربطنـي بعديلـة، لا أملـك تفسـيرا له !

لسـت أدري إن كان هـذا الشـعور مـرده إلى الشـفقة، أم أن ثمـة أمـرا آخـر نمّـى هـذا الإحسـاس الغريـب في أعماقـي تجـاه امـرأة لم يتصـادف وأن تحادثـت معهـا بكلمـة قـط.

مـرة أخـرى لا ألبـث وأن أفكـر في هـذا الأمـر، ولا أتوقـف عـن التسـاؤل في قـرارة نفـسي عـن مـرده.

غالبـا مـا كنـت أرجـح تعاطفـي وأُغلِّـب تضامنـي المعنـوي معهـا عـلى كل منطـق آخـر. خصوصـا عندمـا عرفـت السـبب الـذي حملهـا عـلى التحـول إلى مـا هـي عليـه؛ بسـبب اعتـداءات زوج أمهـا المتكـررة عليهـا، فقـد كان يتحـين الفـرص كي يعتـدي عـلى شرف أنوثتهـا وينتهـك براءتهـا، في غيـاب أمهـا.

عرفـت أمهـا لاحقـا بالأمـر، لكنهـا لم تحـرك سـاكنا، خشـية مـن تهديـد اسـتقرار أسرتهـا الجديـدة، وحفاظـا عـلى بقائهـا تحـت سـقف منـزل ذلـك القـذر!

أمها لم تهتم بها، ضحت بها مقابل حياتها مع زوجها.

كيف استطاعت فعل ذلك؟

كأنـه لم تكـن تحظـى بـأدنى قيمـة أو أهميـة مطلقـاً في ترتيبـات وحسـابات أمهـا.

حينهـا تضاعفـت رغبـة عديلـة في أن تنتقـم لنفسـها، تمكـن ذلـك القـذر مـن تحويلهـا إلى وحـش لـه أنيـاب ومخالب.

أرادت أن تنتقــم مــن كل البنــات الصغــيرات اللــواتي يحظــين بكامـل الرعايـة التـي افتقدتهـا هـي في طفولتهـا المحرومـة مـن حنــان ورعايــة الأب.

الكبـار يتطلقـون ويعبثـون ولا يهتمـون، والصغـار دومـا مـن يدفعـون ثمــن تهورهــم!

غالبــا مــا تطأهــم الأرجــل، ولا أحــد ينتبــه لهــم في زحمــة الضغوطـات وجلبـة المشـاكل والصراعـات التـي تعصـف بأسرهـم.

-٦-

لمحته من بعيد مجتمعا بشلته عند جانب البناية المتواري عن المدخل، زاد ارتيابي وتوجسي من الأمر، حاولت أن أتجنبه، كانت عيناي تترقبانه بحيطة وحذر، وأنا مسرع الخطى صوب مدخل البناية.

لا أعرف كيف ظهر أمامي كالشبح، ازداد فزعي وهلعي من الموقف الذي وجدتني فيه.

استجمعت قواي، وركزت بصري على أنفه، بينما لمحته يُثَبِّت ناظريه على جبيني بنوع من الغرور والتسلط، ولكي أتحكم بالموقف لم أمهله لحظة كي يتجشأ أمامي تهديداته، تقيأت في وجهه الطفولي المقزز كل ما حدث معي طيلة اليوم في بوسطة البريد.

بينما كنت غارقا في الحديث، كان شكري ابن ميلود قرباجة يضع ذقنه على يده، ثم يقوم بفرك مؤخرة رقبته بين الحين والآخر كي يشعرني بأن حديثي الممل قد أصابه بالضجر. وعند

ذلـك وعدتـه أن أنهـي الأمـر غـدا عـلى أقـصى تقديـر، نظـر إلى الأسـفل والأعـلى برهـة زمـن حتـى بـدا لي كأنـه مسـتغرق في التفكير أو يحـاول أن يتذكـر شـيئا مـا يريـد قولـه، ثـم أومـأ برأسـه موافقـا.

كان يومـا طويـلا، وشـاقا، ومضغوطـا جـدا إلى درجـة أننـي نسـيت السـؤال عـن ابنـي إدريـس.

نمـت كجثـة هامـدة، إلى غايـة سـاعات الصبـاح الأولى حيـث عاودتنـي الكوابيـس اللعينـة ذاتهـا، فنهضـت مذعـورا ومفزوعـا، أتصبـب عرقـا كأننـي غمسـت في حـوض مـاء بـارد.

خرجـت مـن غرفتـي صـوب الحـمام، لم يشـعر بي أحـد، الجميـع كانـوا نيامـا، حتـى أننـي خرجـت مـن البيـت مـن دون أن أتنـاول وجبـة إفطـاري، في العـادة كنـت أكتفـي بـكأس حليـب ممـزوج بالقهـوة، وخبـز بالمـربى والزبـدة، وفنجـان قهـوة أرتشـفه عـلى مهـل غالبـا وحـده ونـادرا بصحبـة سـيجارة إذا اسـتجدت ظـروف معينـة، أو تهيـأ لي مـزاج مـا.

كانـت سـيارات الأجـرة مرصوفـة خلـف بعضها البعض كسلسـلة طويلـة، والسـكون التـام والمطبـق يعـم المـكان، كأن سـاكنة البـوني كلهـم أمـوات. ركبـت السـيارة المتوقفـة في المقدمـة، ومـن دون انتظـار دفعـت للسـائق ثمـن الأماكـن التي مازالـت شـاغرة، وأشرت لـه بالانطـلاق، شـغل محـرك السـيارة وانطلـق متهلـل الوجـه.

كانـت سـيارته اللوغـان تنهـب الطريـق الإسـفلتي نهبـا، وعنـد أسـفل الجـسر الكبـير الـذي شـيدته شركـة إسـبانية قبـل سـنوات

والقنطرة غير البعيدة عنه والقريبة من سكة القطار في مدخل المدينة، لمحت تدفق جموع اللاجئين الماليين أو النيجيريين، زرافات وآحاد، نساء ورجالا، شيوخا وأطفالا، كأنهم قاصدون الحج، يحملون مصاحف وطاسات بلاستيكية، يطوفون بها، فيما بعد، الأزقة والشوارع والطرقات وأمام الجوامع والمرافق، لا تسمع منهم إلا كلمة: «صدكة.. صدكة..».

ما هي إلا دقائق حتى وصلت إلى وسط المدينة. مررت بشارع ابن خلدون ثم انعطفت إلى شارع الأمير عبد القادر، اجتزت البارات القريبة من شارع الثورة، ثم عبرت بمحاذاة غرفة التجارة إلى أن وجدتني أمام مدخل بُوسْطَة السردوك المقابلة للثكنة العسكرية.

صعدت الدرجات مهرولا، ولما دخلت ومن دون أن أمهل نفسي لحظة لاستعادة أنفاسي، أدخلت يدي في جيب سترتي الداخلي، وأخرجت منه بطاقة التعريف الوطنية الخضراء المطوية بعناية وفي وسطها الشيك، ووضعتها على السطح الرخامي أمام الشباك. منذ أن حصلت عليها قبل سنوات قليلة غلفتها بغلاف شفاف، وبت أتباهى بها، كلما يطلب مني استظهارها. فقد عانيت حتى حصلت على الجنسية، أما ابناي إدريس وسعيد فقد استفادا من الجنسية قبلي بمقتضى التعديل الأخير لقانون الجنسية الجزائرية، وكان ذلك بموجب أنهما من أم جزائرية تتمتع بجنسية أصلية، مع احتفاظهما بالجنسية المغربية التي اكتسباها مني بموجب حق الدم. في

حين بقي توأماي زكية وعبد اللطيف من زوجتي بختة على جنسيتهما الأصلية الأولى المغربية التي اكتسباها مني، ولم تتح لهما الظروف ذلك، وحالت تصاريف الدهر وتدابير القدر من دون استفادتهما من ازدواج الجنسية.

كان قبلي في الطابور شخصان فقط، يبدو من مظهرهما أنهما قدما من أجل صرف منحة التقاعد. لذلك لم يستغرق حصولي على المال سوى دقائق معدودة، كانت كافية لأن أخرج من البوسطة دون أن التفت خلفي، صعدت الدرب المرتفع بخفة منقطعة النظير، كنت أحسني لحظتها ويدي تضغط على كومة الأوراق النقدية الخضراء المدسوسة في جيب بنطالي الجيرزي أحلق متخففا من كل الأثقال، صعدت كأنني كنت أقفز وسط أزقة المدينة العتيقة الضيقة بالقرب من الدرب المؤدي صعودا إلى جامع أبي مروان، ثم انحدرت مجددا إلى بطحة سيدي شريط، قاصدا مقهى المنار عند الزاوية الذي كنت أرتاده فيما مضى بانتظام، على الرغم من أن المكان فقد بهجته التي كانت، لكن شيء ما كان يدفعني كلما مررت بالمدينة العتيقة لابلاص دارم إلى الجلوس في أحد أركانه.

تناولت كأس الحليب الممزوج بالقهوة وهلالية على عجل، وغادرت المقهى، وذبت في دروب وشوارع المدينة التي امتلأت بحشود الناس الذين يقصدونها كل صباح يوم جديد من كل الجهات القريبة والبعيدة.

في الطريق إلى البيت، ولما كنت في مفترق الطرق، تناهى إلي

ما يشبه صوتا خفيضا ينادي باسمي من بعيد، لم أتعرف على صاحبه، التفت ذات اليمين وذات الشمال دون جدوى، لم يقع بصري على شيء ذي بال.

قررت لحظتها مواصلة المسير حتى انتفضت كالممسوس لما خرج لي شكري بجسده الضئيل مرة أخرى من بين البنايات كالشبح الأسود أو ككابوس يظهر في وضح النهار، كأنه كان يترقبني أو ينتظر قدومي.

اضطررت للتوقف، حاولت أن أهدئ من روعي، حدقت فيه بنظرة صلبة ومتجمدة ثم سلمته خمس ورقات خضراء من ورقة الألفي دينار، لم يأبه لنظرتي تلك، وفتح كلتا عينيه على آخرهما وهو غارق في التحديق إلى الأوراق النقدية بين يديه، كان ممسكا بها بكف يده اليسرى ويعدها بسبابة وإبهام يده اليمنى.

في تلك الليلة الطويلة لم يزر النوم جفوني، لم يكن مأتى ذلك إلى الأرق والكوابيس التي اعتادت أن تقض مضجعي، إنما الصراخ المنبعث من ساحة موقف السيارات مقابل البناية التي أقطن فيها.

حاولت إغلاق النافذة من دون جدوى، كان الصوت يخترق أذنيّ كطبل، الساعة تشير إلى الثالثة فجرا، وسيل السباب والبذاءات المتصاعدة من أسفل الحي كمعزوفة موسيقية صاخبة ورديئة تثير الأعصاب ما زالت متواصلة.

حاولت التناوم بإغماض جفوني، وسد أذنيّ بقطعتي قطن، باءت كل محاولتي بالفشل، ما زال السب والشتم ينفذ إلى غرفتي من دون توقف.

الحكاية وما فيها أن شكري شرب حتى الثمالة، ولما رجع إلى الحي بسيارته الأطوس القديمة، وجد شخصا ركن سيارة تويوتا ياريس سوداء في المكان الذي اعتاد ركن سيارته فيه. أيعقل أنني من دفع له ثمن السهرة والسكرة في هذه الليلة المشؤومة!

بعد عصر اليوم الموالي صادفت بشير ميزيغاش بالقرب من باب العمارة يرغي ويزبد، لما انتبه لوجودي بدأ يلعن ميلود قرباجة الذي أستعجل إعادة الزواج بعد وفاة زوجته، وأهمل تربية ورعاية أبنائه، وغيرها من الحكايات الأخرى التي كان ينسجها بشير من خياله زورا عن الرجل.

لم تمض إلا أيام قليلة، وبينما كنا ما زلنا نستفسر عن غياب ابني إدريس لدى معارفنا، ونبحث عنه في المستشفيات ومختلف الأماكن التي يكون ربما قد قصدها، فليس من عادته الابتعاد عن البيت ومغادرته من دون إشعار أمه على الأقل! حتى اقترب مني بشير ميزيغاش، ولما بدأ في الحديث عن شكري ابن ميلود قرباجة، اضطربت وارتبكت وكاد قلبي يتوقف من شدة الرهبة والخوف مما سيتلفظ به.

هل يعقل أن النذل أخبره بقصتي مع عريفة الخياطة؟!

مستحيل..

غير ممكن..

يا إلـهـــــــــي أي ورطة وجدتني فيها.

مـا هـي إلا هنيهـات حتـى استرسـل بشـير في الـكلام، بقـدر مـا شـعرت بالحيـاة تـدب مـن جديـد في جسـدي المتهالـك، بقـدر مـا انقبـض قلبـي مـن الخـبر الصـادم الـذي فجـره بشـير في وجهـي كالقنبلـة المتشـظية؛ وجـدت الشرطـة جثـة شـكري ابـن ميلـود قرباجـة مرميـة في الأحـراش القريبـة مـن ضفـة نهـر سـيبوس.

بعـد أن اختفـى عـن بيـت والـده طيلـة الثلاثـة أيـام الماضيـة، لم تسـاور ميلـود الشـكوك بشـأن اختفـاء ابنـه، فمـن عـادة شـكري بـين الحـين والآخـر أن يختفـي عـن الأنظـار ثـم يطفـو للسـطح مـرة أخـرى، وهكـذا دواليـك. إلى أن أوقـف رجـال الشرطـة سـيارة الأطـوس في الحاجـز المنصـوب بمدخـل مدينـة سـدراتة التـي تبعـد بأكـثر مـن مئـة وعشريـن كيلومـتر عـن مدينـة عنابـة، مـن عـادة رجـال الشرطـة إخضـاع بعـض السـيارات للتفتيـش الروتينـي، خصوصـا تلـك التـي تحمـل عـلى لافتاتهـا ترقيـمات ولايـات أخـرى.

لمـا اقـترب الشرطـي مـن السـائق بعـد أن حيـاه، طلـب منـه تقديـم وثائـق السـيارة، ارتـاب الشرطـي مـن اضطـراب السـائق وتلعثمـه غـير المـبرر، أمـره بالخـروج مـن السـيارة والترجـل إلى المكتـب المتنقـل، قبـل أن يفتـح الشرطـي الوثائـق التـي بـين يديـه، انتبـه لبقـع الـدم المنتـشرة عـلى الدواسـة والسـجاد.

لم يتطلب الأمر وقتا طويلا حتى انهار رفيق السَدْرَاتِي وأعترف بكل شيء، لكنه ألقى بكل التهم على عاتق شريكيه الأخوين مراد كَالَا ووهاب عَجَالَة، ادعى أن مهمته كانت نقل السيارة إلى مدينة بئر العاتر وبيعها هناك.

بينما كان مراد كَالَا مع أبناء الحي، اعتقلته شرطة محافظة البوني، ولما واجهوه باعترافات شريكه رفيق السَدْرَاتِي، لم ينكر كل التهم المنسوبة إليه، لكنه برأ أخاه الفار من قبضة العدالة وهاب عَجَالَة، وأدعى أن وهاب كان حاضرا في الواقعة على سبيل المصادفة فقط ولم تكن له أدنى علاقة بالجريمة المرتكبة، لا في التخطيط، ولا في الترصد، ولا في التنفيذ، لا من بعيد ولا من قريب، معترفا أنه هو من قام بمفرده بقتل شكري ودون مساعدة أي طرف آخر.

اعترف مراد كَالَا للمحققين بأنه كان الصديق المقرب من شكري ابن ميلود قرباجة، فقد تربيا معا، لكن بعد أن ضاقت به السبل في جمع مبلغ المال الذي سيمكنه من الانتقال إلى الضفة الأخرى؛ فقد سبق واتفق مع صاحب مركب في منطقة سيدي سالم على ثمن الهجرة غير الشرعية إلى سردينيا الإيطالية.

لم تتبق له إلا ثمانية أيام تفصله على موعد الرحلة، انعدمت كل السبل المتاحة أمامه في جمع المبلغ المطلوب. وفي ذلك الحين التقى برفيق السَدْرَاتِي، وقد أعلمه الأخير أنه سبق وأن اتفق مع صاحب كراج للسيارت المسروقة في مدينة تبسة، عن صفقة شراء سيارة أطوس وعن ثمنها وعن كل الترتيبات الأخرى

المتعلقة بالعملية، وقد قدم من سدراتة خصيصا له، لثقته المطلقة في قدراته ولإدراكه بأنه الوحيد القادر على مساعدته على سرقة سيارة بهكذا موصفات.

تهلل وجه مراد كَالَا، وانفتحت أمامه على حين غرة كل الأبواب التي كانت موصدة في وجهه من غير أن يحتسب، ولم يُبْدِ أدنى اعتراض على ما جاء في ثنايا كلام رفيق، بل أبدا موافقته وكامل استعداده للتعاون وإنهاء العملية في أقرب الآجال.

في ذلك اليوم جاب مراد كَالَا برفيق السَدْرَاتِي كل مواقف سيارات الكلونديستان في البوني والمناطق القريبة منها، لكن رفيق لم تعجبه كل السيارات التي رآها برفقة مراد، وأبدا تبرمه وانزعاجه وخيبة أمله.

وبينما هما جالسان يرتشفان القهوة ويدخنان الشيشة في مقهى في ساحة البوني المهيئة حديثا كنموذج منسوخ بطريقة مشوهة من ساحة الكور في وسط البوني، حتى ظهر أمامهما فجأة شكري قرباجة، اعتذر عن تلبية دعوة مراد للجلوس إليهما بمبعث أنه مشغول، لبث مجرد هنيهات ثم انصرف. في تلك اللحظة تفرسه رفيق بنظرة جانبية ثم تبعه بعد أن غادر، إذ ذاك شَيَّعَهُ بعينه إلى غاية أن ركب سيارته، وكان لحظتها أشبه بنيوتن لحظة سقوك التفاحة عليه أو بأرخميديس لحظة طفو غائطه في الماء، حتى صرخ في وجه مراد:

- وجدتها.. وجدتها.. لقيتها.. هي بالذات.. جات وحدها.. طيلة نصف يوم حفات رجلينا وراها، وها هي جات برجليها لنا.. جات وحدها.

في تلك الأمسية اتصل مراد كالا عارضا مبلغا مهما على شكري، مقابل أخذه على متن سيارته إلى قرية سيدي مبارك في منطقة الشط التابعة لولاية الطارف، بمبرر أنه سيأتي بأمه من عند أقاربه هناك.

لم يبد شكري أدنى معارضة خصوصا مع المبلغ المهم الذي فتح شهيته للقبول عن طيب خاطر.

في تلك الليلة ركب في سيارة شكري كل من الأخوين مراد كَالَا ووهاب عَجَالَة وبصحبتهما رفيق السَدْرَاتِي بحجة أنه ابن خالتهما وسيتركانه هناك في بيت عائلته بسيدي مبارك.

لم يثر الأمر حفيظة شكري ولم يساوره أدنى شك، وهو الحريص دوما والفطن، ومن عاداته الابتعاد والاعتذار عن قبول نقل أي شخص كان بمجرد أن يشعر بعدم الارتياح، أو بأدنى شيء قد يثير ريبته وتحفظه!

أما مع هذه الحالة فهو يثق في جيرانه ثقة مطلقة عمياء، وبالذات في صديقه مراد كَالَا فقد تربيا ونشآ معا في حي واحد بالبوني.

أُدين الثلاثة بارتكاب الجريمة الشنيعة، وما زال وهاب

عَجَالَة حرا طليقا، لم تقبض الشرطة عليه ولم يهتد أحد لمكانه، وبين الحين والآخر كان يتصل بشريحة هاتف مجهولة بعائلته يسأل عن كلبته ليزا، ويحرص على الطلب من إخوته الأقل سنا منه عدم إغفال إطعامها والاهتمام بصحتها ورعايتها. وجُلّ سكان الحي على معرفة بالمكانة الكبيرة التي تحظى بها الكلبة ليزا لدى وهاب عَجَالَة، وقد شاع بينهم أنه كان يسهر على الاهتمام بشؤونها ويبالغ في تدليلها، كأنها عضو من الأسرة. كان لا يبخل عليها بأي شيء، يطعمها قطع اللحم والدجاج وما لذّ وطاب، كما كان يرمي لها بالقطط وهي حية، ويستمتع برؤية منظر الكلبة ليزا وهي تمزقها بأنيابها ثم تقضمها وتلتهمها دفعة واحدة.

لم تمض إلا أيام قليلة على بداية التحقيقات، حتى غادرت أسرة قرباجة الشقة في جنح الظلام، هربا من عار ابنيها. ومذ تلك الليلة والشقة خاوية على عروشها، وبابها مغلق ونوافذها لم تفتح قطّ ولم تطأها قدم مطلقا، ولم يرغب أحد في ابتياعها من ملاكها، وانعدمت أخبار عائلة قرباجة الكثيرة النسل، واختفى أثرهم كالبخار.

لما سمعت بخبر وفاة شكري وتفاصيل اغتياله المفجعة على يد أقرب أصدقائه وجيرانه، تألمت له كثيرا، ونسيت كل ما بدا منه، وشعرت بأسى شديد في أعماق نفسي لخسارته وموته بتلك الطريقة البشعة، ثم تمنيت في قرارة نفسي لو بقي على قيد الحياة.

في ذات الوقت ودون سابق إنذار اجتاحتني موجة من الوساوس وساورتني شكوك مخيفة بشأن غياب ابني إدريس. كنت لحظتها مشتت البال، وذهني مشغول، إلى أن أطبقت عليّ الظنون وغدوت ضائعا، وتائها، ونهبا للمجهول. ولما تضاعف اضطرابي وتعاظم فزعي اعترتني رعشة غريبة وشبه إغماءة، حتى أحسست بدوار عنيف أخذني كأنني كدت أن أفقد الوعي من شدة ما كان يتهيأ لي بأن الأرض تدور بي أو من حولي. جاهدت نفسي إلى أن تماسكت كي لا أسقط من طولي، ثم آثرت أن لا أنتظر لحظة أخرى، وعزمت على أن لا أدخر جهدا إلى أن يظهر خبر عنه.

عصر ذلك اليوم قصدت محافظة شرطة البوني القريبة من الحي الذي أقطن فيه للإبلاغ عن اختفاء ابني إدريس.

II

هذه الحياة التي فقدت إيقاعها

« طعم الملح يسافر أيضاً على لساني».

رابح بلعمري (١٩٤٦-١٩٩٥).

-٧-

حـي الخزارـين الـذي كان يعـج بالنـاس، ولا تتوقـف الحركـة فيه، كان يبـدو مثـل القلـب النابـض بالحيـاة، فهـو يوجـد وسـط المدينـة العتيقـة. مـا أن نقـترب مـن المعـالم المحيـط بـه إلا وتلفحنـا روائـح متميـزة ، لا نلبـث وأن نتوقـف عـن الحركـة والالتفـات، كنـا نُحلِّـق عـلى جناحـي الطفولـة والخيـال، كانـت مشـاهد سـاحرة؛ منظـر دار الدباغـة، والسـوق الفوقـي، والغرسـة الكبـيرة، والصباغـون، والنجـارون، والعطـارون.

الأزقـة المؤديـة إلى حـي الخزارـين كنـا نجتازهـا عـلى صهـوة المتعـة والمـرح الطفـولي، كانـت مكتظـة بالباعـة، سـواء مـن ناحيـة الغرسـة الكبـيرة أو مـن جهـة السـوق الفوقـي. كانـت تبـدو لنـا مثـل متاهـة تحيـط بهـا أبـواب عـدة. وكانـت تغرينـا تلـك المتاهـة بأبوابهـا المتفرقـة، فمـن بـاب العقلـة، أو بـاب الجيـاف، أو بـاب النـوادر، أو بـاب الرمـوز، أو بـاب الصعيـدة، كنـا نلـج المواقـع القريبـة مـن حـي الخزارـين في المدينـة العتيقـة.

كانـت أيامنـا كلهـا جميلـة وملونـة بالدهشـة والفـرح. كنـا نتقافـز ونجـري ونتسـكع في تلـك الفضـاءات الحـرة، غـير آبهـين بمـا

تخبئـه لنـا الأيـام القادمـة.

لم نكـن نفكـر بالمسـتقبل، جـل مـا كان يعنينـا آنـذاك هـو أن نعيـش اللحظـة بكامـل تفاصيلهـا. كانـت رؤيتنـا للعـالم الخارجـي تبـدأ مـن نظـرة أعيننـا المغتبطـة للمنتوجـات الحرفيـة اليدويـة، وهـي مُعلَّقـة أو معروضـة في الدكاكـين والمحـالات الصغـيرة المنتشرة هنـا وهنـاك، تلـك العـين المشعشـعة لرؤيـة الأحذيـة والبلاغـي والحقائـب الجلديـة، والملابـس التقليديـة، كالقفاطـن والجلابيـات المطـرزة.

لا أزال أذكـر تلـك الأزقـة والـدروب والأبـواب السـبعة، كـما أذكـر البحـر الـذي يحيـط بالمدينـة، بمزيـج مـن البهجـة والحنـين لتلـك الأمكنـة التـي نشـأت فيهـا، والتـي صورهـا وملامحهـا بقيـت طاغيـة بشـكل صـارخ في ذاكـرتي عـن مدينـة تطـوان، المدينـة التـي مـا زالـت آنـذاك تحـت الوصايـة الإسـبانية.

الأحيـاء الشـعبية في تطـوان كانـت مرتعـا للسـكارى والحشاشـين، وكنـت كلـما مـررت بطريـق ثانـوي لم آلـف المسـير بهـا، كان يتملكنـي الفـزع ويسـتبد بي الخـوف، ولكننـي أواصـل المـشي مكرهـا، كاتمـا مخـاوفي متظاهـرا بـأن لا شيء غـير عـادي.

لا يمـر يـوم دون أن تـرى مشـاهد العـراك وتصفيـة الحسـابات، فكثـيرا مـا سـمعت عـن قصـص الانتقامـات والتعـدي والسرقـة، خصوصـا تلـك التـي كان يرويهـا لنـا صديقـي الأمـين حمـودان الإدريـسي عـلى أنـه رآهـا بـأمّ عينيـه.

أذكـر أننـي في مراهقتـي عملـت عتـالا في السـوق، وغالبـا مـا كنـت لا أبـرح طويـلا في مـكان واحـد للعمـل. فقـد كنـت كثـير التنقـل والترحـال مـن مـكان لآخـر؛ فحالمـا أحـس بتهديـد قريـب أو أستشـعر أذى بعيـدا، أو يعتـدي عـلي مـن يكبروننـي سـنا، وهـي حـوادث متكـررة كانـت تقـع لي باسـتمرار، كنـت أهجـر المـكان ولا ألـوي خلفـي.

دائمـا مـا كنـت في حالـة ترقـب وبحـث متواصـل لتسـخير خدمـاتي لـلأسر الإسـبانية، عـلى الأقـل مـا أجنيـه وأحصلـه مـن تلبيـة حاجاتهـم ومتطلباتهـم عـلى ضآلتـه، كان سـيقيني مـن مغبـة الـشرور والنوائـب المحتملـة التـي قـد ألقاهـا في عمـل آخـر.

مـع مـرور الوقـت، رويـدا رويـدا، بـدأت أدرك ثقـل الحيـاة، والمأسـاة التـي وجدتنـي فيهـا. مـن الفاقـة وشـدة الفقـر، وقـذارة البيئـة التـي كنـت أقطـن فيهـا، بـدأت أسـلي نفـسي بتدخـين السـجائر، كـما تعلمـت تدخـين الكيـف سرا كي لا يكشـفني أحـد. بهـذه الطريقـة كنـت أعتقـد أننـي أنتقـم مـن واقعـي البائـس. ومـن الكيـف انتقلـت إلى شرب الخمـرة.

أتذكـر أول مـرة حاولـت فيهـا أن أسـكر، لم أتوقـف عـن تجشـؤ مـرارة المـشروب، ثـم تقيـأت عـلى ملابـسي، وثملـت إلى درجـة أننـي لم أسـتطع الوقـوف، فبقيـت مرميـا عـلى قارعـة الطريـق طيلـة سـاعات، إلى أن عـثر عـلي بعـض جيراننـا فجـرا عـلى سـبيل الصدفـة، حملـوني إلى أقـرب مقهـى مفتـوح، ثـم أشربـوني قدحـي قهـوة مُـرَّة، ولمـا اسـتفقت، أفرغـوا عـلى رأسي دلـو مـاء بـارد، ثـم أسـندوني إلى

غايـة البيـت، طرقـوا البـاب بعـض الطرقـات، وتركـوني أمامـه عـلى تلـك الحالـة.

لمـا كنـت أتمـل في المقهـى كانـت تتعـالى صيحـات وتصفيقـات رواده، كانـت نشـوتي تتضاعـف عندمـا يصـل إلى مسـامعي تشـجيع جـل الحضـور وصخبهـم المتعـالي، خصوصـا مـن ضرب الطـاولات بأيديهـم وتحريـك الكـراسي. فقـد كانـت تسـتهويهم حـركاتي وحكايـاتي عندمـا تلعـب الخمـرة بـرأسي. وكنـت أمتثـل لطلباتهـم وأذعـن لرغباتهـم تحـت إلحاحهـم المفـرط، فـما عـلي إلى أن أسـتجيب لهـم.

كلـما كنـت أغـرق في الـشرب وأفـرط في الـكلام الأقـرب كثـيرا مـن الهذيـان والأبعـد قليـلا عـن الهـذر، كنـت أحسـني أسـتحيل إلى إنسـان آخـر، لا يشـبهني، إنسـان مختلـف تمامـا عـن الصـورة النمطيـة التـي يـراني بهـا مـن هم حـولي، والتـي طبعتها نشـأتي وكل الظـروف المحيطـة بهـا في ذاكـرتي، أجـدني أكـثر وضوحـا وشـفافية وصدقـا مـع ذاتي، أقـرب إلى الفطـرة التـي فُطـر النـاس عليهـا.

في الحقيقـة لمـا أسـتفيض في الحديـث وأمعـن في سرد تفاصيـل وجزئيـات حميمـة عـن جـل مـا يمـور في داخـلي دون لـف أو دوران أو توريـة، كنـت أتخفـف بشـكل غـير متوقـع، ثـم أدخـل بعدهـا في نوبـة ضحـك تـكاد لا تنتهـي، أو تعتريـني حالـة مـن البـكاء بحرقـة لا نظـير لهـا.

حالمـا أتوقـف عـن الضحـك أو حينـما أمسـح دموعـي مـن

البـكاء أشـعر كـم هـذه الحيـاة سـخيفة وأحـطُّ أو أضْـألُ مـن جنـاح بعوضـة. هـذه الحيـاة التـي أثقلـت كاهـلي طيلـة وقـت صحـوي.

كان هنـاك شـخص واحـد فقـط يعـترض عـلى سـلوكي. مـع مـرور الوقـت أدركـت أن مصلحتـي تهمـه، خصوصـا عندمـا أنقـذني مـن بـين فـكي أربعـة رجـال شـداد، أسـقطوني أرضـا، ثـم نزعـوا حزامـي الجلـدي، وبعدهـا بـدأوا في فتـح أزرار سروالي. لم أصـدق أننـي سـأنجو وأن القـدر سيسـخر لي منقـذا، كان جمعـا في مفـرد، كان أقـوى منهـم.

لم أقـو عـلى النهـوض مـن شـدة الصدمـة، مـد لي يـده وجذبنـي إلى الأعـلى، وقفـت عـلى رجـلي بصعوبـة بالغـة.

مـن هنـا تعرفـت عـلى مخلـوف الصبايحـي، ونشـأت بيننـا صداقـة متينـة عـلى الرغـم مـن فـارق السـن الكبـير بيننـا. بـات مـا قـام بـه كديـن عـلى رقبتـي، لـن أنسـاه مـا حييـت.

-٨-

لا زلت أتذكر كيف كنت أختلق الذرائع وأضع الأعذار تباعا كي لا أذهب إلى المدرسة، معظم تلك الحيل الملفقة التي ابتدعتها من خيالي الخالص أو التي هي من بنات أفكار صديقيّ الأمين حمودان الإدريسي ومحمد لمبريطو لم تصمد طويلا، وسرعان ما تتساقط أمام زجر أمي وتأنيبها الواحدة تلو الأخرى كأوراق الخريف الميتة.

قد تكون أمي متسامحة معي في أي شيء آخر عدا الدراسة، فقد كانت صارمة ولا تقبل أي عذر، لما كبرت أدركت مبعث حرصها وحجة مبالغتها على تعليمي؛ فأنا الابن الذي خرجت به من الدنيا عقب وفاة خمسة إخوة قبلي في بطنها أو لحظة ميلادهم أو في المهد. فقد مرت عدة سنوات على زواجها بأبي ولم يرزقهما الله خلالها بأبناء.

لم يتركا طبيبا أو عرافا أو مداويا بالأعشاب إلا وقصداه، كما حكت لي جدتي عن المرات التي اصطحبت فيها أمي إلى زيارة

الأولياء الصالحين والمقامات والزوايا، لكن كل تلك الجهود لم تأت أكلها، إلى غاية أن رأت جدتي الزهرة بندريس في المنام أمي تلد صبيا اسمه عبد القادر، وفي الفجر قَصَّت رؤيتها على أبي، وما هي إلا أسابيع معدودة حتى حملت بي أمي في بطنها، وكنت أنا عبد القادر كما شاءت الأقدار الإلهية.

أمي التي تزوجت أبي وهي طفلة صغيرة في الثالثة عشرة، لا تعي أي شيء. ما زالت حينذاك تلعب مع أترابها. ولما انتقلت للعيش مع أبي في غرفة صغيرة، وجدت في جدتي الزُّهرة حضن أمها المتوفاة، التي ما زالت نار فقدانها مشتعلة في فؤادها. أخذت جدتي بيدها، وأعانتها على تعلم الأعمال المنزلية والواجبات الزوجية، كما تعتني الأم بابنتها.

لا يعني بالنسبة لي كشف مخططاتي الطفولية الاستسلام الكلي، فقد تعودت أن لا أرفع الراية البيضاء مهما كانت المثبطات التي أجدها في طريقي.

لما أفشل في مسعاي كنت أتظاهر بالخضوع والامتثال لقرارات أمي، ولأن موقع المدرسة كان في مكان يبعد عن الحي الذي أقيم فيه بخمس وثلاثين دقيقة، الأمر الذي أتاح لي فرصة التحرر من عيون جل الجيران، ومن معارف وأصدقاء أبي على وجه الخصوص، وفتح لي هامشا رحبا للمغامرة والاكتشاف.

ما إن أخرج من البيت وأدخل إلى الأزقة المتتابعة التي تفضي بدورها إلى السوق، حتى أجد الباعة المتجولين وأصحاب

العربات على أهبة الاستعداد لبدء يومهم الجديد. لا زال صوت باعة الخضر والفواكه وهم ينادون المشترين ويرطنون بالإسبانية كل صباح يطن في أذناي، كأنني أسمعه اليوم. ففضلا عن اللهجة المغربية التي تشربتها في مناخ العائلة ومحيط الجيران، كنت قد تعلمت التحدث باللغة الإسبانية في مرحلة مبكرة جدا، قبل حتى دخولي إلى المدرسة وتعلمي العربية الفصيحة.

أما عقب تعرفي على عائلة السيد مانويل بيرتوشي، فقد تحسن مستواي في اللغة بدرجة لافتة جدا، استغرب لها صديقاي المقرّبان.

طبعاً الفضل الكبير يرجع للسيدة ناتاليا بيرتوشي، فقد كانت، والحق يقال، امرأة كريمة على درجة عالية من الجمال الآسر الممزوج برقة عذبة. لما كنت أسلمها الأغراض التي طلبها مني السيد بيرتوشي، كانت تدعوني للدخول إلى البيت بابتسامتها المطبوعة على شفتها، تلك الابتسامة التي لم تفارقها قط مذ عرفتها.

تأمرني أن أجلس على كرسي من بين مجموع الكراسي الملتفة حول طاولة من خشب الأكاجو المنتصبة في ردهة البيت والقريبة من الدرج. لما جلست على الكرسي الضخم أول مرة، اندهشت من هذا البيت الفسيح ومن دقة تنسيقه ومقتنياته الثمينة الموزعة هنا وهناك. مباشرة عندما رفعت رأسي انتبهت للبيانو الهائل عند الزاوية تعلوه لوحتان عظيمتان معلقتان على الجدار.

كانـت تتكلـم بلطفهـا المعهـود وتتحـرك مـن حـين لآخـر، وكنـت أرقبهـا بطـرف بـصري في كل خطـوة تخطوهـا بخفـة أو في هيئتهـا واعتبارهـا، كانـت تظهـر لي كالفراشـة في رشـاقتها وبهـاء ألوانهـا، فقـد كنـت إزاء امـرأة مـن طينـة أخـرى. كانـت تحـب العـزف عـلى البيانـو، وكنـت أطـرب بسـماع نوتـات المقاطـع الموسـيقية التـي ترسـمها أصابعهـا البيضـاء الطويلـة عـلى لوحـة المفاتيـح كأمـيرة قفـزت فجـأة مـن بـين أسـطر قصـص وحكايـات الأطفـال، ولما كانـت تغمـض عينيهـا تعبـيرا عـن ولوجهـا إلى ذروة الانتشـاء، كانـت تسـتحيل إلى مـلاك جميـل، خصوصـا مـع هالـة النـور التـي تعـتري وجههـا لحظتهـا. مبـاشرة لمـا تفـرغ أصفـق لهـا بشـدة، واعـبر لهـا عـن امتنـاني ومـدى سـعادتي بسـماع هـذا اللحـن المتناغـم والنغـمات الممزوجـة بروحهـا النقيـة، فكلـما كانـت تتعالى نوتاتهـا الموسـيقية التـي تكـسر صمـت هـذا الكـون الصلـد، رُحـت أتأمـل يديهـا الممدودتـين فـوق البيانـو وظِـلّ وجههـا المنعكـس وأنـا غـارق في سـفر باطنـي عميـق، حتـى وجدتنـي أمسـح دمعـة تسـللت فجـأة مـن عينـي.

سـبق وأن أخبرتهـا أن العـزف عـلى البيانـو يشـبه كثـيرا العـزف عـلى آلـة القانـون، إلا أنهـا أبـدت موافقتهـا بحركـة مـن رأسـها، وراحـت تحدثنـي بإسـهاب عـن تاريـخ الموسـيقى الغربيـة وامتزاجهـا بالموسـيقى العربيـة في بعـض فـترات التاريخ،كـما أفاضـت في الحديـث عـن ريـادة الموسـيقى الأندلسـية في إسـبانيا. وأنـا أصيـخ السـمع، ومـن شـدة انبهـاري بثقافتهـا الواسـعة وسـعة اطلاعهـا كنـت خاضعـا لسـحر كلماتهـا وثـراء معرفتهـا، فقـد كنـت

جامـدا في مـكاني لا أحـرك سـاكنا كأن عـلى رأسي الطـير.

كان بيننـا اتفـاق، في الحقيقـة هـي صاحبـة الاقـتراح والمبـادرة؛ أن أعلمهـا التكلـم بالعربيـة المحكيـة وتعلمنـي قواعـد كتابـة اللغـة الإسـبانية. مـا كان عـلي سـوى أن أسـتجيب لطلبهـا، فامـرأة بمثـل طيبتهـا لا يرفـض لهـا طلـب.

آخـر مـرة رأيـت فيهـا السـيدة بيرتـوشي، كانـت واقفـة عـلى شرفـة بيتهـا ووجههـا مصـوب تجـاه المدينـة، تأملتهـا طويـلا وهـي دامعـة العينـين، حتـى أنهـا لم تنتبـه لوجـودي في البدايـة قبـل أن تسـحبني إليهـا بحنـو جـمّ، احتضنتنـي بشـدة ثـم قبلتنـي.

أحسسـت مـن تنهداتهـا وشـهقاتها المنتفضـة أن الحـزن يعتـصر قلبهـا، وأنهـا أشـبه بالطـير الذبيـح لحظـة انتفاضـة جسـمه الصغير. حاولـت التفكـير في مبعـث هـذا الألم المسـتتر والعـارم الـذي فـاض مـن أعماقهـا، عبثـا لم أعـثر عـلى العلـة الموجبـة لـه.

كان صـوت منبـه السـيارة الـذي تعـالى مـن الأسـفل مدعـاة لمغـادرتي. لمـا كنـت عـلى أهبـة الوصـول إلى بـاب الخـروج، انتبهـت لثـلاث حقائـب سـفر سـوداء اللـون توسـطت الردهـة، وعقـب تجـاوزي البوابـة صادفـت السـائق يقـف في اسـتعداد تـام أمـام سـيارته السـوداء ذات الطـراز المنتـشر آنـذاك حـصرا بـين العائـلات التـي لهـا نفـوذ مـالي واجتماعـي، بـدا لي انـه لم يتجـاوز الخمسـين مـن عمـره بعـد، يرتـدي بذلـة داكنـة اللـون، مـع قميـص أبيـض، ملامحـه صارمـة، ووجـه مسـمر في اتجـاه واحـد، فقـط عينـان

تمسحان المكان جيئة وذهابا.

في الأيام والأشهر القليلة الموالية ترددت على منزل السيد بيرتوشي أكثر من مرة، علني أعثر عليهما. لكن خاب مسعاي ذاك، فقد أقامت بالبيت بعد أشهر عائلة إسبانية جديدة، ومذ ذلك اليوم أضحيت من حين لآخر أقف لحظات بالقرب من البيت المقابل لبيت السيد بيرتوشي، كنت أتأمل وأنتظر أن أرى السيدة بيرتوشي تلوّح لي بيدها من الشرفة أو تفتح لي الباب وهي باسمة كسابق عهدها.

وقد علمت لاحقا من الفتى الإسباني ماريانو باكارو الذي أقامت عائلته في بيت السيد بيرتوشي، والذي نشأت بيني وبينه صداقة قوية فيما بعد، من كثرة ترددي على الحي. أن السيدة ناتاليا بيرتوشي انتحرت في مدينة توليدو بعد سنوات من مغادرتها تطوان، وقد أخبرني أن الباعث الذي أفضى إلى قرار الانتحار حدث عندما اكتشفت خيانة زوجها لها مع خالتها الصغرى ليا.

فبعد حب عاصف بينهما وحياة سعيدة دامت لسنوات إقامتهما بين اسبانيا والمغرب، عرفت تلك المرأة الهادئة والجميلة اضطرابات نفسية عصية على العلاج دفعتها للاكتئاب واختيار الانتحار. على الرغم من أنها خضعت لعلاجات نفسية مكثفة في مشافي متعددة بعد نجاتها مرات عديدة من محاولاتها الأولى للانتحار، إلا أنها لم تنفك على معاودة المحاولة. إلى أن ماتت منتحرة ذات صيف بالغاز المتسرب من

فـرن مطبخهـا، مخلّفـة توأمـين، طفـلا وطفلـة يشـبهانها إلى حـد التطابـق، نامـت نومتهـا الأبديـة تاركـة طفليهـا نائمـين في الغرفـة الملاصقـة للمطبـخ.

كان الذهـاب إلى المدرسـة كل يـوم صباحـا مدعـاة لنفـوري وتبرمـي، لذلـك تجـدني معظـم الأوقـات لا أبـرح هنـاك إلا وقتًـا ضئيـلاً ثـم أنفـذ خـارج أسـوار المدرسـة حـرًّا طليقـا. أقـضي جـل وقتـي في التسـكع، لا زلـت أتذكـر جيـدا وقـع خطـواتي عـلى السـباطات والممـرات المسـقوفة وأنـا اعـبر مـن حـي لآخـر، لا زال منظـر الأقـواس أيضـا جاثمـا في مخيلتـي. أتذكـر صريـر الأبـواب والبيـوت التـي أمـر بمحاذاتهـا.

بعـد قطعـي عـشرات الأمتـار، أحسسـت بالمحفظـة الثقيلـة التـي كنـت أحملهـا بيـدي، أتوقـف عـن المـشي بعـض الوقـت كي أريـح كـفّ يـدي المحمـر والمتـورم، وأسـتعيد أنفـاسي؛ ألقـي بنظـري عـلى البيـوت التـي كانـت تمتـد أمامـي، انتبهـت إلى أبوابهـا العاليـة والعريضـة، مـا لفـت انتباهـي أكـثر هـو طريقـة تصفيـف مسـامير بوقبـة نصـف الكرويـة ذات القطـر المتوسـط عـلى واجهـة تلـك الأبـواب، عـلى شـكل خطـوط رأسـية وأفقيـة، الأمـر الـذي ضاعـف مـن دهشـتي تلـك الدقاقـة الحديديـة المقبّبـة، والتـي لهـا أشـكال هندسـية رائعـة تنتهـي أطرافهـا المثلثـة عـلى صـورة شـعاع.

عـاودت المـشي بخطـى منتظمـة، أتفـرس في ملامـح وقسـمات الغاديـن والرائحـين في أزقـة تطـوان العتيقـة، كـما أسـترجع رهبـة أسـوارها العاليـة، والعلامـات والحكايـات والقصـص الخياليـة

والخرافية التي كانت تقصها عليّ جدتي الزهرة بندريس؛ عن فضل سيدي الغرناطي علي المنظري الذي أعاد بناء تطوان بعد أن خربها البرتغاليون المحتلون لمدينة سبتة وبقيت خالية حوالي نصف قرن، وهو القادم من غرناطة، وعن خروج آلاف المسلمين واليهود من الأندلس ليستقروا في تطوان.

كلما كنت أقف أمام جدرانها، وقصبتها، وأبراجها، وقصورها، وأضرحتها، وفنادقها القديمة، وصوامعها، ونفوراتها، وحدائقها؛ أتذكر جدتي الزهرة بمنديل أتازير المخطط باللونين الأحمر والأبيض، وهي تعتمر الشاشية، والفوطة البيضاء دوما موضوعة بعناية على كتفيها، ويظهر حزام الكرزية الذي ربطت به المنديل الملون جليا.

بالقرب من دار بن مرزوق ذات الطراز الأندلسي والشامي، تمنيت في قرارة نفسي أن أحظى ببيت جميل ومكتمل الأركان، يماثله. لكن أنّى لي ذلك حينها، ويدي قصيرة وناصري قليل. وبعد عشرات الأمتار انعطف صوب اليمين كي أجد نفسي في الحي الذي تقع فيه دار بريشة، كنت لحظتها أتمهل الخطو واختال في مشيتي، وعيناي مثبتتان على جدرانها ونوافذها وبوابتها الفريدة من نوعها. تغريني فكرة الوقوف بمحاذاتها والمكوث بعض الوقت بقصد التأمل والانتظار، علَّ ليلى حمودان الإدريسي تعبر هذا الحي.

لم انتبه لمرور الوقت، الساعة الآن تشير إلى الثالثة والربع. وكنت أتقدم وعيناي تحدقان في المباني والأبواب التي أمر بالقرب منها، ألاحظ في بعض الأحيان رمزًا حديديًّا على شكل رمانة مثبّتا على أعلى الأبواب، كما هناك من استعمل شكلا يشبه حدوة الفرس، أو رمزا شبيها بالخمسة أو يد فاطمة كما تسميها جدتي الزهرة، التي سبق وأخبرتني أن هذا الرمز يرجع للعائلات الجزائرية التي هاجرت إلى تطوان.

لم يسلبني أي شيء آخر بقدر ما سلبتني تطوان العتيقة بتقسيماتها وأزقتها ومنعرجاتها، وبياض مبانيها وأسوارها وقصبتها ومعمارها الأندلسي العريق. كنت أراها كحمامة بيضاء خلقت من عاج.

-٩-

كان عـلي أن أتـرك المدرسـة مـن أجـل كسـب المـال، لم يكـن أمامـي المزيـد مـن الخيـارات الأخـرى، كنـت مضطـرا، ولم يكـن بمقـدور عائلتـي تحمـل عـبء وتكاليـف الدراسـة، خصوصـا أمـام تَغـوُّلْ عمـي مصطفـى وضعـف حيلـة أبي. لم أكـن لأرضى بحيـاة الفاقـة والـذل، وأنـا أراهـا تحوطنـا مـن كل جانـب، ونحـن قـاب قوسـين أو أدنى مـن الغـرق.

في حقيقـة الأمـر لم يكـن اضطـراري بمثابـة إكـراه يثقـل كاهـلي، فقـد استحسـنت في قـرارة نفـسي فكـرة مغـادرة مقاعـد الدراسـة، والتحـرر مـن الواجبـات والتماريـن المزعجـة التـي كانـت تقـض مضجعـي، والتخلـص نهائيـا مـن توبيخـات المعلمـين المتكـررة وبالخصـوص مـن عقوبـات مديـر المدرسـة الأصلـع والأرعـن؛ فالتعـثر في بركـة وحـل أهـون مـن تحمـل بصاقـه العفـن المتناثـر مـن فمـه أثنـاء الـكلام والـصراخ في وجوهنـا، فقـد كان فمـه أشـبه ببالوعـة ميـاه الـصرف الصحـي القـذرة.

لاحقا ومع مرور الزمن ترسخت في الذاكرة أشياء لا يمكن نسيانها؛ ذكريات أيام المدرسة الجميلة والمؤلمة، حفرت في داخلي أخاديد عميقة وغير مرئية كانت تتدفق منها البهجة والنور إلى روحي كلما أحست بالسأم من تكاليف الحياة وأعبائها ومن جهامة صروف الدهر وعتمة الشقاء.

أحيانا كنت أتوقف عن العمل، ولا أجد ما يسد رمقي. مدعاة القرار ليست رغبة مني؛ فبعد أن ينتهي بي الأمر مطرودا إما بحجة عراك أو مشادات عنيفة وقعت بيني وبين من يعملون معي، غالبا ما كنت أنا الضحية في المسألة. أو بِعلَّة رفضي الخضوع لوقاحة وفحش رب عملي، فهناك علل وأمراض في نفوس وميول الناس ما أتى الله بها من سلطان.

فبعد كل ذلك أجدني أعزل أصارع كل المتضادات وسط الرياح والعواصف التي تهب وتعصف من كل الجهات، وليست لدي أدنى فكرة عن مصيري أو ما سيحل بي، خصوصا وأنني غالبا ما أكون بعيدا عن عائلتي خارج تطوان، فقد يحدث وأن أجوب أماكن ومدنا متفرقة بحثا عن مصدر الرزق.

قد تكون في جيبي دراهم معدودات، أو قد أكون خالي الوفاض أو أنَّ النزر القليل الذي تبقى معي من المال لا يوفر لي المأوى ولا يسكت جوع بطني.

خبرت حياة الضياع، والنوم في الخلاء وفي الشطآن وتحت الأشجار وأسفل القناطر وفوق الصخور وبين الوديان، فكنت

أغفو وأنهض على وقع زمهرير البرد ورطوبة الصقيع في الثلث الأخير من الليل اللذين يوقضان مضجعي لما يتسللان من تحت أو من فوق البطانية أو اللحاف أو الأسمال البالية التي أتدثرها إلى جسدي الهزيل ومنه يخترقان عظامي الهشة.

أكلت من بقايا فضلات الأسواق، ومن القمامة التي يرميها الناس في الزبالة، وتعاركت مع المتشردين واللئام من أجل اللقمة، كما تقاسمت الطعام العفن مع المتسولين.

همت في أرض الله الواسعة، حتى ضاقت بي المساجد والمرافئ، فكنت أطرد من المساجد التي احتمي بها من قَرِّ الشتاء وحر الصيف، وأتعرض للقلع من المرافئ التي كنت اقصدها بحثا عن مصدر رزق وعمل شريف.

من شظف العيش أصبحت أكثر بأس وخشونة، ونما جسدي وأضحى شديدا وصلبا، وبتُّ أكثر جلدا وتحملا. كما أن ضيق الأفق وغموض الرؤية تجاه المستقبل الذي بات بالنسبة لي من سابع المستحيلات، وثقل وطأة المحن التي نحرتني كالسهام الحادة وجعلتني أنزف من كل الجهات، جعلاني أسرف أكثر في اللهو وأفرط في إشباع شهواتي وأغرق في حياة جلها رذائل وخطايا، ضاربا كل شيء عرض الحائط، لا شيء يستحق، فالدنيا بنت كلب لا تأبه لك عندما تسعى وراءها، ولا تلتفت إليك لما تحفى قدماك من الجري خلفها، ولما تدير لها ظهرك وتصرف نظرك عنها تأتيك صاغرة ذليلة راكعة تحت قدميك!

ودومـا مـا كنـت أتجـادل مـع الأمـين حمـودان الإدريـسي بخصـوص هـذا الشـأن، ولا زلـت أتذكـر بكثـير مـن الحـسرة مـا كان يـدور بيننـا مـن نقـاش والـذي يتحـول إلى صراخ في غالـب الأحيـان، ثـم يتطـور في بعـض الأوقـات إلى خصـام قـد لا يطـول أمـده بيننـا، لأننـا سريعـا مـا كنـا نحـس بالفجـوة التـي يخلفهـا هـذا الجفـاء، وكلانـا لا يطيـق الابتعـاد عـن الآخـر ولا يـرضى بالتنـائي، لأن مـا بيننـا مـن صداقـة لا يمكـن وأن تـذروه خلافـات عابـرة وخصومـات تافهـة. أتذكـر المشـهد بصـوره ومـا دار فيـه مـن حـوارات كأنمـا الأمـر قـد حـدث مـن يـوم أو يومـين:

كان الأمـين يخفـض بـصره إلى الأرض وهـو يحـاول أن يظهـر ثقته بنفسـه وفي الكلـمات التـي كان يتفـوه بهـا، عـلى الرغـم مـن أنـه يعـرف مـدى عنـادي وعـلى درايـة بمـراسي الصعـب:

- الدنيـا مزيانـة يـا عبـد القـادر بـركاك مـا تغـرق في النظـرة الخايبـة.

بيـد أني كنـت أرمـي ببـصري إلى أبعـد نقطـة تـتراءى لي في الأفـق، أو كـما يُخَيَّـل لي. غـير مبـال بمـن يتلصصـون عـلى جلسـتنا، محاولـين اسـتراق السـمع بفظاظـة مبالـغ فيهـا بشـكل زائـد. ثـم أرد بصـوت خفيـض ممـزوج بالثقـة المفرطـة ومـليء بمنسـوب فائـض مـن الإحبـاط مـن حـال البلـد والعبـاد عـلى حـد سـواء:

- قليـل ألي غـادي يفهـم الأمـل ديـالي! في هـذا البـلاد مـا نقـدر نعمـل حتـى شي حاجـة.

تلا ذلك لحظة صمت بيننا، صمت ثقيل ومزعج. ثم سدد إلي نظرة غاضبة، وقال بكل حزم وصرامة:

- لازمك تكافح بشي حال كل الناس لي عايشين على هذي الأرض.

في الحقيقة لم أستطع أن أخفي غيظي ويأسي من كل شيء، على الرغم من أني حاولت أن أتحاشى الرد. نظرت إليه بحزم ثم حاولت مرة أخرى أن أرد بلطف كي لا أغضبه، ولكن كنت أرغب في ذات الوقت في أن أخرج جل ما كان يختلج في صدري لحظتها دفعة واحدة:

- ما نكذبش عليك يا الأمين، ما كانش الخدمة؟ ما قدرتش نعيش في تطوان وفي المملكة بكمالها.

بيد أنه انبرى يبرر الواقع بحجج واهية وغير منطقية، فراح يتحدث بشكل مثالي لا يلامس الواقع المعيش كأنه قادم من عالم آخر:

- يخصنا نفكرو في راسنا على شي حاجة تدخل الفلوس، ونعملوها.

هذه المرة انبريت مجددا في وصف الحال كما هو عليه دون تزييف أو تجميل، علّه يقتنع ويثوب لرشده:

- خاصك مبلغ كبير! مشاكل بزاف. نخمم بزاف. دابة منين رجعت عييت نشوف في شي حل آخر.

لما كنت أتكلم انتبهت أنه كان يقوم بشبك أصابع يديه، ثم ثناهما إلى الخلف تلقائيا وصدرت من تلك الحركة صوت طقطقة الأصابع. لا أدري إن كان يصغي إليّ أم لا؟ إلى أن قاطعني:

- ما فيها حتى شي مشاكل، بركاك يا عبد القادر ما تركز على النظرة الخايبة.

لم أتمالك نفسي؛ أردفت قائلا دون انتظاره حتى يكمل كلامه:

- ما قدرتش يا الأمين، ما قدرتش. ما نكذبش عليك.

خلد للصمت، وغادرني غاضبا كعادته دوما.

أما أنا فقد قصدت أقرب بار، جلست على كرسي في الطاولة التي في الشرفة، دخنت سيجارة غير محشوة وطلبت قنينة بيرة باردة. من بعيد انتبهت للنادل يحمل صينية نحاسية بأناة، كأنه خائف أن تنفرط سبحة القنينات المتراصة والمتلاصقة ببعضها البعض.

عببت القنينة المثلجة دفعة واحدة، لم ترق لي، لذلك أشرت على النادل أن يجلب لي كأس وسكي. كان هناك عند الدرابزين الحديدي رجل ستيني يترنّح وبالكاد يقف بثبات، يظهر أنه سكر حتى الثمالة. لم يتوقف عن الهذر والهذيان، طاف بكل الطاولات كالمعتوه.

أكملت كأسي، دفعت الحساب وانصرفت.

اجتـزت مجموعـة غـير منتهيـة مـن الأزقـة الضيقـة، كأنهـا تتناسـل وتتوالـد مـن بعضهـا البعـض بشـكل خـرافي، كـما عـبرت الأحيـاء السـفلية المظلمـة دون رهبـة عـلى خـلاف العادة. تسـكعت حتـى بلغـت طريقـاً ترابيـة أفضـت بي إلى مقهـى شـعبي كان أشـبه بـدكان صغـير، لكنـه مـليء ومنتعـش بالـرواد عـلى ضيـق مسـاحته.

وجـدت كرسـيا فارغـا فجلسـت، انتبهـت إلى مجموعـة مـن الكهـول والشـباب علا صخبهم بسـبب القـمار بلعبة «البارتشـيس»، أحدثـوا جلبـة كبـيرة بسـبب ضرب الـنرد عـلى الطاولـة.

أمـا أنـا فكنـت أحمـل السـبسي وأدخـن الكيـف فيـه، غـير مبـال بمـا كان يـدور بينهـم مـن حديـث، كنـت أدخـن واسـتمتع بالطـرب الأندلـسي. والطـاولات مـن حـولي لهـا أربعـة مداخـل، تـم تخصيصهـا لأربعـة لاعبـين، وهنـاك طـاولات يشـارك في اللعبـة حـوالي ثمانيـة لاعبـين.

مـن بـين الحضـور، لفـت انتباهـي شـاب أجنبـي قـوي البنيـة يرتـدي قميصـا فضفاضـا طبعـت عليـه رسـوم متداخلـة بألـوان شـتى، وأزراره الثلاثـة مفتوحـة مـن الأعـلى عـلى صـدره البـارز، يظهـر عليـه وشـم يغطـي ذراعيـه والجـزء المكشـوف مـن ظهـره، يبـدو أن الوشـم يمتـد إلى أسـفل ظهـره. تلتصـق بـه فتـاة لـون بشرتهـا البرونزيـة يلمـع مـع انعـكاس نـور اللمبـة المتدليـة بسـلك طويـل مـن الأعـلى، كان الأزرق الليلـكي عليهـا سـاحرا جـدا مـن خـلال التنـورة الطويلـة التـي كانـت ترتديهـا.

ضحكتها العفوية من حين لآخر كانت تأسر كل من هم حول الطاولة، حتى أن الكثير من العيون الأخرى في الطاولات القريبة كانت ترمقها بكثير من الحسرة.

كان الشاب الأجنبي يلعب بشراهة وفي يده لفافة كيف، يبدو أنه خسر كل ماله في القمار، حتى اضطر إلى نزع الساعة الذهبية اللون من معصمه الأيسر وأفتك الخواتم الثلاثة من بين أصابع صديقته بحركة سريعة وفظة، ووضع كل شيء على الطاولة مراهنا على الكسب.

توالت خساراته مع مرور الوقت حتى لم يجد ما يقامر به، فجأة ودون سابق إنذار، رفع يد صديقته من على منكبيه وسحبها برفق إلى أمام الطاولة، طالبا من ندمائه مواصلة اللعب، وأعلن أمام الملأ أنه سيراهن على صديقته في القمار.

المسكينة على الرغم من أن عينيها الزرقاوين مثقلتان من تدخين الحشيشة، امتقع وجهها وفتحت ثغرها من شدة الذعر!

حاولت أن تثنيه على ما ذهب إليه من قرار متهور، لكن باءت كل محاولاتها بالفشل ولم يشفع لها رجاؤها عنده واستجداؤها له.

واصل في عبثه واستهتاره غير مبال، إلى أن خسرها على طاولة القمار.

نهض الرجل البدين الذي كان يجلس قبالته وعينيه ترقصان فرحا، كان يتلمظ ولعابه يسيل بشكل مقرف ومقزز وهو يقترب منها والمسكينة تتراجع إلى الخلف ويبدو من شدة فزعها واصفرار وجهها أنها لم تكن مصدقة ما حلّ بها الليلة وأي بلاء كان ينتظرها، حتى تعثرت برجل الكرسي وسقطت على قفاها.

ارتفع قماش التنورة الخفيف وظهر جزء من فتنتها، لا أحد ممن كان في المقهى رأف لحالها، بقدر ما جعلهم فضولهم الغريزي منهمكين في النظر إلى ذلك الجزء المكشوف من جسدها، وانتظار ما ستسفر عنه نهاية حكايتها مع ذلك الرجل المسخ الذي كان يلاحقها.

لم أحتمل الموقف وهالني المشهد حتى وجدتني أتحسس جيب سروالي، ثم سحبت يدي طابقا على كفي على شكل قبضة، واتجهت صوب تلك الطاولة المنصوبة وسط الدكان، ضربت على سطح الطاولة حتى سقطت الدراهم، ما جعلني أثير انتباه كل من كان حاضرا ويصوب نظره في الرجل البشع والفتاة المذعورة، اشرأبت كل الرقاب نحوي.

أشرت على الرجل البدين أن يترك الفتاة في سبيل حالها، ويأخذ النقود من فوق الطاولة. تمنع وأظهر نوعا من الاستهزاء وأطلق ضحكة غبية كسرت جل توقعاتي في فض المسألة وديا ودون الاستعانة بالغلظة والشدة، فهؤلاء الرعاع أعرفهم كما أعرف راحة يدي، لذلك أعرف جيدا الطريقة المثلى في التعامل

معهم.

لم أمهله حتى يكمل ضحكته إذ ذاك نطحته بجبهتي ولويت ذراعه حتى سقط كالثور الإسباني المهزوم في حلبة المصارعة.

جمعت النقود من فوق الطاولة ورميتها عليه، دفعت الحساب وانصرفت مع الشابة ورفيقها الذي خذلها وباعها مقابل لعبة قمار.

طيلة الطريق كان يبكي بحرقة كالمرأة المكلومة ويغني بشجن ويتوسل للشابة أن تغفر له زلته، واعدا أنه لن يكررها. لم تُجْدِ محاولاته اليائسة نفعا، أمام إصرارها وتعنتها وتمسكها بموقفها ونفورها منه. فقد كانت تتأبط ذراعي ورأسها ملتصق بي إلى أن وصلنا إلى الشالي الذي يقيمان فيه.

أخرج المفتاح بتثاقل وفتح قفل الباب. من شدة التعب والوهن ارتميت على أول أريكة صادفتها أمامي. نمت بعمق، لولا أشعة الشمس التي أفسدت علي غفوتي لما نهضت. بقيت مستلقيا إلى ما قبل منتصف النهار. لما فتحت عيني انتبهت إلى اللحاف الأزرق السموي الرقيق يلف جسدي، ولم أجد حذائي الذي تكاسلت عن نزعه البارحة من غلبة سلطان النوم.

لما نهضت أرشدتني إلى الحمام فقد كانت مثانتي ممتلئة على آخرها كأنها على وشك الانفجار. ثم جلست على الكرسي في طاولة المطبخ.

وضعت أمامي صحنا مليئا بالغلال والثمار، وكوب قهوة ساخنا، وعلبة حليب، وقطعة كيك. أحسست بجوع شديد ورغبة كبيرة في الأكل أمام هذه اللوحة الفاتنة في صباحات تطوان المشمسة. تناولت فطوري لحظتها كما لم أتناوله من قبل.

بعد أن فرغت، دست في جيبي ظرفا قمحي اللون، ورجتني بعد أن وضعت إصبعيها على شفتي بأن لا أفتح الظرف حتى أغادر الشاليه.

-١٠-

في البداية لم أستطع ترك الشرب والتوقف عن السهر، كان الأمر بالنسبة لي أشبه بالحلم المستحيل التحقيق. لكن جاء الوقت الذي عزمت فيه على بدء حياة جديدة.

كنت أتأهب لبلوغ سن تؤهلني للتفكير في الاستقرار واتخاذ قرار التوقف عن معاقرة الخمرة والتسكع من حانة إلى حانة وعن الانتقال من امرأة لأخرى، كان عليَّ الفصل في الأمر بشكل حاسم، لا مجال للتردد فيه. بداية ذلك التغيير كانت مباشرة عقب انتهاء شهر رمضان الكريم والاحتفال بالعيدين الصغير والكبير.

تتجلى هذه الفترة دوما في ذهني وذاكرتي من خلال بلوغ شهر الصيام وما يرافقه من أجواء روحانية وإنسانية غاية في الجمال والتآزر، يخفق لها القلب والفؤاد معا. وما يأتي بعده من أعياد تفرح النفس المثقلة وتبهج الأطفال الصغار.

تلك الفترة تحيلني إلى حدث استثنائي بموجبه عقدت قراني

عـلى ابنـة عمـي. بعـد أن كنـت لا أومـن بـشيء اسـمه الرابطـة الزوجيـة؛ فـما فعلـه بي كل مـن ليـلى حمـودان الإدريـسي ومـن كنـت اعتقـد انـه صديقـي سي محمـد لمبريبطـو، جعلنـي أكفـر بـأي رابطـة، سـواء كانـت رابطـة صداقـة أو رابطـة زواج عـلى وجـه الخصـوص.

جـرى الاتفـاق بـين أبي وعمـي عـلى تفاصيـل العـرس وكل مـا يتعلـق بـه مـن ترتيبـات وتحضـيرات ومتطلبـات. وهكـذا علمـت لاحقـا ببعـض التفاصيـل مـن أمـي، التـي كانـت تنقـل لي بـين الحـين والآخـر غيظـا مـما كان يخبرهـا بـه والـدي عـمّا كان يـدور بينـه وبـين عمـي مـن أحاديـث في الموضـوع.

المهـم استحسـنت فكـرة الـزواج واسـتلطفتها خصوصـا في تلـك الفـترة الحرجـة التـي كنـت أمـر بهـا في حيـاتي. كان لا بـد لي مـن وجـود امـرأة حقيقيـة تسـند ظهـري وتشـدد مـن أزري وتكتـم سري.

في البدايـة سـارت الأمـور عـلى أحسـن مـا يـرام، لكـن تدريجيـا بـدأت تطفـو عـلى السـطح أشـياء لم أكـن انتظرهـا إطلاقـا؛ فبعـد فـترة تغـير هـذا الإحسـاس الجميـل وانقلبـت سـعادتي المؤقتـة رأسـا عـلى عقـب، إذ مـع مـضي الوقـت رويـدا رويـدا ظهـرت أمـور عكـرت صفـو مـا كنـت أنعـم بـه مـن سـكينة، حينهـا أدركـت كـم أخطـأت وتسرعـت في خيـاري، لا ريـب أن مـرد الأمـر كان يعـود إلى ليـلى حمـودان، فقـرار زواجـي مـن جميلـة ابنـة عمـي مصطفـى لم يكـن دافعـه الحـب بقـدر مـا كان كـرد فعـل غـير متبصر عـن زواج

حبيبتي السابقة ليلى بصديقي الذي خذلني محمد.

لم يكن زواجنا أنا وجميلة مأتاه الحب ومبعثه أحلام مشتركة يتقاسمها أي حبيبين في مكان ما، قد يشتركان في الطموحات والرؤى والتصورات حول ما ستكون عليه حياتهما وأبناؤهما المنتظرون، فزواج بغير عاطفة غامرة تعصف بقلبين وتعصرهما في كأس واحدة، أشبه بصلاة بغير وضوء، فكلاهما باطل، الزواج بغير حب يمكن الجزم ببطلانه، والحكم بفشله كما تبطل الصلاة من دون طهارة ووضوء.

أعرف أنني أدركت متأخرا هذا الأمر، لكن ما أعرفه أكثر إلى حد اليقين هو أنه ليس بإمكاني الاستمرار أكثر في أداء دور الزوج. فقد استحالت حياتي مع زوجتي وابنة عمي جميلة إلى جحيم، بت لا أطيقها، ولا أرغب حتى في رؤيتها. فقد هجرتها في الفراش، وأصبحت أخرج من البيت ولا أعود إلا بعد أن يسدل الليل ستائره. فلا أكلمها ولا أجتمع معها على مائدة الأكل، ولا أنام بجوارها على سرير واحد.

بت أقضي غالب وقتي مع صديقي الإسباني ماريانو باكارو، ثم تعرفنا لاحقنا على مومو حيُّون وهو من يهود تطوان. إذ كنا ثلاثتنا في تلك الفترة لا نفترق، كما لا يفترق الظل عن صاحبه، ومن يبحث عن أحدنا يجده مع الآخرَيْن. وقد كان صديقنا مومو يدعونا أنا وماريانو من حين لآخر لتناول الطعام في منزل عائلته، حيث استمتعنا بتناول البسطيلة، والبريد، والمغاس، والمالوزة، والبسكوشو، وأطباق أخرى لم أكن

أعرفها ولم يسبق لي وأن تذوّقتها في مكان آخر عدا على يد والدة صديقي مومو، لا أتذكر منها سوى خبز الرقاق الذي كانت تطهوه الخالة عزونة خصيصا في عيد الرقاق.

كما أتاحت لنا تلك الدعوات الاقتراب من عائلة صديقي، حيث تعرفنا على كامل أفراد عائلته الصغيرة، كانوا كلهم لطفاء وودودين معنا، ويتكلمون الدارجة المغربية مثلنا تماما، ومتشبثين بالتقاليد التطوانية في الموسيقى والمأكولات والملبس.

كما كان مومو يصحبنا أحيانا، وعندما تقتضي الضرورة فقط إلى مكتب والده العم أبراهام حيّون؛ وهو تاجر كبير معروف في تطوان يتمتع باحترام كبير ويحظى بنفوذ اجتماعي بين أبناء الطائفة اليهودية في تطوان وبين أهل تطوان المسلمين كذلك. كما كان أعمامه يمتلكون أهم متاجر بيع المجوهرات والأزياء والأحذية في المدينة، وكانت أمه عزونة بنت الحاخام بنغاليد تنتج الملابس التقليدية، وتربطها صداقات متينة بالسيدات المسلمات.

ما كان يعجبني أكثر في صديقي مومو هو مواقفه الصلبة التي لا يحيد عنها أبدا، فقد رفض استكمال دراسته في المدرسة الإسبانية اليهودية التابعة للمستعمر الإسباني، على الرغم من أن جل أفراد عائلته وجيرانه اليهود كانوا يقصدون المدارس الإسبانية في تطوان دون أدنى حرج. إذ ركب رأسه وواصل تعليمه في مدرسة يهودية تابعة لمنظمة التحالف الإسرائيلي العالمي بتطوان.

كـما لم يلتفـت لاحقـا إلى نـداءات أبنـاء عمومتـه حـول الهجـرة إلى إسرائيـل، واضطـر للهجـرة فيـما بعـد إلى مارسـيليا ومنهـا إلى كنـدا، أمـا مـن تبقـى مـن أفـراد عائلتـه عـلى قيـد الحيـاة فقـد هاجـروا إلى إسرائيـل في بدايـات الخمسـينيات ثـم في نهايـة السـتينيات مـن القـرن المـاضي؛ إذ كان الرحيـل الأول بعـد سـنتين مـن نكبـة فلسـطين عـام ١٩٤٨، ثـم الرحيـل الثـاني مبـاشرة بعـد نكسـة حـرب ١٩٦٧ ميلاديـة.

كـما لم يسـبق وأن رأيـت الْقُرِيعِيـة عـلى رأس مومـو، عـلى غـرار أفـراد عائلتـه الذيـن كنـت أشـاهدهم يضعـون تلـك الطاقيـة الصغـيرة دومـا عـلى قُنَّـة رؤوسـهم، حتـى أثنـاء دفـن والدتـه عزونـة في مقـبرة اليهـود بتطـوان التـي تقـع أمـام مقـبرة المسـلمين لم تكـن القريعيـة عـلى رأسـه.

رغـم أننـي كنـت يومهـا مشـدوها برهبـة الأسـوار العاليـة المحيطـة بالمقـبرة، وبشـكل القبـور المشـيدة بلـوح الرخـام المنقـوش باللغـة العبريـة، إلا أننـي كنـت في ذات الوقـت أترقـب المشـيعين وأتفـرس في الوجـوه والملامـح وأحـدق في اعتبارهـم وهيئاتهـم؛ حيـث كان الحـزان أنـدري بنغاليـد يقـف بجنـب الشـموع الموضوعـة عـلى الهيـكل، ويقـوم بطقـوس غريبـة.

لم أتـرك صديقـي مومـو نهبـا للحـزن عـلى فقـدان والدتـه، فقـد عزمـت عـلى مواسـاته والبقـاء معـه طيلـة تلـك الفـترة العصيبـة علنـي أخفـف عنـه وجعـه وبثـه. حيـث اصطحبنـي معـه إلى زيـارة مجموعـة مـن الأوليـاء اليهـود، الأمـر الـذي فاجـأني، إذ كنـت

أعتقد أن الأولياء والأضرحة والمزارات عند المسلمين فقط، إلى أن أدركت بعد زياراتي تلك أن لليهود أولياءهم أيضا ونصيبهم من التبرك والترحم بالأضرحة والمزارات التي تحظى بقدر كبير من الاحترام والقداسة.

وكثيرا ما كنا نتردد على ضريح الحاخام إسحاق بن وليد، حيث تعتريه حالة من الخشوع تليها ترديده لمجموعة من التعبيرات الدينية العبرانية، لم أكن أفقه معانيها. وفي بعض الأحيان كنت أتركه منغمسا في حالته تلك وانخرط في الحديث مع أحد الزوار اليهود، وقد أكد لي العديد منهم أن زيارة أضرحتهم تحقق لهم منافع جمة، كالشفاء من الأمراض المزمنة والتبرك بالأولياء خصوصا في مواسم الهيلولة؛ حيث يتم إيقاد الشموع والترحم والصلاة والدعاء، وهي أشبه بالحج بسبب الحضور الكبير لليهود في تلك المواسم للتعبد والتعارف ووصل الأرحام.

ثم صحبني على غير عادته إلى كنيس يهودي بوسط المدينة، حيث وضع فتى صغير في كف يدي أوراق الريحان الغضة، كنت أرقب من بعيد مومو إلى غاية إكماله طقوس صلاته، ولما خرجنا من المعبد اليهودي كنا نسير في دروب وأزقة تطوان على غير هدى، وفي الليل حضرنا سهرة ممتعة، أزالت عنا فرقة الموسيقى الأندلسية شطرا كبيرا من الغم والهم.

لما غادر مومو إلى مارسيليا انقطعت أخباره فترة طويلة، لم أنسه فيها لحظة، فقد كانت تربطنا أواصر صداقة قوية

وحميميـة، كنـت لا أتوقـف عـن التفكـير في صداقتنـا وأيامنـا الجميلـة التـي قضيناهـا مـع بعـض، وفي مـدى قدرتـه عـلى تدبـير شـؤونه في فرنسـا، وهـل هـو بخـير وصحـة وعافيـة؟ أم أن مكروهـا مـا يكـون قـد أصابـه؟

كان فراقـه شـاقا وعسـيرا، وكنـت في الحقيقـة مشوشـا، وغـير مطمـئن عليـه في بـلاد الغربـة، إلى أن وصلتنـي منـه الرسـالة الأولى، مزقـت الظـرف البريـدي كيفـما اتفـق وأخـذت اقـرأ أسـطرها ويـداي ترتجفـان وقلبـي يخفـق مـن دون توقـف، لم أشـعر وإلا والدمـوع المتدفقـة مـن عينـيّ قـد بللـت الورقـة وأحالـت كلماتهـا إلى بقـع حـبر كالبحـيرات الزرقـاء.

في تلـك الرسـالة اكتفـى بطمأنتـي عنـه، وأنـه مسـتقر ولا يشـكو مـن أي منغـص، وأمـوره تسـير وفـق مـا خطـط لـه، كأنـه أحـس بمـا كنـت أشـعر بـه. وتواصـل تراسـلنا، ولم أشأ أن أكتـب لـه عـن حيـاتي المعطلـة وأحلامـي المؤجلـة، حاولـت قـدر طاقتـي أن أنقـل لـه يوميـاتي مـع ماريانـو، حدثتـه عـن تسـكعنا في دروب وشـوارع تطـوان وجلسـاتنا في مقاهيهـا وحاناتهـا، كنـت أنقـل لـه مغامراتنـا وغزواتنـا التـي لا تنتهـي كي أدخـل البهجـة عـلى نفسـه، وأبلغتـه كـم نحـن مشـتقان لـه ونفتقـد أيامنـا الخـوالي التـي لا تعـوض.

وفي رسـالتيه الثانيـة والثالثـة روى كيـف تعـوَّد عـلى العمـل في الميناء عـلى الرغـم مـن مشـقته، كـما حدثنـي عـن الغرفـة التـي يقيـم بهـا رفقـة أربعـة عـمال وعـن اسـتيائه مـن بعـض سـلوكاتهم وعاداتهـم المنفـرة، وكيـف كان يمـضي يومياتـه بـين العمـل والسـهر

والغرفة. ومن غير سابق إنذار تغير فجأة ولم يعد يكاتبني كثيرا كسابق عهده، فقط كنت أشعر أنه كان يرد على رسائلي من باب الإحراج لا غير، برسائل مقتضبة كأنها كتبت على عجل، يسأل فيها عن أحوالي وجديد أخباري، ويزودني بأخباره ويشتكي من وحدته.

إلى أن عاد تواصلنا كما كان أو أفضل من ذي قبل، فكنت أتلقى منه رسالة أو أكثر في الشهر، ولم أسع خلف فهم مدعاة ذلك. وقد روى لي في رسائله اللاحقة كل ما حصل معه مذ وصوله إلى مرسيليا، حيث لم يجد لا العمل ولا المأوى، فتعرف على رجل يهودي أرشده للإقامة في البيوت الخيرية لمنظمة الاتحاد العام الإسرائيلي بفرنسا، وكيف أن هذا التنظيم حاول اجتذابه في بادئ الأمر، قبيل تحصله على وظيفة الميناء. وكيف انخدع بصدق هذا التنظيم وسمو أهدافه لما وقف على اهتمامه بالأطفال القصر ورعايتهم في دور خاصة، وتأمين وجباتهم الغذائية والاهتمام بتمدرسهم، خصوصا مع الاضطهاد والمنع من العمل الذي كان يتعرض له اليهود في فرنسا آنذاك.

حيث اكتشف أن الإقامة في مثل هذه الدور يتطلب تبعية عمياء لقادة منظمة الاتحاد العام الإسرائيلي، فقد كان يُقبض على الفور على أغلب من يسجل عندهم من اليهود، ومن ثمة تتم عمليات التخطيط لترحيلهم بطرق ممنهجة إلى فلسطين.

كما حدثني عن نجاحه في الفرار بأعجوبة من قبضة منظمة الاتحاد ومجنديها من المتطوعين والموالين من أعضائها الشباب

خصوصا الذين كانوا يشكلون الأغلبية. ساعده على الاختباء شاب جزائري يقيم في حي من الصفيح، من بين الأحياء التي تحشد فيها الشركات عادة جموع عمالها، فأخبرني أنه رضي على مضض أن يبقى مقيما ومتواريا عن الأنظار لفترة طويلة امتدت لأشهر في هذا الحي، الذي هو أشبه ما يكون بقاعدة حياة لا تصلح لأي شيء ولا تتوفر بها أدنى شروط الحياة الكريمة، عدا أنه غارق في البؤس والشقاء.

كما كتب لي عن شركائه في ذلك البيت المتهالك، أغلبهم قدموا من المستعمرات الفرنسية بحثا عن عمل؛ حسان يحترف تركيب المدافئ، يبلغ سبعة وعشرين ربيعا جاء إلى مرسيليا من مدينة تيزي وزو، في حين موح الذي بلغ التاسعة عشرة من عمره قدم من شرشال، وهو يشتغل في تقطيع الزجاج، أما محند فهو يشتغل كعامل بسيط، ويبلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة ولد في مدينة بجاية، والمنجي القادم من صفاقس متزوج وأب لثلاثة أطفال، يبلغ من العمر ثلاثين سنة، أما حمادي فقدم من تونس العاصمة وبالضبط من حي باب سويقة في المدينة العتيقة، ويبلغ من العمر ثلاثة وعشرين ربيعا.

كما روى لي قصة امرأة فرنسية كان منبهرا بطيبتها ورقيها، تدعى كلودين متزوجة من شاب جزائري ينتمي إلى فدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، كانا قد التقيا في القطار خلال العطلة الربيعية، وفي هذا القطار كان الشاب مأخوذا بجمالها وسحر كلماتها، بينما كانت هي غارقة في حديث

شيق مع شاب قادم من الجنوب، من تلك المناطق التي وضعت الجمهورية الفرنسية عليها يدها بقوة النار والحديد واعتبرتها أقاليم تابعة لها. وتعددت لقاءاتهما فيما بعد، وقد أعجبت إذ ذاك بشجاعته ومواقفه النضالية البطولية، ودعمته لأنها تعاطفت مع أبناء شعبه المستعمرين من سلطة بلدها العاتية وآمنت بعدالة قضيتهم، ليتزوجا بعد أقل من سبعة أشهر من تعارفهما. وكي لا يثير أدنى شكوك من حوله، خصوصا وأن الأمن الفرنسي في تلك الفترة كان على أهبة الاستعداد لمكافحة أي نشاط معاد على أرضه، كان محمد الطاهر يصحبها معه إلى شقة رجل فرنسي تقع في شارع ألكسندر دوما في الدائرة الحادية عشرة، وكانا يترددان عليها بمعدل أربع مرات في الأسبوع، لحضور لقاءات خاصة بتنسيق العمل وإعداد التقارير، وفي هذه الشقة كان محمد الطاهر وزوجته كلودين يقضيان الليل بأكمله وهما يشتغلان، يتداولان على آلتي الرقن والسحب، يسحبان الأدبيات السياسية الموجهة لإقناع المهاجرين المترددين في الانضمام إلى صفوف جبهة التحرير الوطني، كما كانا يتدبران أماكن مناسبة لإخفاء الاشتراكات والمداخيل المالية المتوفرة للفدرالية. وقد أتاحت تلك اللقاءات لكلودين أن تتعرف على مجموعة من الشاب والقادة على رأسهم أحمد دوم المكلف بالعمليات في منطقة باريس، ومحمد مشاطي المسؤول عن منطقة شرق فرنسا وفضيل بن سالم المكلف بالشمال الفرنسي، وأخيرا عبد الرحمان غراس مسؤول المهام في الوسط والجنوب، وهو الذي تكفل فيما بعد بعملية نقلهما

هـي ومحمـد الطاهـر مـن باريـس إلى مرسـيليا.

كانـت كلوديـن كـما كتـب لي مومـو تُحضِّر لهـم بعـض الوجبات السـاخنة مـن حـين لآخـر، اختـارت السـكن في هـذا الحـي هربا من معارفهـا الذيـن هددوهـا ولم يتوانـوا عـن اتهامهـا بالخيانـة فقـط، بـل تمـادوا في وصمهـا بالانحـراف ومضاجعـة الأجانـب، واتهموهـا بالهـوس بالجنـس وبأنهـا ذات ميـول شـبقية مرضيـة.

ولمـا انتقـل مومـو إلى كنـدا أرسـل لي رسـالة واحـدة يتيمـة يعلمنـي فيهـا بوصولـه ويطمئنـي عـن صحتـه وأحوالـه، ويخـبرني عـن زواجـه بفتـاة يهوديـة تَعـرَّفَ عليهـا في حانـة بمرسـيليا حيـث كانـت تقـام ليلتهـا حفلـة صغـيرة، ومـن حـين لآخـر -كـما روى لي- كان المغنـون خصوصـا القادمـين مـن الجزائـر يقيمـون حفـلات في المقاهـي والحانـات، وفي تلـك المناسـبات كان يحـاكي المهاجريـن، حيـث كان يرتـدي أجمـل مـا عنـده مـن ثيـاب، قبـل الخـروج للاسـتمتاع بالجـو الجميـل الـذي تضفيـه تلـك الجلسـات والأغـاني، فأخـبرني بأنـه أحـب الأغـاني الشـعبية والقبائليـة الجزائريـة، وقـد كان يخـرج خصيصـا بصحبـة محنـد ومـوح وحسـان والمنجـي وحـمادي ليلتقـوا مـع المهاجريـن الآخريـن الذيـن كانـوا بدورهـم يعيشـون مثلهـم في مجموعـات، مكونـة مـن أربعـة أو خمسـة أفـراد في الغرفـة الواحـدة.

في تلـك الفـترة تعـرف مومـو عـلى مغـنّ شـاب، نشـأت بينهـما صداقـة جميلـة، وروى لي باسـتغراب بالـغ كيـف أن والـد هـذا الشـاب وأهـل قريتـه في القبائـل بتيـزي وزو نبـذوه مـن القريـة

ومـن المجتمـع القبائـلي ككل بعدمـا عرفـوا بشـأن دخولـه للوسـط الفنـي، فـلا وجـود لشيء اسـمه فـن أو تلحـين أو موسـيقى أو أغنية أو مسرحيـة في قريتـه، حيـث لم يكـن هنـاك فنانـون في القـرى عـدا بعـض النسـوة، فهـن مـن كـنّ يؤديـن الأغـاني. مـا اضطـر صديقـه هـذا للمغـادرة مكرهـا نحـو الجزائـر العاصمـة في سـن مبكـرة جـدا، ولمـا قـدم إلى العاصمـة لم تكـن ظروفـه لتسـمح لـه بمواصلـة تعليمـه، لذلـك فضـل العمـل حيـث يـسرت لـه توصيـة مـن أحـد أقاربـه الالتحـاق لمباشرة العمـل لـدى خيـاط معـروف جـدا، وبـدأ مـن حينهـا العمـل كمسـاعد خيـاط. أتاحـت لـه فرصـة العمـل تعلـم مهنـة الخياطـة والتعـرف عـلى مجموعـة مـن الفنانـين الذيـن مـدوا لـه يـد العـون في ولـوج الوسـط الفنـي مـن بابـه الواسـع، كتابـة وتلحينـا وغنـاء، وهـذه المـرة اسـتخدم اسـما فنيـا مسـتعارا بـدلا مـن اسـمه الحقيقـي، تبـصرا منـه بالعواقـب المحتملـة وتجنبـا لـكل النوائـب المتوقعـة.

كانـت هـذه آخـر رسـالة تصلنـي مـن مومـو قبـل أن تنقطـع رسـائله نهائيـا، حتـى تلـك الرسـائل المتتابعـة التـي أرسـلتها لـه عـلى ذات العنـوان المكتـوب عـلى ظـرف رسـالته سرعـان مـا كانـت ترجـع مشـطوبة مـن حيـث أتـت!

أمعـن غيابـه وانقطـاع رسـائله في كآبتـي وحـزني، وأجهـض كل أحلامـي في الذهـاب لموافاتـه ولقائـه مجـددا، فقـد كان يجـب عـلي أن أرحـل، إذ باتـت تطـوان تصيبنـي بالسـأم وتثقـل عـلى صـدري أكـثر مـن أي وقـت مـضى، علنـي أجـد عمـلا في أرض أخـرى

وحيـاة جديـدة تنتظـرني. ومـع ذلـك بقـي صديقـي مومـو يخطـر عـلى بـالي باسـتمرار، وكلـما حـدث وأن تذكرتـه في وحـدتي القاسـية، كلـما كنـت أتنهـد قانطـا ثـم أتسـاءل في قـرارة نفـسي: لمـاذا هـذا النسـيان؟ لمـاذا هـذا الخـراب؟

ذات مسـاء، تحادثنـا أنـا وماريانـو عـلى سـبيل الصدفـة عـن السـيد بيروتـشي، تفاجـأت لمـا أخـبرني بـأن والـده مـا زال عـلى تواصـل معـه!

سـألته عـن ذلـك بنهـم ثـم رجوتـه أن يسـأل والـده عـن عنـوان السـيد بيرتوشي في إسـبانيا.

بعـد أيـام جلـب لي عنوانـه مكتوبـا عـلى ظهـر نصـف ورقـة مطويـة. غمرتنـي فرحـة عظيمـة كادت لا تسـعها روحـي المتعبـة. أحسسـت كأننـي أحلـق فـوق مرتفعـات جبـل درسـة وسلسـلة جبـال الريـف، ثـم أنخفـض عنـد ضفـاف البحـر الأبيـض المتوسـط وفي المناطـق الفلاحيـة المزروعـة في تطـوان.

كان عـلي أن لا أتأخـر لحظـة، في يـوم الغـد كتبـت نـص رسـالة باللغـة الإسـبانية، بثثـت فيهـا كل مشـاعري، في ذلكـم المسـاء، لم أسـتطع أن أخفـي غبطتـي عـلى أحـد، فقـد كانـت كل حـركاتي وسـكناتي تفضحانـني.

بعد أن أرسلت له الرسالة الأولى بقيت أنتظر، لكنه لم يرد.

أرسلت له رسالة ثانية، ثم ألحقتها بثالثة، لكن لا جدوى.

لما فقدت الأمل نهائيا، وصلتني رسالة منه بعد ثلاثة أشهر.

كنت سعيدا جدا برده إلى درجة لا يمكن وصفها.

إذ ذاك ما هي إلا سنوات حتى أعاد الحنين السيد مانويل بيرتوشي إلى الإقامة بتطوان. ما هي إلا أشهر بعدها حتى توفاه الأجل، بالضبط كانت أحد عشر شهرا.

أقيم له قداس الجنازة في كنيسة المدينة حضرها أكثر من أربعمائة تطواني مسلم، الرجل كان محبوبا في أوساط الناس البسطاء، حيث كان يعيش بينهم ويختلط بهم، ويتكلم معهم اللهجة المغربية مخلوطة بكلمات إسبانية.

أشهر من الغبطة والفرحة غير المكتملة، ثم غادر بعدها إلى غير رجعة، تركني بعدها نهبا لذكريات وهموم وأحزان لا حصر لها، بل بت وحيدا واتسعت فجوة يتمي أكثر من أي وقت آخر، ولم يعد في القلب هناك متسع للمزيد من الجزع والفقدان.

جعلني موت السيد مانويل بيرتوشي أستعيد أشخاصا كانوا ذات يوم أقرب لي من حبل الوريد، وأحداثا جساما عرفتها في الأيام المنصرمة من عمري؛ ها أنا ذا أستعيد بمرارة ذاك الرجل العظيم مخلوف الصبايحي الذي لن يعوض أبدا، صراحة كان أشبه بأخٍ كبير عطوف أو كأب حنون وحريص يهتم بأمري ويستفسر عن شؤون حياتي، وكان لا يهنأ له بال حتى أروي

لـه مـا يطمئنـه عنـي. لم تسـعفني ظـروفي غـير المسـتقرة أن أفي لـه بفضلـه وهـو عـلى قيـد الحيـاة، وهـا هـو دينـه يخنقنـي ألمـا وحـسرة بعـد أن توفـاه الآجـل وألتحـق بـدار البقـاء.

لمـا عرفتـه كنـت طفـلا صغـيرا بـدأ لتـوه ولـوج آثـام العـالم السـفلي، ولم يسـتوعب بعـد شـؤون الحيـاة وتصاريفهـا، وانقلاباتهـا وزلازلهـا، كنـت صغـيرا جـدا عـلى إدراك ذلـك، كفـرخ خـرج لتـوه مـن بيضـة، لكننـي عـلى الرغـم مـن كل ذلـك مازلـت أتذكـر جيـدا هـذا الرجـل النقـي الطاهـر، الـذي اضطرتـه الظـروف القاهـرة إلى العمـل ضمـن فرقـة الصبايحيـة في الجزائـر، وأن يشـارك في حـروب بالنيابـة عـن الفرنسـيين في دول عـدة، إلى أن وطـأت قدمـاه أرض المغـرب بعـد أن صحبـه قائـده العقيـد جوزيـف دوكـرو. في حقيقـة الأمـر كان رجـلا شـهما ورفـض تعليـمات قادتـه العسـكريين في قتـل مواطنيـه الجزائريـين، لم يرضـخ لأوامـر الضبـاط بإعـدام زعـماء النضـال ضـد الاسـتعمار، وكان هـؤلاء الضبـاط يصابـون بالوجـوم والذهـول، ويستشـيطون غضبـا مـن تمـرد مخلـوف وزملائـه الصبايحيـة؛ رفضهـم الامتثـال لأوامـر القتـل، وعـدم تنازلهـم عـن أحصنتهـم لحمـل جثـث القتـلى مـن السـفح إلى الجبـل، وعـدم انصياعهـم وامتثالهـم لأوامـر التنكيـل بالجثـث كقطـع الـرأس عـن الجسـد. غالبـا مـا كان مخلـوف يغـرق في البـكاء عـلى سـفك قادتـه لأرواح أبنـاء جلدتـه.

كـما أن أيامـي بـدت رتيبـة، ففـي لحظـة انكفـأت عـلى نفـسي، لأننـي كنـت أشـعر بـألم ضربـات الحيـاة وهـي تنهـال عـلى قمـة

رأسي، ثم على جسدي من كل جانب؛ بعد أن ابتعدت في البداية عن محمد لمبريطو بُعَيْدَ أن اكتشفت أنه طعنني في الظهر بخنجر صدئ، وفي فترة أخرى من قادم الأيام انقطع تواصلي مع الأمين حمودان، صراحة لم يعد لبقاء صداقتنا جدوى، خصوصا بعد أن خذلتني أخته ليلي مع محمد، فما بقي من تلك الصداقة لا يعدو أن يكون سوى نحيب غربان سوداء على ماض لن يعود أبدا.

كل ذكرياتي حول هؤلاء الأشخاص وتلك الأحداث المؤلمة التي انفتحت فجأة أمام ناظري، تصيبني بالهيجان والذعر اللذين يجعلاني أشبه ما أكون بالخفافيش المهتاجة والمذعورة لحظة تعميها أشعة النور على حين غرة. فظلام النسيان المسدل على الذاكرة أهون عليَّ من أشعة الذكريات الساطعة التي تدمي القلب وجعا وتثقل الروح حسرة وألما.

-١١-

في الطريــق إلى الجزائــر اجتــزت أنــا ومــن كانــوا يرافقوننــي أعظـم الكـروب حـدة وأشـد الاختبـارات قسـاوة، فقـد كانـت جُـل الطـرق وغالبيـة الممـرات التـي عبرنـا عليهـا شـائكة ومرعبـة جـدا إلى درجـة يصعـب وصفهـا. فقـد مشـينا في ظـروف قاهـرة جـدا، حيـث كانـت درجـة الحـرارة تتجـاوز الأربعـين مئويـة، فكثـيرا مـا كنـت أختنـق بفعـل ارتفـاع معـدلات الحـرارة غـير المحتملـة في حـمَّارة القيْـظ. وأحيانـا تنفـد منـا المؤونـة والمـاء، فنضطـر مكرهـين إلى مواصلـة الطريـق في بيئـة تضاريسـها قاسـية جـدا دون طعـام يسـد رمقنـا ويسـند ظهورنـا ومـاء يـروي عطشـنا.

لمـا نتوقـف أو نواصـل المـشي كان أنيسـنا في رحلتنـا الشـاقة تلـك البعـوض والأفاعـي والسـحليات ومختلـف الضـواري المفترسـة والضبـاع. كنـا مهدديـن وعرضـة لأي خطـر داهـم في ضـوء النهـار كـما في ظـلام الليـل الدامـس، وكانـت حياتنـا في الخـلاء الموحـش دومـا في مهـب الريـح.

لما تمزق نعلي اضطررت أن امشي حافي القدمين على الأرض، طيلة أيام بأكملها كان العشب اليابس والحجارة الحادة يسببان لي جروحا وندوبا ألمها لا يطاق، أما التراب الجاف والأرض الملتهبة التي كنت أطأها فحرقت باطن قدمي، وسببت لي رضوضا وشقوقا لا زالت صورتها إلى اليوم ماثلة أمامي.

في رحلة العبور تلك فقدنا بعضا من رفاقنا من لم تسعفهم طاقتهم على المواصلة، أن تكون معرضا للجوع وعواصف الغبار في الربع الخالي من الأرض فذلك ليس بالأمر الهين. أن تكون على شفير الهلاك، سواء صرخت بملء صوتك أو استنجدت بكل ما بقي فيك من قوة، فلن يسمعك أحد. الموت أقرب إليك من أي شيء آخر.

لما بلغنا منطقة زوج بغال شعرت بفرحة غامرة لا حد لها، فقد نجونا من موت مؤكد. اجتزنا تجربة عصيبة جدا، لا أملك الشجاعة لتكرارها مجددا. بالكاد خرجنا من المحنة، تنفست الصعداء. ليست لدي رغبة حتى في مجرد التفكير في حدة وشراسة الطبيعة التي مررنا بها، وفي ثقل النوائب وفظاعة ما صادفناه في رحلة العبور إلى الجزائر.

أعتقد أن الشخص الذي أطلق تسمية زوج بغال على المنطقة الحدودية بين البلدين، إما رجل أبله ضعيف الخيال، عجز مخياله عن الإتيان باسم مشرف من بين كل التسميات التي قد تكون متاحة في هكذا موقف، وفجأة وقع بصره على منظر بغلين يسرحان أو يصطكان في المكان فأطلق هكذا دون

عنـاء أو تفكـير تلـك التسـمية عـلى المنطقـة. أو أن الرجـل ذكي وتفطـن إلى مسـتقبل العلاقـة بـين الأخويـن اللذيـن سـيتحولان إلى عدويـن لدوديـن، لذلـك وصفهـما بالبغلـين لوضعهـما البائـس وجهلهـما المركـب الـذي أبـاح للقـاصي والـداني أن يركبهـما كأبلهـين اسـتنزفا قواهـما ومواردهـما في صراع أبـدي لا طائـل مـن ورائـه.

وقـد سـمعت لاحقـا عـلى لسـان سي قـدور الونـاس حكايـات متفرقـة عـن سرّ هـذه التسـمية الغريبـة، أهمهـا أن هنـاك سـاعيا بريـد يمتطيـان بغليهـما للتنقـل، يلتقيـان في تلـك النقطـة، لتبـادل المراسـلات والطـرود، خـلال أواخـر القـرن التاسـع عشر. كـما روى لي ذات مسـاء أن هنـاك مـن أخـبره أن تسـمية المنطقـة هـي تحريـف لنطـق اسـم قائـد عسـكري فرنـسي يدعـى «جـورج بيغيـل».

وقـد حدثنـي عبـد الملـك بـن عاشـور قبـل أن تطـرده السـلطات الجزائريـة إلى المغـرب، عـن قصـة أخـرى مختلفـة عـما سـبق وسـمعته بشـأن التسـمية، فـروى لي أن مأتاهـا يرجـع إلى نـزاع بـين قبيلتـين حـول قطعـة أرضيـة، القبيلـة الأولى مـن وجـدة والأخـرى مـن بنـي واسـين. وقـد ادعـت كل قبيلـة أحقيتهـا في الأرض المتنـازع عليهـا، وفي سـبيل حـل الخـلاف وإنهـاء الـصراع بـين القبيلتـين، اقـترح أحـد الحكـماء أن ينطلـق شـخصان، كل واحـد عـلى ظهـر بغـل في اتجـاه الآخـر، وحيثـما يلتقيـان فتلـك هـي الحـدود الفاصلـة بينهـما، فانطلـق الأول مشرقـا مـن ضريـح سـيدي يحيـى بـن يونـس بـأرض وجـدة، أمـا الآخـر انطلـق مغربـا مـن ضريـح الحاجـة مغنيـة بـأرض بنـي واسـين، فرسـمت حينهـا

الحـدود وأطلـق وقتـذاك عـلى المـكان تسـمية «زوج بغـال».

دومـا مـا كان حضـور مدينـة مَغْنِيَّـة طاغيـا في الذاكـرة، بـكل أجوائهـا ومناخاتهـا وعوالمهـا ومعالمهـا؛ المسـاجد ومدرسـة جمعيـة العلـماء المسـلمين، مقـبرة ومقـام لالّـة مغنيـة، وتمثـال الأمـوات، ومقـبرة المسـيحيين، ومقـبرة اليهـود، والبلديـة، الجامـع الكبـير وجامـع اليهـود والكنيسـة، ومدرسـة البنـات ومدرسـة الذكـور، الشـوارع والمكتبـات وقاعـات السـينما، النباتـات والنخلات وأشـجار الزبـوج والصنوبـر والدفـلى. فـكل الأحـداث الماضيـة التـي عشـتها أو عايشـتها أو سـمعت عنهـا هنـاك، في تلـك المدينـة الأسـطورية قبـل زمـن بعيـد يمتـد لعقـود لا زالـت حـاضرة اليـوم بقـوة، تتراقص مشـاهدها أمـام ناظـري بـكل وضـوح، كأن لم يمـض عليهـا إلا مجـرد لحظـات أو أيـام قليلـة.

أعتقـد أن مـا جعـل تلـك المدينـة تحظـى بـكل ذلـك الحيـز الرحـب في ذاكـرتي، ولم يفلـح النسـيان في لـف تفاصيـل مـا خبرتـه هنـاك، مأتـاه أن تلـك المدينـة ترتبـط في الذاكـرة بشـيئين اثنـين، لا ثالـث لهـما؛ أولهـما أنهـا كانـت أول مدينـة جزائريـة وطأتهـا قدمـي، وأنهـا الأقـرب إلى مدينـة وجـدة المغربيـة عـبر معـبر زوج بغـال، وكان عـدد كبـير مـن الجزائريـين والمغاربـة عـلى جانبـي الحـدود تربطهـم قرابـة عائليـة، حيـث كان القطـار يجتـاز يوميـا الحـدود بـين البلديـن بـكل بسـاطة وبعيـدا عـن أدنى التعقيـدات المحتملـة، قادمـا إلى المـدن الجزائريـة عـبر سلسـلة مـن المـدن المغربيـة.

أمـا اليـوم وبعـد توقيـف القطـار، وغلـق الحـدود البريـة بـين البلديـن، غـدا حـراس الحـدود عـلى الجانبـين أشـبه بأشـباح في بنايـات مهجـورة، يظهـرون ويختفـون فجـأة، وأعـلام البلديـن عـلى بعـد أمتـار قليلـة ترفـرف متمـردة، وأشـجار زيتـون مصطفـة، وصـوت كلـب أجـرب بـحَّ صوتـه مـن النبـاح، وجبـال جـرداء وحمـراء، ومجموعـات مشـتتة مـن المهربـين هنـا وهنـاك يقايضـون البنزيـن والمـازوت بالملابـس وأشـياء أخـرى في طريـق فرعـي غـير بعيـد، في مشـهد عبثـي مثـير للسـأم. قطعـت السياسـة كل الأواصر بـين العائـلات وصـادرت حقهـم في التنقـل، فقـط الطيـور وحدهـا هـي مـن اسـتمرت في التنقـل بـين جانبـي الحـدود الملعونـة، وأسـتمر هـؤلاء النـاس طيلـة عقـود يحلمـون بعـودة ذلـك الزمـن، ويترقبـون بأمـل يخبـو طـورا ويطفـو حينـا آخـر قـرارات بإمكانهـا إرجـاع شـمل العائـلات المشـتت بـين البلديـن.

وثانيهـما لقـائي العفـوي بزوجتـي بختـة بلحسـن عـلى طريـق الصدفـة، حيـث قادتنـي الأقـدار أن أعقـد قـراني عليهـا لاحقـا، بعـد أن قصـدت برفقـة رفيقـي في النضـال عبـد المجيـد بـن منصـور منـزل والدهـا أحميـدة بلحسـن. وقـد جمعـت بـين عبـد المجيـد وأحميـدة صداقـة صلبـة لهـا جـذور تمتـد لزمـن طويـل، حيـث كانـت عائلتاهـما تسـكنان تحـت سـقف واحـد قرابـة الثمانـين عاما في منـاخ مـن الـود والمحبـة وحسـن الجـيرة، قبـل أن يغـادر والـد عبـد المجيـد مـن مَغْنِيَّـة إلى الإقامـة والاسـتقرار النهـائي بمدينـة تلمسـان بعـد وفـاة الجـد.

بـدأت بختـة دراسـتها في مدينـة تلمسـان ولم تكملهـا بسـبب تعقـد الأوضـاع وتفاقـم عمليـات الانتقـام التـي كان يشـنها الجنـود الفرنسـيون ورجـال الشرطـة وبعـض المعمريـن العنصريـين آنـذاك، لذلـك كان عليهـا في تلـك الفـترة لـزام منـزل والدهـا، خصوصـا وأن رفيقـات طفولتهـا لم يدخلـن المدرسـة قـط، بسـبب العـادات والتقاليـد والطبـاع التـي كانـت سـائدة وقتـذاك، حيـث انتشـار الجهـل في أوسـاط النـاس ونقـص الوعـي الناتـج عـن غلـق المـدارس وحمـلات التجهيـل التـي قادهـا المسـتعمر بـضراوة.

وقـد عاشـت بختـة في تلـك الفـترة ظروفـا صعبـة وقاسـية، بقـت راسـخة في ذاكرتهـا، لدرجـة أنهـا لم تتوقـف عـن روايـة تفاصيلهـا بعـد الاسـتقلال بمناسـبة أو بـدون مناسـبة!

كانـت بختـة تتمتـع بشـخصية قويـة وذات روح خفيفـة لا تغـادر شـفتيها الصغيرتـين ابتسـامتهما المشرقـة وطبعهـا يغلـب عليـه المـزاح والفكاهـة، كـما كانـت تتسـم بقلـب كبـير وحنـون يسـع الجميـع، فقـد كـبرت وترعرعـت وسـط عائلـة عـدد أفرادهـا كبـير، حيـث يسـود منـاخ من الألفـة والإيثـار والتشـارك والمقاسـمة للتغلـب عـلى الظـروف القاسـية.

ولمـا انتقلـت بختـة إلى مدينـة وهـران للإقامـة عنـد خالتهـا مباركـة الأرملـة، انبهـرت بجـمال وهـران، كـما روت لي؛ فقـد خلبهـا منظـر كنيسـة سـانتا كـروز، واندهشـت وهـي تـرى معـمار المدينـة الأوروبيـة، كـما فتنهـا الطـراز الإسـباني في المعـمار، ولم تكـن تتوقـع ذلـك الأثـر الكبـير عـلى نفسـها وهـي تـرى القلعـة القابعـة

في موقع استراتيجي، كما بقت ألفة منظر البحر في شاطئ بوي فيل غير البعيد عن شاطئ عين الترك وصورة قناديل البحر المختلفة الألوان؛ الوردية والبنفسجية، وغيرها، تثير فيها بهجة غير عادية. كما سحرها الميناء الغاص بالسفن والمراكب الراسية وبقت أجواؤه مطبوعة في ذاكرتها، ودوما ما حدثتني عن مسار الترامواي، وأسماء كل محطاته التي كانت تحفظها عن ظهر قلب.

أما بخصوص خالتها فقد حكت لي عن طبعها الحاد، وصرامتها، وطريقة لباسها التي تشبه المعمرات الأوربيات، فقد كانت لها علاقات صداقة مع بعض العائلات الأوروبية البورجوازية ومن الطبقة الوسطى كذالك.

ساهمت صديقة خالتها السيدة شانتال وهي مديرة مدرسة عمومية فرنسية في إدماجها بمدرستها، الأمر كان صعبا في البداية على بختة، لأنها لم تندمج مع زملائها في الدراسة ومع البرنامج الدراسي الموضوع، كما روت لي؛ الأمر الذي انعكس في النتائج الهزيلة التي حصلتها في بداية الموسم، لكنها سرعان ما استدركت واندمجت تماما بفضل إصرارها ومواظبتها واجتهادها، كما كان دعم السيدة شنتال مهما جدا في اجتيازها تلك العقبات؛ إذ كانت في حقيقة الأمر سيدة محترمة في غاية اللطف معها وفي أتم الاستعداد لمد يد العون لها في أي وقت وتحت أي ظرف كان أو أي طارئ.

وبعد أن حصلت بختة على الشهادة الابتدائية، التحقت

بالمتوسطة حيث تعرفت إذ ذاك على بعض الفتيات، زميلاتها في المرحلة المتوسطة، هن في الأصل مناضلات في منظمة اتحاد النساء التابعة لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري المعتدل، الذي أسسه المناضل فرحات عباس في عام ١٩٤٦ ميلادي.

على الرغم من أن رغبتها الدفينة آنذاك كانت الانخراط في صفوف حزب الشعب الجزائري المطالب باستقلال الجزائر. وبعد سنة ١٩٥٣ حيث انفجرت حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى نصفين؛ نصف يقوده المصاليون والنصف الآخر تحت سيطرة المركزيين، وبالضبط بعد مضي سنة من ذلك التاريخ الفاصل قررت بختة الالتحاق بالعمل المسلح تحت قيادة جبهة التحرير الوطني، فقد أخبرتني أنها تعلمت حمل السلاح وكيفية استعماله، وبسبب منظرها القريب من الأوروبيات، تم تكليفها بتنفيذ العديد من العمليات داخل المدن والأحياء، فكانت ترتدي التنورة أو الفستان في أغلب المهمات المسندة لها، إذ تسمح لها الملابس الأوروبية ومظهرها بمراوغة الجنود والعساكر الفرنسيين في الحواجز المنصوبة، ما يتيح لها التنقل بيسر في كل الأمكنة.

كانت تمرر الأفراد، والوثائق، والأموال، وقطع الأسلحة، والأدوية؛ كالبنسلين والمضادات الحيوية إلى المجاهدين، لفك الخناق على التضييق المضروب على تموين جبهة وجيش التحرير الوطنيين، إذ أن السلطات الفرنسية باشرت مذ الأيام

الأولى لاحتـدام الكفـاح المسـلح مراقبـة مجموعـة مهمـة مـن الأدويـة، وعـلى رأسـها أدويـة عـلاج التهابـات الجـراح، والكحـول، والحقـن المضـادة للكُـزَازْ وأدوات العمليـات الجراحيـة؛ فبفضلهـا تـم توفـير الكثـير مـن الأدويـة الضروريـة التـي اسـتعملت في إجـراء العديـد مـن العمليـات الجراحيـة المسـتعجلة، ولمعالجـة جرحـى الحـرب كذلـك.

ثـم بوسـاطة مـن خالتهـا مباركـة عملـت كمسـاعدة طبيبـة فرنسـية في عيـادة تقـع مقابـل مبنـى الـدرك الموجـود خلـف الكاتدرائيـة وغـير البعيـد عـن ثانويـة البنـات. مكنتهـا تلـك التجربـة، التـي لم تسـتمر فـترة طويلـة، مـن إتقـان كيفيـة التدخـل الطبـي الاسـتعجالي؛ كوضـع الكـمادات، واسـتعمال الإبـر الطبيـة، ومختلـف الأدويـة الضروريـة في مـداواة الجـراح، إذ سـاهمت في حقـن المئـات بحقـن المصـل الواقـي مـن الكـزاز، حتـى ولـو كانـت جروحهـم طفيفـة، خوفـا مـن التيتانـوس الـذي أهلـك المئـات مـن الجرحـى، كـما كانـت تضمـد الجـروح في الكثـير مـن الأحيـان بواسـطة المـاء الدافـئ لغيـاب الكحـول، وقـد اضطـرت في العديـد مـن المـرات إلى القيـام بعمليـات البـتر دون تخديـر.

كـما قصـت عـليّ كذلـك قصـص بعـض المجاهديـن الذيـن اختـاروا اللجـوء إلى بيوتهـم بعدمـا تعفنـت جروحهـم، واسـتنفدوا كل الطـرق والحيـل والتوسـلات للصيادلـة. ولمـا يئسـوا مـن انتظـار الـدواء، وفقـدوا جـلّ الأمـل في الحصـول عـلى العـلاج، كانـوا ينتظـرون المـوت المرعـب والفظيـع ويكابدونـه في صمـت.

والأهم من ذلك أنها أصبحت تتحصل على الأدوية بيسر من الصيدليات، التي كانت تشترط على أي جزائري يأتي لاقتناء الأدوية المصنفة ضمن الأدوية التي طُبِّقَ عليها قرار منع بيعها للجزائريين، تقديم معلومات وافية ومفصلة عن مقتني الدواء، وعن هوية المريض وحالته الصحية. وبعد وشاية بها، وهربا من الاعتقال الوشيك عادت مرة أخرى إلى بيت عائلتها بمدينة مَغْنِيَّة. في حين أُوقفَت الطبيبة الفرنسية بعد ثلاث سنوات كما أعلمتها خالتها مباركة، وعذبت تحت تهمتي تنظيم دروس سرية لأفواج من الممرضين والمساعدين الطبيين التابعين لجيش التحرير الوطني، وإيواء مسؤولين سياسيين وعسكريين من الثوار.

-١٢-

كان يومـا مشمسـا وفجـأة خيـم الظـلام في وضـح النهـار، واسـتحال ذاك النهـار الجميـل إلى نهـار شـاحب، تلـك العتمـة أثقلـت صـدري، كأن مكروهـا أصابنـي. لحظـة شـاهدت سـحاب ذاك اليـوم كتومـا، لا رعـد فيـه، أدركـت أنهـا علامـات تنـذر بالـشر القـادم أو أن هنـاك أخبـارا سـيئة تحـوم في الأفـق.

أول مـن رأيتـه يومهـا كان بوزيـد بـن جبـار، وهـو مـا رسـخ لدي بمـا لا يـدع مجـالا للشـك الانطبـاع السـلبي الـذي سـبق وابتـدأت بـه يومـي، فـكل المقدمـات إلى حـد اللحظـة توحـي بالعواقـب والنوائـب المنتظـرة. في الحقيقـة كنـت دومـا أشـمئز مـن رؤيتـه، فـما بالـك أن أُصَبِّـحَ عليـه. عـلى الرغـم مـن أنـه كان أول مـن عرفتـه أثنـاء صعـودي إلى الجبـل، لكـن أدركـت بعـد فـترة وجيـزة مـن الاحتـكاك بـه، أنـه مختلـف تمامـا عـن الآخريـن.

بِـتُّ لا أطيقـه إلى درجـة التنافـر، كنـا لا نجتمـع كـما المـاء والزيـت، ومـن فـرط مـا كنـت أبغضـه كان يبـدو لي بشـعا جـدا،

إلى درجة أني كنت أتخيله كحشرة عملاقة قذرة. فهو لا يؤتمن له جانب، يفعل أي شيء من أجل نزواته ومصالحه، لا دين ولا ملّة كما يقال.

لا أدري كيف صعد إلى الجبل وحمل البندقية في وجه الاستعمار الفرنسي. على غرار كل رفاق النضال الذين عرفتهم وتوطدت علاقتي بهم فيما بعد، تقاسمت معهم الشدة والفرج، أيام الفرح القليلة على وقع حرب وحشية وظالمة انتهك فيها الفرنسيون كل المواثيق والقوانين، وأيام القرح بلياليها الطويلة التي لا تكاد تنتهي، حتى تقضي على صبرنا وصمودنا وأملنا في النصر.

كان هو مختلفا عنهم، سلوكاته مناقضة لهم تماما. فقد كان بيننا كالكلب الأجرب، كان نذلا وقذرا وحقيرا إلى درجة لا يمكن وصفها. كما كان لا يتوقف عن إزعاجنا وإثارة مخاوفنا. لم يكن محل ثقة أي منا، لا أحد يستريح لوجوده، فلا يؤتمن عنده سر.

كما كان من فترة لأخرى يقوم بأفعال مشينة؛ إذ كان يترقب النسوة الريفيات اللواتي يصعدن إلى الجبل من أجل جمع الحطب، دوما ما تجده ينهض باكرا، يتوجه إلى منطقة كثيفة الأشجار بعيدة بعض الشيء عن مركز تجمعنا، وبعد أن يفرغ من ربط رزمة الحطب التي يكون قد اقتلعها، يخفيها عن الأعين. يختار موقعا يتربص فيه بالنسوة، لما يصلن ينتقي أجملهن، وتحت تهديد السلاح تذعن له مرغمة، يبعدها عن

سرب النسوة ويأمرهن بمواصلة طريقهن، يأخذها إلى مكان غير بعيد يكون قد خبره من قبل. وبعد نصف ساعة، أو ما ينوف عن ساعة زمن يصطحبها مجددا إلى موقع هؤلاء النسوة، ويتركها ترجع إلى بيتها وعلى ظهرها رزمة هائلة من الحطب مربوطة بإحكام. وفي نهاية الأمر اكتشفنا أن بوزيد بياع تاع فرنسا، فقد كان يشي بنا وبتحركاتنا ومخططاتنا التي تصله. ولو كان مصدر ثقة لحلت الكارثة، أقل الأضرار أنه لم يكن فوق كل شبهة، كان مبعث توجس وريبة من غالبية الإخوة في الكفاح.

ولما وقعت في قبضة فرقة الكولونيل شاربونيي سيئة الصيت، أدركت كم كان هذا الرجل رهيبا جدا ويتلذذ بمعاناة ضحاياه، كما كنت أسمع عنه من قبل. ولا أعتقد أن هناك أسلوبا في التعذيب أفظع من أسلوبه؛ فقد أيقظوني في اليوم الأول ليلا من النوم، بطريقة تدعو للفزع، جردوني من ثيابي مرغما على وقع الضرب المبرح، ثم نقلوني خائر القوى إلى غرفة موحشة في قبو بارد ورطب تفوح منه رائحة كريهة، لم تكن توجد فيها نوافذ ولا حتى مساحات يمكن أن يتسلل منها الضوء. بحثت عن بقعة أكثر جفافا كي أرتمي عليها، كان البلل الممزوج بالرائحة النتنة يثير تقززي وحساسيتي الى درجة لا توصف. يبدو أن الأرضية مبللة بالبول ومطلية ببقايا البراز.

كان الكولونيل شاربونيي جالسا على كرسي من حديد أسند ظهره بوسادة من الإسفنج، أمرهم أن يوثقوني في لوحة

مستطيلة كانت أشبه بالباب في وضع أفقي. فجأة وقف الكولونيل وتقدم مني بخطوات، نظر في عيني باستعلاء، ثم انخرط في الضحك باستهزاء كالمجنون. أشار بغمزة خاطفة من عينه الزرقاء التي تتقد شررا وشرا إلى الجندي الشاب الذي يقف قريبا من جنبي الأيمن، دون مقدمات توجه هذا الأخير صوبي، انحنى قليلا لالتقاط خيط المولد الكهربائي، كنت ارتجف من البرد والخوف، لكن حاولت جاهدا أن أضغط على نفسي، كي لا أضعف.

أردت أن أظهر أمامهم متماسكا وعصيا على الترويض. لم يأبه الجندي لي، وبطريقة آلية وضع الخيط الأول على أذني والآخر فوق عضوي التناسلي، يبدو انه اعتاد على الأمر من كثرة تكراره. انتبهت للكولونيل وقد أشار بحركة من يديه للجندي الثاني الذي يقف بمحاذاة الطاولة التي وضع عليها المولد، دون أن يمهلني لحظة واحدة لاستدراك وفهم الأمر، شغل الجهاز الكهربائي.

بدأ جسدي يهتز بشكل رهيب من شدة الألم. كدت أن أفشي لهم بكل المعلومات أثناء الاستنطاق، لو لم يأت جندي في طلب الكولونيل شاربونيي للرد عن اتصال مستعجل من القيادة العليا. فجأة توقف التعذيب بالكهرباء. فقد أرغموني على ابتلاع أكثر من خمسة عشر لترا من الماء، كان أحدهم يضغط بشدة على تاج فمي، والآخر يسكب الماء في أداة وضعوها في فمي وأنفي. شعرت بالاختناق ورئتاي كأنهما

انسـدتا ومعـدتي تـكاد تنفجـر.

كنـت طيلـة سـاعات رهـن التعذيـب والاسـتنطاق بـلا أدنى رحمـة. وفي مـرات أخـر، كنـت أبقـى لفـترة طويلـة معلقـا بالمقلـوب، رجـلي في الأعـلى ورأسي في الأسـفل، كانـوا يقيدوننـي مـن رجـلي ويـداي موثقتـان خلـف ظهـري، ورأسي في الأسـفل مغمـوس في سـطل المـاء إلى حـد الاختنـاق، ومـن ثقـل جسـدي وأنـا عـلى هـذا الوضـع كانـت مفاصـلي تـكاد تتمـزق. وفي بعـض الأحيـان كانـوا يسـتمتعون بإدخـال رأسي في فوهـة المرحـاض إلى أن يختنـق صـوتي مـن الـصراخ، فيسـحبونني، ويرجعـوني إلى الغرفـة متهالـكا كالغريـق.

كـما كنـت أسـمع بـين الحـين والآخـر أصـوات أطفـال ونسـاء تـئن تحـت هـول التعذيـب، كان أنـين تلـك الأصـوات أشـبه بالعواء! في التعذيـب لا فـرق بـين كبـير أو صغـير، أو بـين رجـل وامـرأة، أو بالـغ أو طفـل! كل مـن صادفتهـم داخـل مركـز التعذيـب كانـت وجوههـم مشـوهة، وأعينهـم زرقـاء ومنتفخـة، وأنوفهـم مهشـمة، ورقابهـم منتفخـة وعليهـا أثـار التعذيـب، وهنـاك منهـم مـن فـارق الحيـاة مـن شـدة التعذيـب وقسـوته.

التعذيـب كان يمـارس يوميـا لمحاولـة إرغامنـا عـلى الـكلام. كنـت كل ليلـة أسـترجع بعضـا مـن تلـك المشـاهد الصادمـة في مركـز التعذيـب، وتتـالى أمـام عينـي صـور القصـص التـي رواهـا لي المعتقلـون؛ منـذ بضعـة أيـام مـن اعتقـالي، شـاهدت مجموعـة مـن الجنـود الفرنسـيين ينهالـون بالـضرب المـبرح عـلى ثلاثـة معتقلـين

مقيديـن لا حيلـة لهـم أمـام مـا كانـوا يتعرضـون لـه مـن تنكيـل وتعذيـب، ثـم رمـوا عليهـم ثلاثـة كلاب جائعـة نهشـت لحمهـم، ولم يتـم إيقافهـم للحظـة إلى أن لفـظ أحـد المعتقلـين أنفاسـه متأثرا بنزيـف حـاد، بينـما كان الجنـود يقهقهـون ويتضاحكـون، إلى أن أمرهـم قائدهـم بحمـل جثـة الضحيـة ونقـل المعتقلـين الآخرين إلى عيـادة المركـز وهـما في حالـة مزريـة بـين الحيـاة والمـوت.

كان مشـهدا مفزعـا، وكانـت صـورة ذلـك المعتقـل وهـو غـارق في دمائــه ووجهــه مشــوه وجســده منهــوش تدعــو إلى الأسى، وكنـت أُصـاب بالهلـع وأغـرق في حالـة مـن الكآبـة والحـزن كلـما اسـتحضرت تلـك الحادثـة.

كـما رأيتهـم بُعَيْـدَ تلـك الحادثـة يخرجـون جثـة طفلـة لا يتجـاوز عمرهـا السـابعة عـشرة سـنة، دون أن يظهـر عليهـم أيّ تأثّـر، عـلى العكـس كان التعذيـب والقتـل بالنسـبة لهـم مصـدر متعـة وشـغف. سـمعت لاحقـا مـن أحـد المعتقلـين في المركـز أنهـم كانـوا يتداولـون عـلى اغتصابهـا وإذلالهـا، وقـد رَوَّجُـوا فيـما بعـد إلى أنهـا انتحـرت.

عمليـات الاغتصـاب كانـت تحـدث يوميـا بالموازاة مـع المعاملات الوحشـية أثنـاء التحقيـق والاسـتنطاق، فلـم يسـلم منهـا لا الأطفـال ولا النسـاء الحوامـل! وخـلال الأيـام الأخـيرة لي في المعتقـل وقفـت عـلى الكثـير مـن الجرائـم البشـعة التـي ارتكبهـا الجنود الفرنسـيون بوتـيرة متصاعـدة أمـام مـرأى الجميـع دون أدنى وازع، كأنهـم في سـباق مـع الزمـن عـلى ارتـكاب أكـبر قـدر ممكـن منهـا! وكأنهـم

فـوق كل مسـاءلة أو محاسـبة بلـه محاكمـة.

كان مـا وقفـت عليـه يفـوق كل تصـور أو توقـع، مـا كان يمكـن لأحـد أن يتصـور أن لهـؤلاء الجنـود تلـك القـدرة الرهيبـة عـلى الاجـرام والوحشـية؛ فكنـت أرى الجنـود المهتاجـين وهـم ينهالـون بالهـراوات أو بمؤخـرات بنادقهـم ضربـا عـلى رؤوس المعتقلـين الجزائريـين، لتتحـول الضربـات فيـما بعـد ودون أدنى تـردد إلى الوجـه والظهـر والركبـة، ثـم إلى الجمجمـة وإلى جهـة الأعضـاء التناسـلية.

هـذا فضـلا عـن عـدم الـتردد في اسـتخدام خراطيـم الميـاه والكهربـاء وكل الوسـائل الفظيعـة الأخـرى، للتسريـع في عمليـات اسـتنطاق الشـهود، لكـن عـلى وجـه العمـوم كانـت أهـم الوسـائل والتجهيـزات الأساسـية المتاحـة دومـا تكمـن في المولـد الكهربـائي، وتوفـر المـاء، والهـراوات الصلبـة، أمـا الوسـائل الأخـرى فيتـم توفيرهـا حسـب الـضرورة التـي تسـتدعيها، كإيـلاج أدوات صلبـة في دبـر المتهـم، وكي الأرجـل والأعضـاء بـأدوات التلحيـم، ووضـع قطعـة قطـن مغموسـة في الكحـول عـلى الأعضـاء التناسـلية ومـن ثـم إشـعالها بولاعـة السـجائر أو حرقهـا بالسـجائر مبـاشرة، والضغـط عـلى أصابـع الرجـل أو اليـد بفـكي كماشـة.

كـما كانـت تغمـد أرجـل المسـاجين والمعتقلـين في إنـاء مملـوء بالاسـمنت غـير الجـاف، وتـترك إلى أن تجـف إلى حـد المـوت، ثـم يتـم رميهـم في الأوديـة أو يلقـى بهـم مـن المروحيـات إلى البحـر! فكنـت أرى أجسـاد الشـباب والشـيوخ خائـرة ومنهـارة، والدمـاء

متدفقة من أفواههم على حد سواء دون أدنى تمييز أو رحمة، حتى بأولئك الذين ما زالت آثار التعذيب السابق لم تشف بعد، يعاد إخضاعهم للتعذيب مرة أخرى، فلم تشفع لهم أجسادهم المليئة بالجروح المخاطة وحروق السجائر والضمادات البادية للعيان من تأجيل ممارسات التعذيب المشينة.

كدت أصاب بالجنون من هول ما شاهدت وعشت، غالبا ما كنت أردد في قرارة نفسي كلما عاودتني مشاهد التعذيب والإعدامات بدون محاكمة وصور عمليات الاستنطاق والحجز المطول: يا ليتني أستطيع أن أعيش بدون ذاكرة.. يا ليتني أستطيع أن أعيش بدون فظاعة ورعب.

عشت الأهوال في ذلك المركز إلى أن تصادف فراري من جحيم المعتقل مع احتفالات الجنود بتوديع عام مضى واستقبال عام آخر جديد؛ فقد استغللت انشغال الحراس والجنود بالرقص والعربدة، حيث كانت صناديق البيرة تملأ المكان. ومن ذلك التاريخ أضحى طيف تلك الحادثة يظهر في الذاكرة مع دخول كل رأس سنة جديدة. كنت أجري من غير هدف، ما كان يهمني آنذاك هو الابتعاد عن تلك الثكنة الملعونة التي تحولت إلى أكبر كابوس عشته في حياتي. وبعد أن خرجت إلى الطريق الرئيسي المحاذي لحدود البنايات لمحت حافلة نقل متوقفة، هرعت إليها، لما دخلت انغلق الباب وتحركت الحافلة تنهب الأرض نهبا.

مرت الحافلة في طريقها بالعديد من القرى، ولما عرف

السائق هويتي بعد أن حكيت له كل ما حدث معي، امتقع وجهه واصفر من شدة الخوف من تبعات ذلك عليه، خصوصا وأنه ساعد خارج عن القانون على الفرار.

لا شك أن بوزيد بن جبار هو من وشى بنا، لأنه انفلت من قبضة جنود فرقة الكولونيل شاربونيي بأعجوبة تثير الكثير من الشكوك! ما شفى غليلي منه، هو بعد سنوات ليست بالطويلة من نيل الجزائر استقلالها، وُجد بوزيد غارقا في دمائه في مقهى شعبي، ما سمعته لاحقا أن شابا قرويا غرس خنجرا في صدره انتقاما لأخته التي اغتصبها إبان فترة الثورة. على كل حال نال هذا القذر جزاءه على كل ما اقترفته يداه وان كان متأخرا، وتخلص المجتمع الوليد من بذرة فاسدة.

-١٣-

تلمسان مدينة جميلة وتشبه مدن المغرب إلى حد كبير، حتى اعتقدت من فرط ذلك أنها تكاد تكون متطابقة معها. لما وضعت ركائبي فيها أول مرة اندهشت من مبانيها العظيمة، ومساجدها العريقة وصوامعها الكبرى، وعمرانها الأندلسي، كما تملكني إحساس لا يمكن وصفه وأنا أرى هضبة لَالَّة سَتِّي فوق تلمسان، وكأنها تحرس المدينة من علٍ ولا تغفل لحظة واحدة عن حمايتها وترقب أي حركة فيها.

أحببت فيها كل شيء؛ شوارعها التي تذكرني بعبق تطوان وفاس، ولهجة ناسها الظرفاء، وطريقة حديثهم بوداعة ولباقتهم التي تشي بأصولهم الشريفة، وطبيعتها الساحرة والعيون المحاطة بها ولياليها المقمرة. والزيِّ التقليدي للناس في الشوارع الذي لم يتأثر بالثياب الأوروبية المنتشرة حينذاك، وانتشار الفن والموسيقى والغناء كما الطرز والنسيج والحرف من نحت ونجارة وصناعة الأحذية وصباغة الجلود.

غالبا ما كنت أنتبه في حر الظهيرة القائظ لذات الشيخ وهو يقود عربة كبيرة يجرها حصان، يمر دوماً من الطريق ذاتها،

ومجتازا البيوت نفسها ليبيع بضاعته لمختلف العائلات القاطنة بها، وكلما مررت بالقرب من بيوت بعض العائلات التي تقيم في المدينة، إلا وكنت أستغرب كيف أنها كانت تحتفظ في أماكن أضافتها لبيوتها واستحدثتها بشكل عشوائي ببعض الحيوانات من الخراف أو الماعز أو الأبقار أو البغال أو الأحصنة!

كما لاحظت أن هناك مدارس وأماكن للعبادة ومقابر خاصة بالفرنسيين والإسبانيين واليهود وغيرهم من الأجناس ومختلف الطوائف الأخرى.

أحببت شارع الجياد حيث كانت تقيم عائلة أخي ورفيقي في الكفاح عبد المجيد بن منصور، وكلما كان عبد المجيد يأخذني إلى ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، أو إلى سيدي بومدين، أو كلما قصدنا مسجد سيدي الحلوي أو سيدي الداودي، أو درب اليهود في وسط تلمسان؛ حيث استغربت وجود ذلك الكنيس المحاط بأسوار عالية في حيّ قبَّاسة، والمقبرة اليهودية وبجوارها عين ماء، أخبرني عبد المجيد أن اليهود يعتبرون ماءها مقدسا، ويحجون إلى ضريح الحاخام الكبير، ووفق أساطيرهم إنه رأى في المنام أنه دخل مدينة تلمسان ممتطيا أسدا ومستخدما الثعبان لجاما.

وقد حدثني عبد المجيد مطولا عن ضريح الحاخام والطبيب اليهودي إفراييم آلان بن كاوا، القادم من إسبانيا هاربا من مجازر محاكم التفتيش، حيث كان أهل تلمسان يكرمون وفادة حجاجه من يهود العالم، ويحافظون على مزاراتهم. وقد روى

لي عبد المجيد كذلك أن ابنة حاكم تلمسان السلطان لكحل أحمد المنصور أو يوسف بن تاشفين، كانت مصابة بمرض خطير استعصى على أطباء ذلك الزمان، وبعد أن شفيت نظير تمكن الحاخام أفراييم من علاجها، كافأه السلطان بمنحه حياً ليسكن فيه وبناء كنيس يهودي، مع الجالية اليهودية التي كانت متشردة قرب قصره. وهذا الحيّ هو الذي صار اسمه «درب اليهود» فيما بعد.

كل ذلك كان يذكرني بصديقي مومو حَيُّون، حين كنت أصحبه في زياراته لأضرحة الحاخامات في تطوان. وقد سبق وقصدت بمفردي زاوية سيدي الحاج الهبري، بعد أن سمعت عن كرامات هذا الرجل الصالح وبركاته الربانية التي لا تعد ولا تحصى. فمع عبد المجيد كنا نتسلق الربوة التي تفضي بنا إلى القبة البيضاء لِضريح لَالَّة سَتِّي، وقد كنا نجلب معنا الشاي بالنعناع والحلويات المغموسة في العسل، دوما ما نجد جمعا من الناس ملتفين حول الضريح وأغلبهم نسوة، للذكر ولطلب العافية والصحة والدعاء وإقامة النذور للأولاد والأزواج أو لبعض أفراد العائلة.

المنظر من القمة مدهش ولم أر له نظيرا من قبل، حيث كنت أستمتع بالبقاء في تلك الهضبة المباركة إلى غاية غروب الشمس، إذ كنا نغادرها أنا وعبد المجيد وجل الزوار. وفي طريق عودتنا كنا نستمتع بأغاني وأهازيج النسوة وزغرداتهن، وكنا نعود من رحلتنا تلك التي هي أشبه بالحج بشحنة كبيرة

تملؤنا حتى تفيض منها أرواحنا بهجة، وكنا نشعر بنور يضيء دواخلنا وينفذ إلى أعماقنا المظلمة.

كنت أرجع إلى بختة في بيتنا الصغير الذي ساعدني عبد المجيد في الحصول عليه، وكلي فرح وحبور، كان هذا الرفيق هبة من السماء عوضتني عن جل خساراتي السابقة. إلى أن حلَّ ذاك اليوم الأسود؛ لما طرق باب بيتي عبد العزيز زوج أخت بختة الصغرى، ليس من عاداته زيارتي، استغربت موعد زيارته خصوصا مع علمه بغياب بختة! كنت قد أخذتها قبل أسبوع إلى بيت والدها في مَغْنِيَّة، استجابة لرغبتها في الولادة هناك، لما جاءتها الأوجاع وشعرت أن موعد ولادتها قد اقترب.

منذ سنوات لم يرزقنا الله بالأبناء، تأخرت بختة كثيرا في الإنجاب، ثم كل الأطفال الذين حبلت بهم فيما بعد سقطوا من رحمها قبل اكتمالهم كقطعة لحم.

حالما فتحت له الباب الحديدي الخارجي، اقترب مني، انتبهت للعرق المتصبب من وجهه، لم يكن يومها الجو حارا، ولحظة سلم علي أحسست بعرقه البارد. ثم لفت نظري اصفرار وجهه كأنه فرغ من الدم، ولما لمحت مسحة الحزن التي اعترته وهو يتلكأ في الكلام، دب الرعب في داخلي، وشعرت بحدوث فاجعة ما.

لم يقو على التكلم، في البداية تلكأ، ثم خانته اللغة كأنه أبكم، وبعد تعسره ذاك اعتصر وحاول التنفس بملء صدره، في

الأخير نطق كلمتين، لا غير، كلمتين هزتا كياني، وكانتا بمثابة زلزال عظيم هدَّم كل ما بنيته، وعصف بكل الأحلام والآمال التي عشت لأجلها، أرجعني إلى نقطة ما قبل الصفر، إلى الدرك الأسفل. كأنه بالكلمتين اللتين قذفني بهما دون سابق إنذار، قد هوى على رأسي بمطرقة حديدية على حين غرة، كان يمسك على مقبضها بكلتا يديه.

لم أتفوه بكلمة واحدة، عدا أني نظرت إليه مرعوبا وحدقت عيناي جاحظتين كأنهما ستخرجان من محجريهما.

بعدئذ دخلت مسرعا إلى غرفتي لتغيير الملابس التي كنت أرتديها، لبست بأقصى سرعة ممكنة، ثم رافقته.

لما كان عبد العزيز يسرد عليّ تفاصيل كل ما جرى، أحسست على غير العادة أن الطريق من تلمسان إلى مغنية لا تكاد تنتهي! على الرغم من أنها لم تكن مزدحمة.

لما وصلنا، وحالما بدأنا نقترب بخطواتنا من البيت، صادفنا جمع كبير من سكان الحي جلّهم رجال كانوا يستندون بظهورهم إلى جدار البيت وجدران البيوت اللصيقة به، في حين تجاوزنا بعض الشيوخ، منهم من هم جالسون على كراسٍ خشبية وآخرون منبسطون على درجات البيت.

جميع من مررنا بهم كانت وجوههم كالحة وشاحبة، وملامحهم جامدة، ويبدو عليهم التأثر البالغ. حتى الأطفال الصغار الذين كان يمتلئ بهم الحيّ دائما، ولا تهدأ جلبتهم، ولا

يتوقف صراخهم، لا أثر لهم قطّ، كأن الأرض انفتحت وابتلعتهم، وابتلعت معهم كلّ أشيائهم، وألعابهم، ولعبهم التي يتفننون في صناعتها بالأسلاك أو بالعلب المعدنية أو بالقارورات البلاستكية؛ إذ توارت العربات المصنوعة من علب الطماطم والهريسة والمصبرات الأخرى، كما لم يعد وجود للمراوح الهوائية المصنعة من قارورات الجافيل والغريزيل الأسود، ولم نعد نرى الدرجات النارية المصنوعة من أغلفة قارورات الليمونادة، وغيرها من المصنوعات الأخرى التي توارت عن الأنظار على غير العادة، ولم يعد العثور عليها ممكنا.

لم أكلم الخلق الذين مررت بهم، فلم أنطق بكلمة واحدة للتحية أو آتِ بحركة تسليم قطّ، حتى من سبق وكانت بيننا معرفة لما أقمت بالقرب من هذا الحي في ما مضى، عدا أني كنت أنظر إليهم بطرف بصري، فما كان يهمني لحظتها وأتحرق إليه هو أن أحث الخطى صوب البيت كأنني كنت أمشي على الجمر.

كان الصمت في الخارج ثقيلا جدا، لم أعهده من قبل، صمت مختلف ابتلع كل صخب الأطفال وبكاءهم وصراخهم وعراكهم وجلبتهم، حتى مواء القطط المذعورة من شيطنة الصغار توقف؛ صمت اِلتَهَمَ كذلك الضجيج الحاد المنبعث من ورشتي النجارة والحدادة اللتين لا تفصل بين موقعيهما سوى أمتار محدودة في الطرف الآخر من الحي. حتى بعض من هؤلاء أو أولئك من أخذوا يتكلمون، كانت كلماتهم مكتومة لا

يسمع منها حرف واحد، لا ترى إلا شفاههم وهي تتحرك دون أصوات تخرج من حناجرهم، بدو لي كأنهم يتهامسون.

وأخذنا نقترب شيئا فشيئا من باب البيت، وحالما فتح لنا عمي أحميدة الباب، نظر الشيخ في عيني الجامدتين بأسى كبير، ثم احتضنني باكيا، أحسست بزفراته وشهقاته المكتومة، أما أنا فكنت ثابتا كشجرة صنوبر أو كهرم شامخ، لم أبك، ولم تدمع عيناي كأنني قطعة جليد أخرجت للتو من ثلاجة تجميد!

رافقتني أخت بختة الصغرى وعمتها زعرة إلى الغرفة الملاصقة للحمام وعيناهما حمراوان ورأسهما مطرقان وآثار الدموع ما زالت بادية على وجنتيهما.

عندما دلفت باب الغرفة لم أستطع أن أُمَيِّز وسط عتمة ذاتي المتشظية وضباب روحي المنكسرة جُلّ الوجوه لـمّا التفَتَتْ نحوي. وسرت كأعمى حقيقي صوب ذاك الجسد الهامد، وأنا أطأ الزليج كي أصل إليها، كنت كمن يعبر حقل ألغام، لأني كنت مدركا إني ماض نحو حتفي. وبينما كنت كذلك شعرت أن كل شيء من حولي يتهاوى، وأن أحلامي تبعثرت، ومسراتي عابرة لا محال، وكل أفراحي الصغيرة استحالت إلى سراب.

اقتربت من جسد زوجتي بختة الممدود في وسط الغرفة، كان وجهها أبيضَ وعيناها مغمضتين، بدت لي كأنها نائمة، مطمئنة، وراضية. طلبت بأدب جم وصوت خفيض متحشرج

ممـن كانـوا محيطـين بجسـدها المسـتريح أن يتركونـا لوحدنـا، مـن حقـي أن أبقـى معهـا بمفـردي، أردت أن أودعهـا عـلى طريقتـي؛ لمـا انفـض الجمـع وخلـت الغرفـة رفعتهـا قليـلا، احتضنتهـا، ثـم قبلتهـا عـلى جبهتهـا، استسـلمت لنوبـة بـكاء طويـل اجتاحتنـي دون أن يكـون بوسـعي كبحهـا، بللـت دموعـي المنهمـرة كنهـر مـن مقلتـي وجههـا ورقبتهـا.

لم تأبـه لدموعـي تلـك، كانـت نائمـة كمـلاك، أو غائبـة عـن الوعـي. لم أحـاول إيقاظهـا، بقيـت متسـمرا في مـكاني، جاثيـا عـلى ركبتـي عـلى زليـج أرضيـة الغرفـة، كنـت منهـكا ويائسـا، يهـدني الألم وينخـرني الوجـع، بقـي وجهـي مصوبـا إلى جسـدها الممـدد، وعينـاي لم تفارقـا مُحَيَّاهـا؛ بـدت لي جفونهـا، ورموشـها، وحاجباهـا مجـرد أشـياء جامـدة خاليـة مـن التعبـير والدلالـة، ولـمّا كنـت أنظـر في ثقبتـي أذنيهـا حيـث كانـت تتـدلى أقراطهـا، حلقتـان عـلى شـكل سـنبلة في كل منهـما مجموعـة جواهـر، حدقـت في رقبتهـا التـي كانـت تطوقهـا قلادتهـا الذهبيـة التـي أهدتهـا لهـا خالتهـا مباركـة. حَوَّلـت بـصري إلى يدهـا اليـسرى، تلمسـت أصابعهـا وبالـذات الإصبـع الـذي كانـت تضـع فيـه خاتـم زواجنـا.

عـاودت احتضانهـا، كانـت جامـدة كدميـة، شـددت عليهـا أكـثر، كانـت يـداي مشـبوكتين خلـف ظهرهـا، وأنـا أتفحـص ملامـح وجههـا علهـا تسـتيقظ مـن غفوتهـا، أو تسـتفيق.

لمـا يئسـت، أرجعتهـا إلى الفـراش، كان جسـدها ممـددا، لم تشـعر بوجـودي، ولم تتحـرك قيـد أنملـة.

كنت أبتعد بخطواتي عنها وعيني مصوبتين في جسدها المسجى، كانت خيوط النور المتسربة عبر نصف النافذة المفتوح بفعل تقاطع أشعة الشمس مع أوراق دالية العنب الوارفة قد شكلت هالات نورانية مشرقة على مُحَيَّاها. حتى تملكتني حالة غريبة واعترتني قشعريرة سرت في جسدي كله كالكهرباء، وكانت أنفاسي منقبضة تتقاطع مع ارتجافي ودموعي الغزيرة التي لم تتوقف عن الانهمار كمطر شتوي في ليلة طويلة.

انتابتني لحظتها رغبة غريبة في أن أشعل سيجارة لنفسي بهدوء كبير، وأنفخ باستمتاع واشتهاء منقطع النظير سحب متتالية من الدخان تخرج من رئتي، وتخرج برفقتها كل الأوجاع والآلام التي تثقل صدري. لم أستطع أن أتخيل أن يأتي يوم وأجدني أمام هذا الخطب، كنت أتخيلها دائما تنضح بالحياة قبل هذه اللحظة، تبا لهذه الدنيا الكلبة التي أخذتها مني، ليتني كنت أستطيع ركلها من قفاها، من عجيزتها القذرة الهرمة، من إليتيها المتهدلتين. ليتني أستطيع أن أصفعها على وجهها القبيح حتى تنخلع أسنانها السوداء من شدة الصفعة. وتحرّكت إلى الخلف وكأنني على وشك القيام بفعل الركل أو الصفع، وكأن ذلك كان حقيقيا.

كنت كمجنون لأنني استسلمت لحظتها لهلاوسي، وصدقت خيالاتي لدرجة اليقين! كنت واثقا من أن جل ما تخيلته حقيقيا، كنت مستعدا لأن أقسم. كما رجل فقد عقله، وظلّ جاثما في مفترق طرق، بين طريق حقيقية وطريق رسمها في

ذهنـه، نسـجتها أوهامـه، طريـق لا توجـد إلا في مخيلتـه. كنـت في قـرارة نفـسي ناقـما بشـدة عـلى هـذه الدنيـا الكلبـة التـي لم يجـرؤ أحـد مـن قبـل أبـدا عـلى محاولـة ركلهـا بـرأس حذائـه، أو صفعهـا بكـف يـده اليمنـى بـكل مـا أوتي مـن جهـد أو مـا أدخـره مـن قـوة لمثـل هـذا الظـرف. تبـا لهـا، كنـت أراهـا ترقبنـي بطـرف بصرهـا وهـي مبتسـمة وتطلـق ضحـكات اسـتهزاء شـامتة بمصـابي.

لا أدرى مـا حـدث لي، عـلى الأغلـب فعلـت بي مـا أرادت، ذلـك لأن جـلّ قـدراتي مجتمعة لا تسـاوي شـيئا أمـام سـطوتها وجبروتها، غـير أني لم أنحـن لهـا، ولم أخفـض رأسي مذلـة واستسـلاما. لم أكـن أشـبه تلـك السـلحفاة الضعيفـة التـي تخفـي كامـل أعضائهـا داخـل قوقعتهـا الخشـبية الصلبـة أول مـا تواجـه خطـرا محدقـا، أو خصـما ذا سـطوة وجـبروت لا قبـل لهـا بهـما. ربمـا أننـي كنـت أعتقـد أننـي خـسرت كل شيء، وليـس لـدي المزيـد كي أخـسره. وصـار مـا في داخـلي يمنحنـي قـدرة رهيبـة عـلى مواجهـة ومقاومـة أي كان دون أن أبـالي، ولم أعـد في حقيقـة الأمـر أشـعر بـذات الخـوف الـذي كان ينتابنـي في السـنين المنصرمـة مـن تصاريـف الدهـر، ولم أعـد أهتـم بمـا سـيكون أو لا يكـون في غـد يكـون أو مـا يكـون. فبالأمـس كان يثـير خـوفي مجـرد التفكـير في ذلـك الأمـر، وكنـت أصـاب بذعـر شـديد كلـما جالـت في رأسي تلـك الأفـكار.

حينـما هممـت بمغـادرة الغرفـة لم أعـرف كـم مـرّ مـن الوقـت وأنـا هنـا أمـام جسـدها، عـدا أني كنـت موقنـا أن كلّ شيء سـيتغير منـذ اللحظـة التـي سـأخرج فيهـا مـن بـاب هـذه الغرفة. عنـد باب

الغرفة مسحت بكفي على عيني، واستعدت رباطة جأشي، لما خرجت وقع نظري على عمي أحميدة مسندا ظهره إلى جدار الحوش، وصراخ الندابات يملأ المكان.

أخذني عمي أحميدة إلى غرفة أخرى، حيث ينام طفلان صغيران ولدا حديثا، من منظرهما عرفت أنهما طفلاي التوأم، هما خرجا من ظلام بطن بختة إلى نور الحياة، وبختة غادرت نور الدنيا إلى ظلمة القبر. أسميت الذكر على بركة الله عبد اللطيف، وتوأمه الأنثى أسميتها بفضل من الله زكية.

طيلة الأسابيع الأولى بعيد وفاة بختة كان عليَّ أن أتحلى بالصبر، في تلك الأيام القاسية لم يكن في مقدوري أن أتظاهر بغير ما كان يحتدم في داخلي، فقد كانت الأحزان والهموم أكثر وطأة عليّ من أي شيء آخر، ولم يعد جسدي يقوى على مقاومتها أو يطاوعني على فعل الكثير من الأشياء والواجبات. ذاب اللحم الذي كان يكسو عظامي، واستحالت إلى هيكل يكاد ينقض، ومن شدة نحافتي بدوت غارقا في أثواب فضفاضة.

كان الناس في تلك الأيام الطويلة والقاسية محيطين بي، أما أنا فقد كنت مذعورا وغير آبه بأحد، كطفل صحا من غفوته ولم يجد أمه التي كانت بجنبه تهدهده قبل أن يغفو، عدا أنه تمكن من رؤية وجوه شاحبة تحيط به من كل جانب، وعبثا كانت أغلب تلك الوجوه تتصنع حركات بائسة كي تضفي بعضا من المرح والبهجة.

كل الأشياء التي كنت اعتقدها ثابتة كرسوخ الصخر، أضحت كقشة في مهب الريح! كل ما كنت أصبو إليه طوال سنين، وكنت على بعد خطوة أو خطوتين منه، حالت تصاريف الدهر الظالمة دونه، والأسوأ من كل هذا وذاك أن لا خيار أمامي، وليس بوسعي سوى الانقياد أو اليأس المطبق. في هذا العالم جُلّ الأشياء ليست على حقيقتها، ربما ستكون هناك حقيقة ما في عالم آخر، لكن إطلاقا ليست في هذا العالم الزئبقي المخادع، الذي كلما اعتقدنا أننا أمسكنا بأطرافه تفتت وأنشطر متلاشيا في العدم، يوهمنا دوما باستدامة ما نملك وحالما نطمئن ونشعر بأننا في مأمن، ينقلب علينا شر انقلاب.

لم يكن بمقدوري أن أتصور ما سيحل بجسد بختة لما يوارى الثرى، لا أستطيع تخيّل الديدان تعبث بهذا الجسد الغضّ، تنخره، وتصول وتجول في أنفاقه المظلمة، ثم تطل دون خشية من الثقوب والفجوات المحفورة، حيث تنبعث رائحة خانقة وكريهة. لم يكن باستطاعتي تصور جسدها يستحيل إلى عفن، ثم إلى كومة عظام.

لما انقضت الأيام الأولى، حيث كنت غارقا بأمور الدفن ومشغولا بالعزاء وترتيباته، أخذ يغزوني مدٌّ من الكآبة لا قبل لي به، كان أشبه بجيش من النمل الأحمر، أتى كي ينهي ما بدأته الحياة لما أخرجتني عاريا إلى جحيمها. فقدت الرغبة في كل شيء. من شدة كآبتي كنت واهنا، ومرتخيا، والأرض تدور بي، وكنت أشعر بالديدان تلتهمني من الداخل كأنني ميت.

-١٤-

دومـا مـا كنـت في قـرارة نفـسي لا أومـن بصداقـات دائمـة ومتينـة، أعتقـد أن الأمـر يرجـع إلى خيبتـي الكبـيرة في الكثـير ممـن كنـت أعتبرهـم أعـز وأقـرب الأصدقـاء؛ أيـن هـو الأمـين حمـودان الإدريـسي؟ ولـن أنـس قـط كيـف طعننـي محمـد لمبريبطـو. حتـى مومـو حيـون لمّـا تـزوّج وأسـتقر بـه المقـام بكنـدا، تجاهلنـي، ولم تعـد رسـائله تصلنـي.

مـا فعلـه بي مـن كنـت أعتقـد أنهـم أصدقـائي في تطـوان، ولم تسـاورني أدنى شـكوك في أي يـوم مـن الأيـام بأنهـم سـيخذلونني، جعلنـي أكفـر بـشيء اسـمه صداقـة، وصنـع منـي في فـترة مـا كائنـا منعـزلا يفضـل الوحـدة، ويميـل إلى الاختـلاء بنفسـه عـلى أن يجالـس النـاس ويخالطهـم، خصوصـا قُبَيْـلَ مغـادرتي تطـوان، وكذلـك في بدايـة فـترة التحاقـي بالجزائـر.

إن كان لي صديـق في الأعـوام التـي أقمـت فيهـا بـين مغنيـة وتلمسـان، فلـم يكـن سـوى عبـد المجيـد بـن منصـور. فمنـذ تلـك اللحظـة التـي عرفتـه فيهـا، أخـبرني حدسي أن هـذا الرجـل مختلف، عـلى الرغـم مـن أننـي كنـت بالـغ التحفـظ مـن الأنـاس الذيـن لا

أعرفهم، لكن مع ما حدث في تلك اللحظة التي صافحني فيها أول ما التقينا في الجبل، جعلني أوقن بما لا يدع مجالا للشك بأنه من طينة أخرى مختلفة عن جل من عرفت من أصدقاء.

كان عبد المجيد قبل أن يلتحق بمجموعتنا ضمن فرقة الثوار المكلفة بتهريب الأسلحة من المغرب إلى الجزائر، إذ ذاك كانت فرقته تتنقل سرا عبر مغارة بني عاد لنقل السلاح ما بين حدود البلدين، ولما اكتشف الاستعمار الفرنسي الأمر قام بإغلاق الجزء الأول من المغارة باستعمال ستين مترا مكعبا من الإسمنت المسلح، وقد أفضى هذا التصرف إلى انضمام عبد المجيد إلينا. وفي عام ١٩٦٥ إذا لم تخني الذاكرة، زرت المغارة لأول مرة بصحبة عبد المجيد، واندهشت بصفاء المكان في أعلى جبال عين فزة، وبتراقص الحمام وهديله المتناغم، كما سلبني منظر الصواعد والنوازل والصور والمجسمات ذات الأشكال المختلفة التي نحتتها الطبيعة على الصخور الكلسية الناصعة البياض، ورجع صدى خطواتنا وأصواتنا لما كنا نجتاز مسالكها الضيقة أو نتجول بأبصارنا في كنوز قاعاتها الفسيحة، والجو المنعش داخل المغارة المتسعة الأرجاء.

وظل عبد المجيد طيلة ذاك اليوم يحدثني بانبهار وزهو عن أنها ثاني مغارة طبيعية في العالم، وأن تاريخها يعود إلى قرنين قبل الميلاد، وعن طولها الذي يتجاوز مائة وخمسة وأربعين كيلومترا، بدايتها التي تمتد من ها هنا، حيث كنا

نقف لحظتها على مرتفع هضبة عين فزة، وتنتهي في منطقة تقع بشرق المغرب تابعة لمدينة وجدة تسمى سيدي يحي. وروى لي يومها عن قصص وحكايات الأمازيغ الذين اكتشفوها قبل آلاف السنين، وكيف استوطنوا فيها واتخذوها ملجئا لهم، يضمن لهم الحصانة والأمن والآمان من الأعداء وهجمات الوافدين الجدد، كما قصَّ عليَّ بعضا من أساطير قوم بني عاد الرُّحَّل، وهوسهم في التنقل والارتحال صوب كل الأمكنة والجهات القصية، وكيف كان يغلبهم حنينهم مهما ابتعدوا عن المكان، ويدفعهم للعودة باستمرار إلى المغارة، وهكذا ديدنهم، هم دوما في حل وترحال، وفي غدو ورواح، وحيثما ذهبوا هم حتما آيبون. وكيف أن المؤرخ والمفكر ابن خلدون اختارها كمستقر له، وحدثني عن إلهامها لشعراء وكتاب كبار عبر العصور؛ اتخذوها كخلوة لهم على غرار ابن خميس التلمساني في عهد الزيانيين، وابن خفاجة الأندلسي، وابن أبي زرع وغير ذلك من الأسماء الأخرى التي سقطت من ثقوب ذاكرتي. وقد عادت بي ذاكرتي المثقوبة إلى الأيام التي كنت أجلس فيها مستغرقا إلى حضرة السيدة ناتاليا بيرتوشي زوجة السيد مانويل، ومنتشيا بطريقة عزفها على البيانو، لما احتك العود الذي كان بين أصابع يدي على سبيل الصدفة مع جدار أبيض يشبه الرخام في أحد أركان مغارة بني عاد، وأصدر نغما بديعا أخذني شيء يشبه الرعشة انتفض لها قلبي، واعترت جسدي لحظتها حالة من القشعريرة انتبه لها عبد المجيد، ثم حدق فيّ مبديا شيئا من الحيرة والتساؤل دون أن ينبس بكلمة.

فعلى الرغم من العلاقة المتينة الروابط التي نشأت بيني وبين قدور الوَنَّاسْ لاحقا، لكن علاقتي بعبد المجيد شيء آخر يعسر مقارنتها مع أي علاقة صداقة أخرى مهما كانت عراها وثيقة.

أذكر إني التقيت بسي قدور أول مرة في مقهى الرمانة المحاذي لدرب سيدي حامد وسط مدينة تلمسان، حيث كان هذا المقهى مقصدا للمناضلين والمثقفين، وعلى رأسهم الأديب المعروف محمد ديب. أذكر إن قدور يومها كان يعاتب النادل على سهوه في وضع السكر في فنجان قهوته، ثم رأيته يتفل في قهوته غاضبا قبل أن يرفع ذراعه اليسرى بكل ما أوتي من قوة ويضرب الفنجان بكف يده.

كان كل رواد المقهى مثبتين أبصارهم في الفنجان وصحنه وهما يتطايران من فوق سطح الطاولة ثم ينكسران بعد ارتطامهما ببلاط أرضية المقهى، وهكذا انتشرت بقايا الزجاج المكسور على الأرضية أسفل الطاولة. كان الاستغراب باديا على الوجوه لِمَا يعرفه المقهى من جو هادئ ومؤنس. ولم يسعف الحظ كل من كانوا يجلسون معه حول الطاولة في مسك ذراعه، فقد كانت حركته مفاجئة وسريعة.

كنت بدوري مع خلق الله أنظر إلى الرجل بدهشة وفضول! حتى قادني عبد المجيد إلى تلك الطاولة مكرها؛ حاولت التراجع خطوات إلى الوراء، صدني من الخلف، أردت أن أغير مساره نحو طاولة أخرى منعزلة كانت غير مشغولة وبعيدة عن شجرة الرمان التي تتوسط فناء المقهى، إلا أنه طاف بي بين

الطاولات، ثم أحرجني بحركة من رأسه، لم يعد ممكنا لي سوى الجلوس على كرسي من بين الكرسيين الشاغرين حول الطاولة.

لسوء الحظ قدمني لأولئك الرجال الأربعة، في حقيقة الأمر كانوا أصدقاءه، وكنت حينذاك مضطربا وعاجزا عن إيجاد مخرج يخلصني منهم، عدا أني بقيت صامتا ومتحفظا من إبداء أي رأي طيلة الجلسة.

إذ ظهر سي قدور يومها ببذلة أوروبية على مقاسه، كان لابسا بنطلونا وسترة أسودين، وقميصا ذا لون أبيض، وياقته نظيفة ومكوية بعناية، تطل من يده ساعة معدنية يظهر أنها ذات علامة سويسرية؛ فقد خبرت جودة الساعات لما كنت طفلا متنقلا بين البواخر والسفن البحرية في موانئ المغرب، أستبدل علب السجائر مع البحارة لما أتسلل إلى بواخرهم الراسية في غفلة من عيون الحراس. وفوق طاولته كانت تقبع قبعة البيري الملطخة بقطرات القهوة المتطايرة والمبللة جراء كأس الماء المنقلب على سطح الطاولة. بذلك الملبس كان الرجل يبدو أنيقا وذا ذائقة لا يمكن عدم الانتباه لها، وقد غطى سلوكه الغريب ومنظره الأنيق على رفاقه الثلاثة الذين كانوا يشاركونه الطاولة ذاتها، كما يغطي المغني المنفرد بحضوره الطاغي على رفاقه الذين يكررون لازمة الأغنية من خلفه.

لكن على الرغم من سلوكه الشائن، فقد كان سي قدور طافحا بالحياة محبا للبهجة والفرح بمتعها، أو هكذا بدا لي من خلال مخالطتي إياه بعد أن توطدت علاقتنا. ولم اعرف إن

كان سلوكه ذاك وطبعه المتقلب بسبب ما شاهده من أهوال إبان الثورة، وما تعرض له من تعذيب واستنطاق في مراكز الشرطة والاعتقال في فرنسا، أم أن الأمر مرده إلى مزاج أو طبع ورثه من أسرته أو من محيطه؟ ولقد روى لي فيما بعد عن احتجازه وظروف اعتقاله مع المئات من مناضلي جبهة التحرير الوطني في فرنسا، إذ ذاك كان نزيلا في جناح المحكومين بالإعدام في سجن فرين، ليتم نقله فيما بعد إلى معتقل لاَسُونْتِيه. وبعد أربعة أسابيع من تحويله وبالضبط في الفترة التي كانت بين شهري جوان وجويلية من عام ١٩٥٩، دخل مع المعتقلين المنتمين لجبهة التحرير في إضراب جماعي عن الطعام.

وفي خضم روايته عن حيثيات اعتقاله أثنى على سيدة فرنسية تدعى سيمون فاي، كانت قد تولت حديثا منصب مديرة إدارة السجون التابعة لوزارة العدل الفرنسية؛ فقد حدثني عن دورها في تحسين ظروف اعتقالهم، وفوق كل ذلك الدور المهم الذي لعبته في تعطيل حكم الإعدام الصادر في حقه وحق العشرات من المعتقلين الآخرين، بعد أن قبلت مجموعة الطعون التي قدمها فريق المحامين الموكل من قبل حزب جبهة التحرير الوطني للدفاع عن المعتقلين. إلى غاية أن استفاد قبيل استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ من تجميد حكم الإعدام بفضل اتفاقيات ايفيان بين جبهة التحرير الوطني والحكومة الفرنسية. فبفضل تلك المرأة كما أكد لي، انتفع الآلاف من المعتقلين الجزائريين آنذاك في السجون الفرنسية من تحسين أوضاعهم وظروفهم المعيشية والصحية،

كـما أضحـى بإمكانهـم الاسـتفادة مـن حصـص تعليميـة باللغتـين العربيـة والفرنسـية. بالإضافـة إلى رفـع الحظـر عـن دخـول الصحـف والكتـب إلى نـزلاء السـجون، التـي كانـت بالنسـبة لـه بمثابـة الرفيـق والأنيـس الـذي خفـف عنـه بدرجـة كبـيرة وطـأة المعتقـل كـما سـمعت منـه. وعـلى الرغـم مـن قسـاوة الاسـتنطاق والتعذيـب والاعتقـال، وفداحـة مـا عاشـه قـدور في سـجني فريـن ولاسـونتيه عـلى التـوالي، وعـلى الرغـم مـن المعانـاة وعـدم الاعـتراف بهـم كسـجناء سياسـيين، وكآبـة وصفهـم كمتمردين أو خارجـين عـن القانـون، هـذا التصنيـف حرمهـم مـن أبسـط الحقـوق كـما سَـلَّطَ عليهـم سـجانيهم ليذيقوهـم أشـد الويـلات، عـلى الرغـم مـن ذلـك كلّـه وأشـياء أخـرى لم يرغـب في أن يقصصهـا عـليّ أو لم تكـن الفـرص مواتيـة لهـا.

ظلّـت ذكـرى سـيمون فـاي حـاضرة لـدى قـدور بقـوة، وظـلّ منبهـرا بشـجاعتها وإنسـانيتها، ولم ينـس إطلاقـا مواقفهـا المشرفة في حقـه وحـق المسـاجين السياسـيين الجزائريـين، وكان يتحـدث عنهـا بـشيء مـن الزهـو، وكانـت في نظـره امـرأة مختلفـة جـدا عـن بقيـة المسـؤولين الفرنسـيين الذيـن لم يقبلـوا بالتفـاوض ولا حتـى النظـر في قائمـة مطالـب المعتقلـين، فقـد تحَـدَّتْ بمفردهـا تعنـت رئيـس الـوزراء الفرنـسي الرافـض لأي تفـاوض مـع المضربـين عـن الطعـام. ولشـدّة مـا أعجـب بهـا كان يتحـدث عنهـا دومـا، بمناسـبة أو غـير مناسـبة، وغالبـا مـا كان يكـرر لي أشـياء وقصصـا عنهـا سـبق وأن رواهـا لي مـراراً. ولم أكـن أرغـب في تنبيهـه أو إفسـاد متعتـه، كنـت أتركـه دومـا يسـتفيض في الحـكي دون أن أقطـع عليـه تسلسـل

سرده. أتركه يأخذ راحته ريثما يقرر التوقف بمحض إرادته.

في معظم الأحيان كان يظهر لي كأنه يمتلك قلب طفل صغير خاليا من الأحقاد والضغائن. فقد كان على الرغم من شدته ومزاجه الحاد حنونا ومرهف الحس وبالغ الرقة، لا سيما وإنني وقفت على تعاطفه ومساندته للعديد مِمّن يعرف ومن لا يعرف على حد سواء، خصوصا أولئك الذين انقلبت عليهم الحياة، أو لم تنصفهم الظروف في العيش حياة كريمة. فخلف عبوسه يقبع إنسان كريم ومتعاون إلى أبعد الحدود المتوقعة أو الممكنة، أحيانا كنت أستغرب من قدرته على العطاء دون انتظار رد الجميل أو مقابل لخدماته من أي شخص قدم له المساعدة أو مدّ له يد العون. وكان عبد المجيد بن منصور يقول إن: «قدور الوناس خيار الناس»، وغالبا ما كان يردد على مسامعي بأنه «رجل من ذهب، وصداقته لا تعوض بثمن».

وهكذا لم يحدث وأن اشتكى عبد المجيد من قدور، أو حدثت بينهما أية مشاكل لا صغيرة ولا كبيرة. فقد كان معجبا به، وبنضاله ودوره في مقاومة الاستعمار الفرنسي في عقر داره. وكان ينفعل ويتشنج كلما جاءت سيرة سي قدور بسوء على لسان أحدهم، ومن يجرؤ على الانتقاص من سيرة الرجل فسيكون حينئذ خصما له. وكان بعض الرفاق يتهامسون في خلواتهم عمّا سمعوه عن تردد سي قدور لما كان مقيما بمدينة سيدي بلعباس على فيلاج اللَّفت السيئ الصيت، وإدمانه على مضاجعة بائعات الهوى ومعاقرة الخمرة هناك، بينما أنداده

الرجال يحملون السلاح في ميدان الشرف. ولم يكن لأحد منهم أن يجرؤ على الحديث عن الأمر في العلن، لسببين؛ أولهما أنه لم يكن لأحد أن يجرؤ على ذكر اسم ذلك المكان «فيلاج اللفت» على لسانه، فالأمر كان محرما اجتماعيا والنطق به كان أفدح من النطق ببذاءة وسط فناء جامع يغص بالمصلين في وقت صلاة الجمعة. والآخر خوفا من مزاج سي قدور الحاد وانقلابه عليهم شر منقلب.

وفي حقيقة الأمر كما أوضح لي عبد المجيد، أن قدور كان يتظاهر بالتردد على فيلاج اللفت، لجمع المعلومات من المومسات عن ضباط وجنود الجيش الفرنسي المترددين عن المكان، إلى حين تمكن من الإجهاز على ثلاثة ضباط ذوي رتب مهمة في الجيش الفرنسي دفعة واحدة، وسلبهم الأسلحة التي كانت بحوزتهم لحظتها، كانت قد استدرجتهم بائعة هوى تدعى ساسية الروجية إلى مخدعها. ولم يمض على تلك العملية ثلاثة أشهر حتى تَمَّ تدبير عملية تهريبه إلى فرنسا، بعد أن جهزت له جبهة التحرير الوطني جوازات سفر مغربية. وقد قصّ عليّ سي قدور أنهم استجابة لأوامر تلقوها من جبهة التحرير الوطني تحثهم على الانتقام من العمليات التي قام بموجبها الجيش الفرنسي بإحراق الغابات في الجزائر بالنابالم، لمحاصرة المجاهدين في جيش التحرير الوطني والضغط عليهم للخروج من تلك الغابات الكثيفة. واستجابة لتلك الأوامر تلقى رفقة مجموعة من العناصر المقيمة بفرنسا تدريبات مكثفة في استخدام القنابل والعبوات المتفجرة عن بعد.

وبالضبط في ليلة ليلاء من ليالي شهر أوت ١٩٥٨ التحق بفيلا في ضواحي مرسيليا، وفي صبيحة اليوم التالي غادرها رفقة مجموعة من العناصر على متن سيارتين مزودين بالقنابل إلى مجموعة من الأهداف المقررة. وأهم هدف في مهمتهم تلك كان خزان موريبيان بالضاحية الشمالية لمرسيليا التي لا تبعد كثيرا عن ميناء المدينة، والذي كان آنذاك يعتبر أكبر خزان للوقود في جنوب شرق فرنسا. كانوا يومها مرهقين جدا، وفي كل خطوة كانوا يخطونها كانت وطأة الخوف تتضاعف معها، وزاد في إرباكهم حرارة الجو ونسبة الرطوبة التي يصعب احتمالها. رغم كل ذلك دخل مع المجموعة إلى الأمكنة المحددة، وساعد في وضع العبوات في الأهداف المرسومة بدقة؛ وأداروا الأسلاك ثم غادروا المكان دون أن يلاحظهم أحد كأنهم كانوا كأطياف أو أشباح لا ترى.

وبالموازاة مع تلك العملية قام فريق آخر من رفاقه بإشعال مجموعة من الحرائق في غابات ايستيرال، من أجل المناورة وتشتيت انتباه الشرطة وإبعاد رجال المطافئ عن المنطقة المقصودة والمستهدفة بالتفجيرات. وفي خضم سرده هذه الحكاية ذكر العديد من أسماء رفاقه في عملية مرسيليا، ومن بينهم حسان وموح ومحند؛ استعدت رسائل صديقي مومو حيون، وما رواه لي عن شركائه الجزائريين في ذلك البيت المتهالك بمرسيليا، أيعقل أن تلعب المصادفة دورا خرافيا، ويكون هؤلاء الثلاثة من رفاق سي قدور هم ذاتهم من كانوا شركاء مومو في السكن؟ صراحة لم أُثر معه الأمر، عدا أني كنت أصغي

إليه وهو يروي لي المشاهد التي عاشها، فكنت كأنني أراها ماثلة أمامي بكل حيثياتها وتفاصيلها.

وبداية من ذاك اليوم الذي التقيت فيه بسي قدور أول مرة ولدت بيننا صداقة كان لها أثرها الكبير على قلبي، ودامت زمنا طويلا، لو لا مغادرتي تلمسان نحو الشرق الجزائري، إلى مدينة عنابة، لما كانت تلك اللقاءات تنقطع إطلاقا.

إذ ذاك انتقلت من أقصى الغرب الجزائري إلى أقصى الشرق. ولو لم تكن وساطة سي قدور لي لدى الأمين العام لولاية عنابة حينذاك، التي يسرت لي الحصول على سكن اجتماعي في دائرة البوني لما تمكنت من الإقامة في عنابة.

سافرت إلى عنابة بعد التضييق على العائلات المغربية في منتصف السبعينيات، كانت أغلبها مقيمة في مدن الغرب الجزائري؛ إذ بعد التوتر الحاصل وقتذاك بين المغرب والجزائر بسبب قضية الصحراء، قرر الحسن الثاني مصادرة ممتلكات الجزائريين المقيمين بالمغرب، في حين قرر الرئيس هواري بومدين طرد العائلات المغربية المقيمة بالجزائر.

أعرف إنني بعيد كل البعد عن هذا الصراع، ولست معنيا بذلك القرار، فأنا لم أبخل بأغلى ما أملك، فقد خاطرت بحياتي ورفعت السلاح من أجل تحرير هذا البلد. لكن لما رأيت بأم عيني تشرد وتشتت الكثير من العائلات في تلمسان وغيرها من مدن الغرب الجزائري، الزوج الجزائري تطرد زوجته

المغربية، والزوجة الجزائرية يطرد زوجها المغربي، ومصير الأولاد نحو المجهول، إما يبقون كلهم في الجزائر مع أحد الوالدين، أو يغادرون جميعا نحو المغرب مع الولي الآخر، أو ينقسمون بين والديهم، نصف في الجزائر والنصف الثاني بالمغرب، وتضيع بذلك أسر وعائلات بأكملها. والأمر ذاته ينطبق على الجزائريين في المغرب! وباتت أراضي كلا البلدين على اتساعها وشساعتها أضيق من خرم الإبرة.

ما كان عليّ إلا الرحيل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق حتى أبقى بعيدا عن تداعيات هذا الصراع، وأبدأ حياة جديدة هناك، لا أحد يعرف هويتي. وقد اقترح علي سي قدور عنابة بحكم أنه ينحدر من منطقة الذرعان التابعة آنذاك لمدينة عنابة.

هذا الرجل كان شعر وجهه دوما حليقا، وكانت له طريقة خاصة في المشي تميزه عن غيره، كنت أعرفه بها من أمتار بعيدة حالما يلوح لي في أفق الشارع. أما عيناه فكان لهما بريق خاص أشبه ببريق الأحجار الكريمة أو الزجاج لما تنعكس عليه أشعة الشمس.

بعد معاشرتي لهم صرت مداوما على التردد على مقهى الرمانة، وكنت أنتظر بشغف أن ينضم إليَّ سي قدور ورفاقه. حالما كنا نراه يُقْبِلُ من جهة درب سيدي حامد كنا نتوقف عن الحديث، ولما كان يجلس إلينا غالبا ما كنا ننسى موضوع حديثنا السابق ولا نتذكر منه شيئا، مع حضور سي قدور يضيع

خيـط كل حديـث كان قبـل وصولـه، فقـد كان محـور التركيـز ينتقـل تلقائيـا إليـه.

لا شـك أن نظراتنـا المنتقلـة في تلـك اللحظـة إلى وجهـه الحـاد الأنـف، كانـت لا تخفـي ترقبنـا بشـغف عّـما سـتفضي عنـه جعبتـه، وعيوننـا تتبـع حـركات وسـكنات شـفتي سي قـدور، وكان يغمرنـا الانفعـال مـن المشـاهد التـي تولـد مـن كلماتـه المرصوفـة بعنايـة ودون تكلـف والمشـوقة.

مـن يـرى دهشـتنا وشـدة تركيزنـا يبـدو لـه أننـا نُوّمنـا مغناطيسـيا، أو أننـا قـد أصبنـا بوبـاء غريـب تنقـل إلينـا عـن طريـق العـدوى. فلـم يسـبق وأن جالسـنا وهـو خـالي الوفـاض، كـما لم يحـدث وأن نهـض واقفـا عـن مجمعنـا قبـل أن يشـفي غليلنـا بشـجون حديثـه. وهـذا مـا كان الأهـم بالنسـبة لي ولمـن كان يجلـس إلى طاولتنـا أو قريبـا منهـا.

كنـا شـغوفين بمـا سـيرويه لنـا لمـا يعـود بذاكرتـه إلى تلـك الشـوارع والأحيـاء والأمكنـة الواعـدة، ويحدثنـا عـمّا عاشـه فيهـا ويقـص علينـا ذكرياتـه مـع أنـاس وأجنـاس عرفهـم هنـاك. فكانـت السـاعات التـي كنـا نقضيهـا في مقهـى الرمانـة كأنهـا هنيهـات.

بصراحـة كنـت مدمنـا عـلى تلـك اللقـاءات التـي تجمعنـي بهـم بـين طاولاتـه، والاسـتمتاع بالجلـوس بصحبتهـم في هـذا الفضاء الهـادئ والمـكان الجميـل والمريـح؛ حيـث كنـا نحتـسي القهـوة أو الشـاي ونقـضي السـاعات بطولهـا نتحـاور ونناقـش قضايـا المجتمـع

وانشغالات الناس ومعاناتهم دون موانع أو محرمات أو كلل أو ملل. وكل يوم كان يمضي بدون أن أجتمع بهم، كنت أشعر به كأنه غير مكتمل، وأن هناك حاجة ملحة غير مشبعة تدفعني للشعور بنقص ما!

فلما فقدت بختة، حدث انقلاب جوهري وتحوّل عميق في حياتي رأسا على عقب، فقد كانت الأيام التي تلت موتها مؤلمة وقاسية وطويلة، وقد كان ترددي على المقهى يمنحني بعض السلوى. وكما هو الحال، دوما ما كنت ألجأ إلى مقهى الرمانة،كي أرمي همومي خلف ظهري، وأخرج من حالة اليأس التي وضعتني فيها وحدتي.

لكن بعد مضي سنوات من الدعة والاطمئنان، كل شيء تغيّر فجأة مع ترحيل آلاف المغربيين من تلمسان ومستغانم ووهران وسيدي بلعباس وغيرها من المدن الأخرى، من دون انتظار أو تمهل، وعقب قرارات سياسية مستعجلة وغير مدروسة العواقب تمت عملية طرد وترحيل كل فرد مغربي مقيم في التراب الجزائري، والأمر ذاته بالنسبة للجزائريين المقيمين بالمغرب حيث رُحِّلوا من ديارهم وصودرت ممتلكاتهم وثرواتهم.

الكل هنا يتحدث عن طرد الشرطة عشرات الآلاف من أفراد العائلات المغربية، وقد جاءني من مغنية عبد الملك بن عاشور فزعا، يطلب توسطي لدى معارفي بحكم أنني رجل ثوري، ولدي علاقات مع أصحاب النفوذ، فأغلبهم هم رفاق كفاحك كما كان يردد. جاء من أجل أن أتوسط له هو وعائلته

لإبقائهم في بيتهم بضواحي تلمسان من دون أن يتعرض لهم أي أحد، عائلته مكونة من ثلاثة عشر فردا. وتلمسان هي مسقط رأس كل أولاده من زوجته الجزائرية ربيعة.

الرجل من خلال حديثه معي لم يتقبل خبر طرده وشتات عائلته بعد أن عاش كل هاته السنين في هذا البلد.

لم أتقبل الأمر ولم أستسغه إطلاقا، فبعد أن طُوِيت صفحة حرب الرمال ١٩٦٣ التي أُزهقت فيها أرواح الأشِّقاء وسالت فيها أنهار من دماء رفقاء محاربة الاستعمار والتحرر، ها هي صفحة سوداء أخرى في تاريخ البلدين تفتح مجددا.

اخترت العزلة في بيتي، لست على ما يرام، كنت مبعثرا، ومرتبكا تماما، وأشعر بشيء من الخوف والذعر، كأنني داخل دوامة لا تهدأ، أو كلما كانت تتوقف إلا وتبدأ مرة أخرى. الباب مغلق كالعادة، أعرف أن لا أحد سيجرؤ على طرقه أو دفعه أو ركله. بعد أربعة أيام، أعتقد أنه كان يوم الأحد إن لم تخن الذاكرة، أسمع ضربا خفيفا على الباب، أحسست بأمعائي تتقطع وبدأ وجهي يتقلص من الفزع.

كل شيء ممكن في هكذا ظروف استثنائية، وممكن أن ينقلب الوضع على الجميع دون استثناء، حتى على أولئك الذي ساهموا في تحرير هذا البلد.

لما اقتربت من الباب، كانت أصابع يدي اليمنى لا تطاوعني على فك القفل، تصلبت حتى بدت كأنها متجمدة. لما فتحت،

ظهر لي سي قدور الوناس في المقدمة ولمحت خلفه خيال ثلاثة أشخاص، لما دققت النظر فيهم تبين لي أنهم من رفقة طاولة المقهى، حسين وأحمد وعبد الوهاب.

أمام حيرتي بادرني سي قدور بالسؤال عن أحوالي، وعن أسباب اختفائي عن الأنظار على غير العادة. كما أخبرني بانشغالهم وخوفهم بأن يكون مكروها ما قد أصابني أو ظرفا طارئا قد ألم بي وحال دون تمكني من ارتياد المقهى كما دأبت كل يوم.

بعد أن طمأنتهم، دعوتهم إلى الدخول إلى البيت. عندما دلفوا إلى الداخل أكيد أنهم انتبهوا للفوضى وهي تعم المكان؛ أحاول جمع بعض الأفرشة الموضوعة كيفما اتفق، كما أنني كنت في ذات الوقت أبحث كالمشتت عن كراسي وأشياء تصلح للجلوس كي أجمعها في وسط باحة البيت، ذرعت المكان جيئة وذهابا أكثر من ثلاث مرات.

أُخرج لهم صينية نحاسية وَضَعْتُ عليها إبريق الشاي الأخضر وأربعة أقداح كبيرة، وصحن الحلويات التي أرسلته جارتي عَايْشَة مع ولدها الوحيد دِيدَنْ قبل خمسة أيام ما زال على حاله، لم تدخل حبة منه فمي؛ في الحقيقة كانت صديقة بختة المقربة وبينهما مَعَزَّة كبيرة، كانا لا يفترقان، وبعد وفاة بختة كانت عايشة تتذكرني بين فترة وأخرى بطبق طعام أو بصحن حلويات من صنع يديها. حتى إبريق الشاي كان جاهزا، حضرته صباحا، حتى أنني لم أكمل بعد قدح الشاي

الـذي تركتـه في غرفـة نومـي.

بعـد أن ألححـت عـلى الرحيـل وعـدني سي قـدور بالمسـاعدة، ولمـا عـرف رغبتـي في الابتعـاد أوصـاني بمدينـة عنابـة وشرح لي كل التفاصيـل المرتبطـة بالرحلـة وبمـن سـأتواصل معهـم هنـاك لحظـة أصـل، وهكـذا. لحظـة مغادرتهـم، لم أنتظـر هنيهـة لاسـتكمال قـدح الشـاي الخـاص بي، فتحـت أبـواب الخزانـة عـلى مصراعيهـا، بـدأت أقلـب في الثيـاب، مـن المسـتحيل أن أخذهـا كلهـا، أختـار منهـا فقـط مـا أراه ضروريـا، وبـاشرت في إخـراج أهـم الملابـس التـي قـد أحتاجهـا، وكنـت أضعهـا في الحقيبـة عـلى عجـل. ولمـا أكملـت مـن حقيبـة الملابـس، بـدأت في جمـع بعـض الأشـياء والأغـراض الأخـرى التـي تعنـي لي، أو تلـك التـي أراهـا مهمـة ولا يمكـن الاسـتغناء عنهـا أو التفريـط فيهـا. في النهايـة اسـتكملت تعبئـة ثـلاث حقائب: حقيبـة بنيـة متوسـطة الحجـم وأخريـن سـوداويتي اللـون مـن النـوع البـين بـين. عـدا ذلـك تركـت كل شيء آخـر خلفـي، مـا تبقـى لا يهمنـي، سـأطلب مـن صديقـي عبـد المجيـد أن يتـولى أمـره فيـما بعـد.

لا بـدّ لي أن أغـادر تلمسـان، وأن أبتعـد عـن مغنيـة، وعـن ابنـيّ التوأمـين عبـد اللطيـف وزكيـة؛ وأتركهـما في رعايـة جدهـما وخالتهـما الصغـرى زوجـة عبـد العزيـز مطمـئن البـال عنهـما، أفضـل بكثـير مـن أن أصحبهـما معـي، وأعرضهـما لمخاطـر ومهالـك لا يحمـد عقباهـا، مـن أيـن لي أن اعتنـي بطفلـين صغيريـن وأحملهـما معـي وعثـاء السـفر ومشـقة الاغـتراب عـن الأهـل؟ كـما

إنني سأفارق الرفاق الذين اعتدت الجلوس إليهم كل يوم، وسيحرمني الرحيل من أشياء كثيرة أهمها البعد من أجواء مقهى الرمانة، وما يؤلمني أكثر مفارقة صديقي عبد المجيد وسي قدور.

كنت أخرج ثم أدخل إلى غرف البيت مرارا وتكرارا، كأنني أودع الجدران والنوافذ وكل ما خلفته هناك من ذكريات وأشياء جميلة وموجودات ارتبطت حياتي بها في مرحلة ما. شعرت لحظتها وكأن هناك من أمسك بي بعنف من ذراعي اليمنى وأخرجني من الفردوس بضربة قوية على قفاي، ثم ركلني كيفما اتفق، كأنه طردني من الملكوت دون رحمة وصفق بابها في وجهي.

في المساء عندما كنت بصدد ترك البيت، طغت فجأة على تفكيري صور كانت تتراكم في رأسي دون انقطاع، كما عاودتني الأسئلة المحيرة ذاتها والتي تطغى على ذهني كلما أشد الرحال من مكان إلى آخر:

- هل سيأتي يوم وأعود إلى تلمسان ومغنية، وألتقي بالرفاق مجددا، أم أنني سأهجر إلى الأبد الأمكنة والناس كما تعودت؟

قبل أن أفتح الباب للخروج، حاولت أن أتحمل ما أنا قادم عليه برباطة جأش، ترددت برهة لما طالعني وجه بختة وثغرها الباسم. اجتزت عتبة الباب، وجدت صديقي في انتظاري، كيف أوَدِّع عبد المجيد الغاضب من قراري، وتسرعي، ومبالغتي في

تقديـر الأمـور ومآلاتهـا؟ مـن أيـن لي أن أجـد الكلـمات المناسـبة لهـذا الطقـس، وقـد وجـدت نفـسي دون رغبـة منـي محـاصرا فيـه، حيـث لا أتمنـى لأي أحـد أن يكـون في مـكاني.

مهـما تكـن النتيجـة، سـيكون مـن الجيـد لي أن أتـرك هـذه المدينـة الهادئـة والوادعـة التـي منحتنـي مـا لا أسـتطيع نكرانـه ولا أقـوى عـلى الجحـود بـه. المدينـة التـي نحتـت بداخـلي أشـياء حميمـة وصادقـة وباهـرة لا يمكـن أن تمحـى مـن ذاكـرتي قـط.

أخـرج مـن بيتـي وفي يـدي حقيبـة واحـدة، أمـا الحقيبتـان الباقيتـان فتوزعتـا بـين يـدي عبـد المجيـد وسي قـدور. مـا يشـبه الإحسـاس بالوخـز بالإبـر عـلى كامـل جسـدي، كأننـي مُسَـمَّر، رجـلاي تخذلانـني، لا ترغبـان في التقـدم ومغـادرة المـكان لفـرط مـا ارتبطتـا بـه، كأن مـا عشـته هنـاك ومـا عرفتـه يشـدانهما بوثـاق غليـظ.

-١٥-

عقب إقامتي في الشقة التي وهبنيها صديق سي قدور، وعندما كنت مستلقيا على ظهري فوق بساط زرقاطي سميك بدا لي أشبة بالسجاد، كانت عيناي تترقبان السقف وأنا شارد البال حول ما تركته خلفي في تلمسان، من أناس طيبين، ونفوس صادقة، وأمكنة عزيزة على قلبي، كما كنت دائم التفكير في عبد اللطيف وزكية على وجه الخصوص.

فمنذ وصولي إلى عنابة ألفيت نفسي وحيدا، ضائعا، ومشتتا. إلى أن بدأ هذا الوضع يتغير تدريجيا مع مرور الوقت، عندما بدأت أعتاد وأتأقلم مع أجواء المدينة المبهجة، وناسها المضيافين، ونمط العيش فيها.

في الأيام الأولى لما كنت آوي إلى فراشي لم يغمض لي جفن إلى غاية تباشير الصباح الأولى؛ فقد كنت نهبا لكل التصورات والأفكار التي تأخذني إلى تعاريج ومتاهات لا قِبَلَ لي بها، ومن شدة الأرق تشكلت هالة بنفسجية أسفل عيني. ومن فرط

استغراقي في التفكير تسرب إليَّ القلق واليأس، حتى غفلت عن الاعتناء بنفسي، والاهتمام بشؤون صحتي، فغالبا ما كنت أنسى مواعيد الوجبات الغذائية، وحتى وإن دخلت اللقمة إلى فمي دوما ما كان ذلك خارج الأوقات الثلاثة المعتادة. ما جعلني أستحيل إلى كائن ليلي غريب، أصحو بعد منتصف النهار، أقضي بقية يومي متعبا، ومرهقا، ومحبطا بسبب قلة النوم، وتذبذب تناول الطعام، والتدخين بشراهة منقطعة النظير؛ في تلك الظروف المضطربة عدت إلى التدخين بعد انقطاعي عنه طيلة سنوات.

اكتشفت أن النساء هنا يرتدين الملاءة، وهي أشبه بغطاء فضفاض، على شكل قطعة قماش واحدة مفتوحة، ذات لون أسود، تلف كل الجسد عدا الوجه الذي يتوارى أكثر من نصفه بقليل خلف العجار، وهو قطعة قماش بيضاء غالبا ما تكون غير سميكة، أما ما تبقى من النصف العلوي منه فيظل مكشوفا، حيث يظهر جزء من الأنف والعينين.

العين مفتاح الجمال في نظري، فكل من يمتلكن عينين ساحرتين، كبيرتين كفنجان، أو لامعتين كحجر كريم، كلما كُنَّ ذوات بهاء آسر للقلوب والنفوس المشتاقة. صرت كلما أمرُّ بشارعٍ، أو أعبر دربا، أو أجتاز نهجاً، أو أسير على رصيفٍ، إلاَّ وأضيع في ثنايا ومتاهات هاتين العينين أو تينك العيون، ولم أكن أكف عن النظر إلى تلكما العينين البنيتين، أو الكستناءتين، أو العسليتين، أو الزرقاوين، اللتين كانتا تخترقانني وتأخذانني

بعيـدا، وهكـذا أضحيـت مهوسـا بهـذا الأمـر دون سـابق إصرار وترصـد.

لمـا انقضـت الثلاثـة أشـهر الأولى عـلى إقامتـي بعنابـة، وفي عـصر يـوم مـن الأيـام وبينـما كنـت قاصـدا مقهـى المنـار في طـرف بطحـة سـيدي شريـط في قلـب المدينـة العتيقـة القريبـة مـن سـاحة الثـورة، صادفـت أثنـاء عبـوري الطريـق في اتجـاه الرصيـف المقابـل لـدار البلديـة صديـق سي قـدور: السـيد الأمـين العـام للولايـة. لمـا تقاطعـت نظراتنـا، توقـف الرجـل واعتلـت وجهـه ابتسـامة عريضـة، هرعـت إليـه دون انتظـار.

بعـد أن سـلمت عليـه، دعـاني للجلـوس في مقهـى بـن رابـح لاحتسـاء فنجـان قهـوة. مـا كان عـليّ إلا قبـول دعوتـه عـن طيـب خاطـر، لا شـغل ولا مشـغلة، إلا تجزيـة الوقـت في التسـكع هنـا وهنـاك، بـين الأحيـاء والشـوارع، حتـى أضحـت أغلـب الأرصفـة تعـرف وقـع خطـوات أقدامـي مـن كـثرة ترددهـا جيئـة وذهابـا كأنهـا تحرثهـا حرثـا. وبينـما نحـن نتحـدث قطـع حديثنـا كهـل كان يرتـدي بذلـة سـوداء وربطـة عنـق حمـراء، وملامـح وجهـه صارمـة، وتختفـي خلـف شـواربه الكثـة شـفتان رقيقتـان، أمـا عينـاه فلـم أقـو عـلى الثبـات عـلى التحديـق فيهـما مليـا بسـبب نظرتهـما الحـادة. لم ينتظـر صديـق سي قـدور، مبـاشرة عندمـا وقـف، ووقفـت في إثـره عرفنـي عـلى الرجـل:

- سي عـمار حبـاشي رئيـس فـرع منظمـة معطـوبي الحـرب بعنابـة.

- نتشرفو بيك.

لما عرف سي عمار بأنني مجاهد، أومأ برأسه وتسللت من بين شفتيه نصف ابتسامة سرعان ما كتمها، وتدفق في الحديث بصورة كسرت وجومه السابق.

بعد هذا اللقاء استجبت لدعوة سي عمار لزيارته في مكتبه، ومن أول يوم زرته فيه نما لَديَّ انطباع آخر عن الرجل، وأصبحت أتردد على مكتبه من حين لآخر، ولم أكف عن ارتياد المقهى الذي يجلس فيه مع رفاقه، وكنت مبهورا بشخصيته الفذة ومفتونا بهيبته ووقاره، لا يسكت إطلاقا عن أي شيء أعوج، ولا يتنازل عن مواقفه مهما كانت الظروف والضغوط، لما كان يتحدث عن الثورة واستقلال البلد وتحديات البناء، كان يتحدث بصدق بالغ وبغيرة كبيرة.

وتشاء الأقدار أن يكون سي عمار سببا جوهريا في زواجي بسكينة، ويصبح نسيبا لي، فسكينة ابنة خالته. وبعد سنة من زواجي بالتمام والكمال، أفاجأ بقدوم عمي أحميدة بلحسن والد زوجتي بختة رحمها الله إلى بيتي بعنابة وبرفقته ابني عبد اللطيف! فيما بعد أعلمني أن عبد المجيد بن منصور هو من دلّهُ على عنواني في عنابة. أما ابنتي زكية فأبقاها تحت رعاية وكفالة أخت بختة الصغرى.

في السنوات القادمة يتحسن وضعي بفضل دعم نسيبي سي عمار، فقد رتب لي كل الإجراءات الإدارية للحصول على

امتيـازات مجاهـد معطـوب في الحـرب التحريريـة، منحـة تـصرف لي بانتظـام، ووثيقـة تصريـح إنشـاء مقهـى، كـما كنـت أتمكـن مـن الاسـتفادة مـن مبلـغ سـنوي جـراء قيامـي بكرائهـا لأي شـخص يرغـب في فتـح مقهـى، والإعفـاءات مـن الرسـوم عـلى القيمـة المضافـة، وضريبـة السـيارات الجديـدة كل خمس سـنوات. والعديد مـن الامتيـازات الأخـرى كنـت أحصـل عليهـا حالمـا تسـتجد، فالبلـد نـال اسـتقلاله حديثـا، ومـن فـترة لأخـرى تصـدر مراسـيم وقـرارات في صالـح المجاهديـن ومعطـوبي حـرب التحريـر.

بقـي عبـد اللطيـف عنـدي إلى غايـة أن رجع في مرحلـة مراهقته إلى مغنيـة عنـد جـده، ومنهـا غـادر نهائيـا إلى المغـرب، ومـن ذلـك الحـين لم يصلنـي عنـه أي خـبر.

أمـا ابنتـي زكِـيَّـة فقـد أصيبـت بمـرض غريـب أقعدهـا الفـراش لأشـهر، وعـلى الرغـم مـن اتصـالات جدهـا ونـداءات عبـد المجيـد المتكـررة، لم أزرهـا قـط. ولسـت أدري لمـاذا تجـرأتُ عـلى القيـام بذلـك السـلوك الأنـاني، غـير المـبرر.

سـمعت لاحقـا مـن سي عبـد المجيـد خـبر مـوت ابنتـي زكِـيَّـة، كان وقـع الخـبر عظيـما عـلى نفـسي، حفـر في أعماقـي جرحـا غائـراً. حتـى أننـي بـت أفضـل العزلـة، طيلـة أسـابيع وأنـا في خلـوة مـع نفـسي، ولم تعـد لي رغبـة في الطعـام، فـلا رفيـق لي غـير السـجائر، كنـت أدخـن بشراهـة، إلى أن تمتلـئ منفضـة السـجائر النحاسـية بالأعقـاب عـلى شـكل هـرم، كنـت أفرغهـا، وأعيـد ملأهـا مجـددا، وهكـذا دواليـك، كنـت لا أتوقـف عـن التدخـين حتـى تنفـد كل

العلب التي اقتنيها، وعندما يطلع النهار كنت أقتني من الكشك القريب من بيتي علبا أخرى، كانت هذه الدائرة التي تدور فيها معظم أيامي التي تلت موت ابنتي زكِيَّة. ومنذ تلك اللحظة المفجعة لم يهنأ لي بال وأستحوذ عليّ حزن مزّق روحي، حتى وإن حاولت التظاهر بعكس ما يعتمل في داخلي، أو سعيت خلف أفراح ومسرات عابرة، كانت سرعان ما تختفي كسراب.

لا أعتقد أن الزمن سيسعفني لأشفى وأتصالح مع ذاتي، لا يمكن أن أسامح نفسي على تقصيرها، كان حرياً بي أن أرعاها، لا اعتقد أنه بإمكاني بأي حال من الأحوال ترقيع أو ترميم تلك الشقوق العظيمة والتصدعات الهائلة في روحي التي تسببت فيها غفلتي الغبية وأنانيتي المفرطة. كل ذلك كان جراء تنامي وتعاظم هوسي المرضي بالمكاسب، والمزايا، والمنافع الوليدة والعابرة.

سهوت عن كل شيء تركته خلفي يمت بصلةٍ إلى حياتي السابقة في مغنية وتلمسان؛ هناك حيث تركت قطعة من روحي، فلذة كبدي زَكِيَّة، لم أبال ولم أهتم لا بحياتها ولا بمماتها. أصابني عمى وصمم نحوها، قتلها إهمالي وغفلتي عنها، تباً لي كم كنت نذلاً، وقذراً، وخسيساً كي أجرؤ على التورط في كل هذه الفظاعة، والشناعة، والبشاعة!

حتى عبد اللطيف تركني وغادر إلى وجهة مجهولة في المغرب، من غير رجعة. هل هو إمعان القدر في إنزال العقاب عليَّ؟

أم مزيد من التواطؤ على محاصرتي وإذلالي، وفعل مقصود على غلق كل أبواب الاستدراك في وجهي!

رويدا رويدا أخرجني سي عمار بعض الشيء من عزلتي، كان يصحبني في الأيام الأولى إلى البحر، ثم إلى المقهى، وبعدها إلى مكتبه. إلى أن عدت أخرج بمفردي، وأتردد عليه بين الحين والأخر في المكتب أو المقهى حيث اعتدنا الجلوس.

وفي الأيام التي تلت خروجي من عزلتي، أصبح ينتهي بي المطاف أحيانا في جامع سيدي إبراهيم بن تومي، فلم يسبق لي وأن انتظمت في أداء الصلاة، أو اعتدت على ارتياد الجوامع، بالكاد أتذكر آخر مرة صليت فيها، على قصرها وطول فترة انقطاعي عنها عن غير رجعة. عدا أن صورة حركة المصلين في دخولهم وخروجهم من مسجد صالح باي، مهرولين أو متكاسلين لا زالت راسخة في ذهني، إذ كنت أراقبهم وأنا أرتشف كأس الشاي من طاولة مقهى المنار المطلة شرفته على بطحة سيدي شريط.

شيء غريب كان يَسُوقني إلى جامع سيدي إبراهيم، لا أجد تفسيرا له، كل مرّة أجدني ها هنا أمام ضريح سيدي إبراهيم بن تومي المرداسي علاَّمة بونة ورجلها الورع والتقيّ. وألمح سي محمد الطاهر يرمقني بابتسامة وادعة في الجهة المقابلة، إلى أن يقترب مني، ويربت بيده اليمنى على كتفي دون أن ينبس بكلمة واحدة. شيء غامض يجذبني إلى هذا المكان.

بعد مضي وقت لا أستطيع تقديره وأنا جاثم كالصنم أمام الضريح، أقرفص في صحن الجامع برفقة قَيِّمِهِ سي محمد الطاهر، غارقا في تلك العوالم التي يرويها لي عن مشاهداته والرؤى التي تراءت له هنا في الجامع أو في بيته المحاذي لطاحونة كَاوْكِي، كان هادئا، وصافيا، ونقيا، وأحيانا أرى ارتعاشة تصيبه أثناء الحديث. كان كل شيء حوله هو خواء.

لقد بدا لي أن السماع لحديثه والجلوس إليه يشعرني بطمأنينة غريبة، وببعض الراحة التي قلما أجدها في مكان آخر. كانت كلماته تطفئ ظمأ في داخلي، وتبدد بعضا من تلك الحيرة التي سكنتني، وتُذهِبُ عني ضيقي الذي يعذبني. كنت كأنني أمام كائن قادم من زمن سحيق؛ غالبا ما كان يحدثني عن المجاذيب والدراويش الذين يقصدون الجامع من فترة لأخرى، لما يخرج لاستقبالهم ينادونه يا إبراهيم.. يا ابراهيم. وحالما يدخلهم للميضأة، وقبل أن يغسل لهم أطرافهم، أو ينظف السواد الذي كسا جلدتهم، حتى أضحى ككتلة أو طبقة خارجية فوق الجلدة، تفوح منهم رائحة المسك على نحو مثير للدهشة والاستغراب! كان سي محمد الطاهر خادما أمينا لهؤلاء، ومتفانيا فيما يقوم به، غير آبه بما يتلفظ به رواد الجامع أو من يراه على هكذا حال، لا يلقي بالاً بما يتشدقون به: «محمد الطاهر أصابته لوثة جنون، فكل مرة يدخل المجانين والمتشردون إلى الجامع ويرعاهم كملوك...»، وغيرها من النعوت الأخرى والأقوال التي لا يصيخ لها السمع على وجه الإطلاق.

كما قصّ عليّ ذات يوم أنه يجتهد باستمرار في تعطير الجامع بالبخور والعنبر ومختلف العطور، ولما ينسى، أو يغفل، أو يقصر في القيام بالأمر، كان يتفاجأ بمجرد أن يفتح باب الجامع من عبق رائحة العنبر المنبعثة من وسطه. هذا الجامع كما يقول سي محمد الطاهر: يعطر نفسهُ بنفسهِ. كانت ملامحه تتغير كلما استغرق في رواية تلك القصص التي كانت تحدث معه، وكنت أشعر بنور يغشي وجه كان أشبه بهالة نورانية تنبثق من داخله، لا أدري كأنه كان مخدرا، أو غائبا عن كل ما يحيط به، فقط كان غارقا في الكلمات المتدافعة التي تخرج من شفتيه، متدفقا، ومسترسلا في الحديث.

حاول مرارا وتكرارا الفكاك من رعاية الجامع، والانصراف لشؤون حياته، كغيره من خلق الله، لم يقو على فعل ذلك، فكلما كان يزداد إصرارا على المغادرة، كان يجد نفسه أكثر ارتباطا بالمكان، مطوقا، ومقيدا، كأنما شيء ما أو شخص معين قد كبله وشلَّ حركته. فمنذ أن كان طفلا لا يتجاوز سنه الخامسة عشرة، وهو في خدمة بيت الله، وفي رعاية وليّ الله. كلما كنت أحاول أن أستفسر منه عن هذا الأمر إلا وكان يستغربه، ولم يجد له تفسيرا منطقيا!

كما حدثني محمد الطاهر عن قيامه بطلاء جدران الجامع مرة في العام احتفالا بقدوم شهر رمضان الكريم، وقد كان طيلة الشهر يتفانى في خدمة عباد الرحمان أكثر من بقية الشهور الأخرى؛ يفرش السجاد مع عصر كل يوم في ساحة الجامع،

ويضع براميل الماء البارد، والأكواب بالقرب منها، ويسهر على نظافة وتزيين وتعطير الجامع بصورة تجعل من يدلف إلى داخله يحب هذا الرجل الطيّب ويدعو له.

اكتشفت أن سي محمد الطاهر يهوى موسيقى المالوف العنابي، وكان يجيد العزف، وصوته شجيّ وبه بحة تجعل القصائد الأندلسية تخرج من حنجرته أكثر شذا، وتمسحها بمسحة حزينة من الشجن تمزّقُ القلب وتدمي الفؤاد. لم يكن يغني لأي أحد، فقط كان يرضخ للغناء والطرب تحت طلباتي المتكررة ورجائي له، فقد كنت أعرف من أين تؤكل الكتف. وفي تلك الأمسيات التي أقضيها معه كنت أستمتع بمنظر الوادي والقنطرة الرومانية الطويلة والجميلة التي كانت تربط بين جامع سيدي إبراهيم والطاباكوب، اللذين سيغيب أثرهما، ولم يعد لهما أي وجود بعد أن يتم خنق ذلك الجزء الجميل من الوادي بالتراب وتهديم القنطرة دون سابق إنذار وعن سبق إصرار وترصد، بعد سنوات بقرار مفاجئ وصادم من والي المدينة آنذاك.

أعتقد أن مبعث ترددي على سي محمد الطاهر يعود إلى شيء لازال عالقا في داخلي، إلى حنين دفين لصديقيّ عبد المجيد بن منصور ومومو حيون، إلى لحظات ترددي على مزارات وأضرحة تطوان برفقة مومو، وإلى صعودي إلى ضريح لَالَّة سَتِّي، وترددي على ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، أو سيدي بومدين بصحبة عبد المجيد.

هكـذا ولفـترة طويلـة ظللـت أتـردد عـلى جامع سـيدي إبراهيم، وعـلى سي محمـد الطاهـر، وأقـضي معـه بعـض السـاعات خصوصـا في الأمـاسي، إلى أن قصـدت الجامـع في عـصر يـوم خريفـي، وعـلى غـير العـادة لم أعـثر عـلى سي محمـد الطاهـر، فتشـت عنـه في كل مـكان ولمـا يئسـت قـررت الرحيـل.

عندمـا كنـت أشرع في الابتعـاد عـن بوابـة الجامـع، خـرج لي شـيخ يرتـدي ثيابـا بيضـاء، سـألني:

- عما تبحث؟

لما أخبرته بمقصدي رمقني بنظرة استغراب، وفاجأني جوابه:

- أنـا هـو القيِّـم في هـذا الجامـع مـن سـنين طويلـة ولم يمـر علينـا رجـل بهـذا الاسـم قـط.

كررت:

- أمتأكـد.. سي محمـد الطاهـر، لطالمـا التقيتـه هنـا، وأمضينـا أمسـيات بطولهـا معـا.

بُعَيْـدَ ذلـك اللقـاء سـاورتني العديـد مـن الشـكوك بشـأن وجـود محمـد الطاهـر مـن عدمـه، وهـل هـو حقيقـة، أم شـخصية كنـت أتوهـم وجودهـا؟ وهـل يعقـل أن يكـون هـذا الرجـل الـذي التقيـت بـه مـرارا وتكـرارا، ودامـت جلسـاتنا سـاعات بأكملهـا، ودارت بينـما أحاديـث وحكايـات وروايـات يعلـم اللـه بهـا، أيعقـل أن جـلّ النـاس هنـا لا يرونـه، هـل كنـت أُحَـدِّثُ طيفـا أراه أنـا

فقـط ولا يـراه غـيري؟!

وفي عـصر يـوم جمعـة بعـد مـضي سـنتين وبعـض الأشـهر عـلى آخـر زيـارة لجامـع سـيدي إبراهيـم، تلـك الزيـارة التـي جعلتنـي نهبـا للحـيرة والذهـول، تصـادف وأن انتبهـت لرجـل يرتـدي قميصـا قمحـيَّ اللـون، وتبانـا أخـضر فـوق الركبـة بقليـل، وقبعـة مسـتديرة ذات لـون رمـادي، عينـاه مختبئتـان خلـف نظـارة شمسـية سـوداء، كان يرمقنـي بطريقـة غريبـة لم استسـغها. ومـا أن توقفـت، حتـى لمحـت الرجـل قادمـا صـوبي، كنـت أحـدق فيـه مليـا، شـبه إليّ، لكن لم اهتـد لمـن. وإذ ذاك وأنـا غـارق في حـيرتي تلـك، حتـى اقـترب منـي الرجـل، وقـال دون انتظـار:

- ما بك يا عبد القادر، ألم تعرفني، أنا محمد الطاهر.

كنـت جاثمـا في مـكاني عـلى وقـع الصدمـة والمفاجـأة الغريبـة، أيكـون هـو، مسـتحيل.. مسـتحيل. هـل هـو حقيقـة من لحـم ودم، أم وهـم صنعتـه أنـا مـن خيـالي الخصـب؟ فيحـدث وأن تُخَيَّـلَ لي أمـور غريبـة، وغـير منطقيـة تمامـا، وفـوق قـدرات العقـل. وأنـا سـارح في التفكـير، أضرب أخماسـا في أسـداس إلى أن أومـأت لـه شـابة في كامـل تبرجهـا بطريقـة مريبـة، يبـدو أنهـا كانـت تنتظـره أو عـلى موعـد مسـبق معـه.

تركنـي عـلى حـيرتي، وانـصرف مـن دون أن يودعنـي أو حتـى يسـتأذن. فقـط غمـز لي بعينيـه اليـسرى وغـادر بصحبـة تلـك الشـابة بعـد أن طبعـت قبلتـين طازجتـين عـلى خديـه، وهـي تجـتر

علكتها وتداعب شعرها المنسدل بشيء من الإثارة المصطنعة.

بقيت متسمرا في مكاني أحدق فيهما، كان يتأبط ذراعها، وهي تتمايس ذات اليمين وذات الشمال، وكعبها العالي يخرق الرصيف بشكل لافت للأنظار، إلى أن اختفيا وسط الحشد، في الأثناء تركت سحابة عطر خلفها، وبقيت تلك الرائحة عالقة في أنفي إلى غاية اليوم. ومن ذلك اليوم لم أره قط، ولم أهتد لأي جواب عن تساؤلاتي بشأنه.

في النهاية أكاد أجزم أن وجودي في جامع سيدي إبراهيم، واجتماعي بسي محمد الطاهر ليس عبثا، ولا يمكن أن يكون مصادفة تحدث لأي كان. إنه شيء يصعب شرحه أو تفسيره، لكنه ما يشبه القدر الذي لا رد له. ومع اختفاء سي محمد الطاهر، أو مع اكتشافي أنه محض أوهام صدقت أنها حقيقة، ألفيت نفسي كلما يضيق صدري وتتعسر أموري أقصد البحر، لا ملجأ لي غيره.

كنت أجلس على صخور القطارة بمحاذاة شاطئ النصر، أقفز فوق الدرابزين الحديدي الأزرق، وأنزل المنحدر الصخري بحذر كي لا أسقط. بعد لحظات، لما أصل، أتوقف عند مكاني الخاص الذي أعرفه ويعرفني، من كثرة ترددي عليه، الموقع نفسه، والصخرة ذاتها، نشأت بيننا علاقة خاصة وحميمية. لا شيء تغير، حتى مفهوم الزمن يتوقف هنا. أقف مشدوها أمام منظر البحر الأزرق وهو يطوق المدينة بحنو وعشق، أتوق بشدة إلى هذه اللحظة، لا أملّ من رؤية هذا المنظر،

فبالنسبة لي لا منظر يضاهيه، غير منظر جبل الإيدوغ وهو جاثم بكل رهبته وجلاله يحرس المدينة، عيناه مفتوحتان، لا تنامان إطلاقا.

أغرق في تأمل الأمواج في ذهابها وإيابها، وارتطامها بالصخور، ومن حين لآخر أنتعش برذاذها الذي يبللني. أستفيق من سرحاني، ثم تأتي لحظات أخرى أسهى فيها وأنا أتتبع النوارس العنيدة، التي لا تتوقف عن الصخب والمشاكسة.

بين الصخور القريبة مني يتوارى مجموعة شبان وحتى بعض الأطفال، يحتسون البيرة، أو ينفخون في أكياس البتاكس للانتشاء، أو يبرمون سيجار حشيش، أو يسرقون بعض اللذة مع فتيات مراهقات متسخات ومتشردات في أغلب الأحيان.

كما هناك صياد أو أكثر في المكان، يترقب تحرك خيط صنارته بصبر أيوب.

لا أكاد أراهم، أو أسمعهم، أو أشعر بهم. كأن الخرس والعمى أصابني، فكل حواسي أضحت في هذا المكان تعمل بانتقائية غريبة، لا أكاد أفهمها. هم خارج عالمي. أنا بمثابة حصاة في عالمي الأرحب.

أحيانا أحسد أموات مقبرة زغوان على موقع المكان الذي يرقدون فيه، في المرتفع خلف ظهري الذي يطل على هذا المنظر الآسر.

لـو لا ذلـك الشـاب الـذي عكـر عـلي صفـو خلـوتي بتداعيـه الحـر في الحـكي، دون سـابق اسـتئذان، لمـا اسـتفقت مـن ذاك الحلـم الجميـل. لم أرغـب في أن أحرجـه، بسـبب لطفـه وطيبتـه اللذيـن غمـرني بهـما. رائحـة الخمـرة تفـوح مـن فمـه، لكنـه لم يثمـل، وجعلنـي أصحـو مـن ثمالتـي.

كـما كنـت أتأمـل مـن مرتفـع رأس الحمـراء طيـور النـوارس ولـون البحـر وهـو يتحـول إلى أزرق فـيروزي آسر. أتجـرد مـن كل الضغـوط فيـما تـتراءى لي مـن بعيـد بعـض السـفن وبواخـر الصيـد. تنتصـب المنـارة شـامخة أمامـي والصخـور العظيمـة محاطـة بهـا في مشـهد يثـير الرهبـة.

لمـا كنـت بصـدد ركـوب الحافلـة التـي سـتقلني إلى البـوني، مـرَّ بجانبـي قطيـع مـن أطفـال المـدارس، يصيحـون، ويصرخـون، ويتدافعـون، ويصطكـون، ويتضاربـون، ويتعاركـون في مشـهد يثـير الشـفقة والاشـمئزاز كأن القيامـة قامـت. إلى أن بـدأ أكبرهـم في الغنـاء وهـم يـرددون مـن خلفـه، أمـا أنـا فكنـت أتـألم في داخـلي بعمـق، كلـما أسـمع الأطفـال يـرددون تلـك الأغنيـة: «يـا طيـارة نعلبـوك جيبـي بابـا مـن المـروك»، ليتحـول هـذا الألم فيـما بعـد إلى أسى عميـق يعصـف بي في كل المتاهـات لأيـام متتاليـة.

هـؤلاء الأطفـال حالمـا يـرون طائـرة تحلـق في السـماء يصدحـون بتلـك الأغنيـة بتناغـم غريـب وبصـوت واحـد كأنهـم تمرنـوا عليهـا باقتـدار، وهـذا الأمـر كان يتكـرر كثـيرا في اليـوم الواحـد خصوصـا وأن مطـار «رابـح بيطـاط» لا يبعـد إلا بكيلوميـترات قليلـة عـن

وسط المدينة، وعن الحي الذي أقطن فيه. كانت الحرب بين البلدين والصراعات التي تلتها أسبابا مباشرة في إذكاء خيال الأطفال لابتكار هكذا كلمات مشينة وعنصرية.

كلما أتصادف مع هكذا موقف كنت أشعر أنني المعني الوحيد وأنهم لا محالة يقصدونني أنا، لا أحد غيري، على الرغم من أن هويتي الحقيقية غير معروفة لدى الكثيرين. كأنهم يوجهون سهام كلماتهم الحادة إلى صدري المثقل بكل الهموم، هكذا كنت أرى الدماء النازفة من داخلي تتدفق بغزارة كلما ردد أطفال الحي أو أطفال الأحياء المجاورة أو البعيدة كلمات تلك الأغنية.

استمر الأمر معي لعقود حتى غدا من تفاصيل المشهد، ومن تكراره الفج اعتدت عليه، ولم أعد أتبرم إطلاقا من هؤلاء الأطفال. إلى أن توقف تلقائيا بالتقادم مع مرور الزمن، حيث انقطع توارث تلك الأغنية بين أجيال الأطفال ولم تعد شائعة وغدت كلماتها مهجورة إلا فيما ندر.

هناك بابان لا يزالان مشرعين على مصراعيهما في ذاكرتي، باءت كل محاولاتي في إيصادهما بالفشل، ظلا يستنزفان طاقتي وروحي المتعبة ويهتلكان عمري المتبقي دونما توقف، كسيارة تسير بسرعة جنونية في منحدر خطير تستحيل السيطرة عليها، فما بالك إيقافها بعد أن فقدت مكابحها. مهما حاولت أن أتناسى أحداث ذاك الماضي، إلا وكانت في المقابل تقتحم حياتي بصورة فجة وصارخة جدا، حيثما ذهبت وفي أي جهة من

جهات الأرض بلغت، أو أنما وليت وجهي إلا وكانت تصدمني تلك الصور المتابعة التي أبت أن تفارقني في صحوي ونومي ويقظتي وغفلتي، كنت أراها دوما في كوابيسي وهلاوسي وهذياني ووعيي التام كأنها مرت قبل لحظات أو بالأمس القريب فقط، وليس مضى عليها عقود طويلة من الزمن!

ظلت صورة ابنتي زكية لا تفارقني، كما ظلت صورة أعين السيدة جاكلين زوجة المُعَمِّر غابريال غومون وأبنائه الصغار، وملامح وجوهم الكسيفة والكسيرة وهم يستجدوننا ويطلبون رحمتنا في صمت كالجروح المفتوحة التي لا تتوقف عن النزيف. كانت ذكرياتي مرتبطة دوما بوفاة ابنتي زكية وبحادثة قتل المعمر الفرنسي غابريال؛ كان من المقرر أن نُصَفِّي المُعَمِّر خلف بيته، وبالضبط في المرآب، لكن رصاصة غاضبة اندفعت من ماسورة بندقية رفيقي لخضر بونوة، أنهت كل شيء لما اخترقت جسده.

كان حريا بي أن أمنع وقوع هذا الخطإ الفادح من قبل حدوثه، لما أثار حفيظتي إدراج لخضر بونوة معي في هذه المهمة، ساورتني الشكوك بخصوص اندفاعه وتهوره، وهل هو أهل لأداء هكذا مهمة تتطلب الدقة وبعض الترتيبات التي لا يجب القفز عليها؟ لكن لم أحرك ساكنا. والمتعب جدا في الأمر هو أنني أتذكر تينك الحادثتين بكل تفاصيلهما حتى تلك الصغيرة والدقيقة وكأنهما حدثتا للتو. وحين أستعيد تلك اللحظات المظلمة في حياتي واسترجع دقائقها وكل حيثياتها،

أدرك أن الأمـر الوحيـد المشـترك بـين هاتـين الذكرتـين هـو كـمّ الألم الكبـير ومنسـوب الوجـع العظيـم المترتـب عـن تحولهـما إلى حقائـق ووقائـع وكأنهـا تحـدث الآن، ولا معنـى إطلاقـا مـن إخفـاء أي شيء أو الهـرب منـه، فالذاكـرة سـتفضح سريتـه، وأمـام سـلطتها وسـطوتها لا يمكـن أن يبقـى أي شيء خفيـا أو متضائـل الحضـور. فبإمكانهـا دون أدنى شـك أن تضاعـف أثـره وتعظمـه، فهنـا بالـذات لا مـكان صالـح للاختبـاء ولا مجـال للاختفـاء أو التـلاشي، فأمـام الذاكـرة كل تلـك اللحظـات حـاضرة بقـوة وطاغيـة عـلى غيرهـا.

في الكثـير مـن الليـالي دومـاً مـا تطـاردني الكوابيـس ذاتهـا، كنـت أسـقط عـلى الأرض وأنـا نائـم، أحـاول أن أحـرك أطـرافي لا أسـتطيع، أرغـب في الوقـوف فـلا أقـوى، كأننـي مشـلول وجنِّـي عظيـم يشـبه الـمُعَمِّر غابريـال، جاثـم فوقـي ويكبلنـي، يضغـط بأصابعـه الهائلـة عـلى رقبتـي، أشـعر بالاختنـاق. لمـا أحـاول ثنيـه أو أرغـب في إطـلاق صرخـة بعـد أن أعجـز عـن مقاومتـه، يكتـم عـلى أنفـاسي، ثـم يدخـل يـده كلهـا في فمـي، ويسـحب لسـاني بشـدة، إلى أن ينتزعـه دون أن تندلـق قطـرة دم. يلـف نفسـه حـولي مـرة أخـرى، ويشـدّ أكـثر فأكـثر، وكلـما حاولـت أن أطلـق زفـيراً، زاد الجنـي العظيـم ضغطـه، يعـصرني إلى أن أختنـق تمامـا. ثـم يفتـح فـاه عـلى أخـره حتـى تظهـر مـن مؤخرتـه أسـنان مُحَـوَّرة أشـبه بالأنيـاب، يبتلعنـي مـرة واحـدة كقطعـة كاملـة، دون أن يمضغنـي، أو يطحننـي، أو يقطعنـي!

دومـاً مـا كانـت سـكينة تسـتيقظ عـلى صراخـي المـدوي، وغالبـا

ما كنت أفزعها لما أتحدث وأنا نائم بصوت مرتفع. الكوابيس التي تلاحقني تجعلني استيقظ مرات عديدة، بعدها كنت أمضي بقية الليل أتقلب في الفراش. يستبد بي النعاس، لكن لا تقوى جفوني على الرضوخ له. أحيانا لا أبرح السرير، أشعر بعضامي تؤلمني بشدة كما لو كنت قد حملت فوق ظهري كل أوزار العالم، أو عملت طوال النهار بمشقة كعتال بائس يشقى خلف لقمة عياله. وفي مرات استيقظ في الساعة الواحدة صباحا لأفرغ مثانتي، ومرة أخرى في الثانية، وفي الثالثة أذرع الغرفة أو رواق الشقة، وفي كل ساعة تقريبا استيقظ. ولا يعرف لي النوم طريقا، ورأسي لا يتوقف عن التفكير واستعادة ذكريات الماضي، كما أن الانتظار يتلاعب بي وينهش صبري، إلى أن تفاجئني أولى خيوط ضوء النهار الجديد وهي تتسرب بخجل من الفراغات الطفيفة على البرسيان الخشبي للنافذة. أظل أراقبها بحسرة حتى أنام ثانية بانقطاع، وهكذا دواليك. ولما استيقظ لا اعرف بالضبط المدة التي نمتها، كما لو أنني فقدت الاحساس بالزمن.

كما كانت تظهر لي في المنام ابنتي زكية، وجسمها مغطى كله بالجراح، ووجهها مليء بالندوب والقروح، وشفتاها الرقيقتان مدهونتان بالدماء، وفي أعلى رأسها تظهر ندبة كبيرة مفتوحة، متهيجة، ويخرج منها القيح. أسمالها بالية، وممزقة، ومبللة بسائل أسود، كأنها حيوان مستنقع. بينما أنا كنت اهتز وأرتجف وأنفاسي متقطعة، ونبضي متسارع، وروحي ضيِّقة تكاد تنطبق عليّ، وكنت أرغب في الصراخ والبكاء، لكن من دون

جدوى. وكلما كنت أحاول الهرب، كانت زكية تتشبثّ بطرف سترتي، إلى أن تتمزق تماما. ولما تقيدني بحزام جلدي غليظ، كانت تبدأ في لطم وجهها وجبينها على الحائط، ثم تشرع في البكاء، كانت دموعها حمراء قانية، إلى أن تحدق في مقلتي وهي تشير بسبابة يدها اليمنى صائحةً في وجهي المنقبض: «أنت لا تستحق شيئا، لن أسامحك، سأكون كالشوكة في حلقك، لن يهنأ لك بال». ومن شدة الفزع والهلع الذي أصابني من مشاهدتها، والشعور بالذنب والاستياء من سماع تلك الكلمات التي قذفتها في وجهي، كنت جاثما في مكاني، راضخا، مكبلا، لم أتحرك قيد أنملة. إلى أن تدفعني من فوق جرف مرتفع، لا أدري كيف وجدتُني هناك، كان جسمي يطير ويهوي في متاهة السقوط، كنت أراني أغيب، كما تغيب الشمس لحظة الغروب، لكن الشمس بإمكانها أن تظهر في صباح اليوم الموالي، بينما غروبي كلي ونهائي، ولا شروق لي بعده.

كنت أرى جسدي ككتلة في الفراغ، ستنتهي نحو القاع المظلم، كما ينتهي أي شيء آخر، ولم يعد له صدى أو رجع صدى، لا ملاذ آخر أفر إليه، أنا في نقطة عدم الرجوع، لا مهرب من الموت التي فردت لي أجنحتها وشرعت ذراعاها في القاع بانتظاري، وأنا ماضٍ نحوها مستسلما لقدري، كنت أهوي إلى القاع دون أن أصل إليه، ظللت في سقوط مستمر، لا نهاية له، حتى التهمني ضباب كثيف وابتلعني الفراغ العظيم.

III

ذاك الجحيم هو ما حصل!

«إن متُّ بينكم يوماً

لا تُقسموا بخلاص روحي، لا صدقا

ولا حتى زوراً».

صالح القرمادي (١٩٣٣-١٩٨٢).

-١٦-

كنت متمددا على سريري، سارحا بخيالي في عوالم بعيدة، كأنني غير موجود. غالبا ما كنت أغيب عن جل ما يحيط بي حالما أشرد في تفاصيل وجوه أو حكايات مضى عليها زمن طويل، أدخل في حالة سفر معنوي مع ذاتي، أنقطع عن اللحظة الحاضرة وأدلف إلى عالم آخر لا أحد يعرفه غيري.

فجأة قطع علي الطرق العنيف والمتواصل على الباب خلوتي الجميلة تلك. في البداية لم أنتبه لجرس البيت وهو يلعلع، ثم تكاسلت عن الاستجابة للدق على الباب، ظنا أن ابن أحد الجيران جاء ليطلب البصل أو الثوم أو أي شيء آخر، فعلى الرغم من زجري لهم وتذمري الصارخ من سلوكاتهم تلك، إلا أنهم لا يتورعون عن التوقف عن عاداتهم المقيتة تلك. أو أن أحدا منهم جاء يتأبط كتابه أو كراسه تحت إبطه بتكاسل أملا في الاستعانة بأحد أبنائي في حل مسألته المدرسية العالقة، كأن لا أحد متعلم من بين كل سكان العمارة سوى أبنائي!

لكن الضرب العنيف على الباب الفولاذي الخارجي تواصل صعودا بشكل أفزعني، أعتقد أن من يقف خلف الباب كان يضرب بقبضة يديه بأقصى قوة ممكنة، حتى كأن الباب يكاد ينقلع من إطاره الحديدي المثبت على الجدار. الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد تصاعد الضرب على الباب بشكل عظيم إلى أن استحال إلى ركلات بالأرجل، من عدد الركلات أعتقد أن هناك أكثر من شخص يقف خلف الباب الخارجي.

لم يكن الوقت أمامي متاحا أكثر للتفكير أمام الضرب العنيف الذي لم يتوقف ونظرات وهلع سكينة المفجوعة التي كادت أن تقذف بروحها أمامي من شدة الفزع. هرعت للباب مهرولا، لما أدرت القفل الأول ثم الثاني، لم يسعفني الوقت حتى أفتح الباب، فهناك من دفع الباب بقوة من الخلف، حتى فقدت توازني وكدت أن أسقط أرضا، لو لا أن أحدهم مد لي يده وانتشلني من سقوط مؤكد.

لم أنتبه لتفاصيل ملامح وجوهم المتشابهة والصارمة والحادة، عدا أن عددهم كان كبيرا، وكانوا يصرخون في وجهي. أزاحوني أنا وسكينة في زاوية في المطبخ، حيث تقبع الطاولة المستديرة بكراسيها الأربعة، وتفرقوا مسرعين، توزعوا على غرف البيت، كأنهم يطاردون شخصا ما أو بالأحرى يبحثون عن هارب من قبضتهم تسلل خفية من خلف الجدران إلى بيتي من دون أن ننتبه له.

كان المشهد غير مألوف بالنسبة لي، عدا أنه ذكرني بصور

اقتحامات الأمن والجيش الفرنسيين على بيوت الجزائريين إبان فترة الاستعمار. كما أعادني إلى فترة أقرب بعض الشيء، مرحلة التسعينيات الدموية، حيث عاشت الجزائر أسوأ حروبها، إذ كان الابن يغتال والده، والأخ يذبح أخاه من الوريد إلى الوريد!

كنت في المطبخ أسمع صفق أبواب خزانات الملابس، وصوت أدراجها الخشبية وهي تتهاوى على الأرض، والجلبة الكبيرة التي كان يحدثها تحريك وإزاحة أسرة النوم وغيرها من موجودات الغرف. من خلال الضجيج الذي أحدثوه والأصوات التي كانت تصلني، فهمت أنهم قلبوا البيت على رأسه. وأحالوه إلى فوضى عارمة!

لكن ما لم أعه، وما كنت في الحقيقة عاجزا عن إيجاد جواب شاف له في قرارة نفسي، هو مبعث فعلتهم تلك، والدافع الذي حملهم على تصرفاتهم المجنونة والهستيرية تلك؟ فقد قلبت كل شيء في رأسي، ولم أصل لأدنى نتيجة أو أي رابط ما يخرجني من حيرتي التي استبدت بي!

قلبت الحاضر والماضي، كل أحداثهما بتفاصيلها المملة والرتيبة، راجعتها الواحدة تلو الأخرى، وقلبت مشاهدها في ذهني صورة بصورة، لكن من دون جدوى! كنت لحظتها نهبا لكل الشكوك العابرة والظنون المحتملة، والتي كانت تتوزعني وتقذف بي في كل الاتجاهات والدروب الضيقة والمظلمة، أحسست بضعفي المزمن وعجزي الفادح، حتى أنني تصورت نفسي أحقر من ورقة يابسة تتقاذفها الرياح أينما شاءت.

كان وقـع الانتظـار والترقـب أكـثر ثقـلا. لم يبـق أمامـي مـا أراهـن عليـه، سـوى الزمـن، فهـو الكفيـل بـأن يعرفنـي بالأشـياء التـي غابـت عـن إدراكي، هـو مـن سـيكسر جـوع فضـولي القاتـل. فقـد كانـت حركتـه مملـة جـدا، ومطنبـة في الرتابـة. وكنـت أسـيرا لظنـوني وعاجـزا عـن فـك خيـوط مـا يحـدث حـولي، إذا خذلنـي الزمـن كـما خذلتنـي الكثـير مـن الأشـياء الأخـرى التـي سـبق وراهنـت عليهـا. بصراحـة نفـد صـبري، وبـت عاجـزا عـن الاسـتمرار في أداء دور الرجـل اللبـق والهـادئ. لم أعـد أدرك أي شيء، غشـاوة عـلى عينـي. بـت كالأعمـى، إلى أن انفجـرت صارخـا في وجـه أقـرب واحـد منهـم، كان عـلى مرمـى بـصري، ذاك الواقـف في رواق البيـت غـير بعيـد عـن خزانـة الأحذيـة:

- كيـف تسـول لكـم أنفسـكم فعـل ذلـك؟ أنتـم لا تعرفـون مـن أكـون، طبعـا فأنتـم ولدتـم البارحـة فقـط. لـو لم نكـن نحـن لمـا كنتـم اليـوم تنعمـون بالحريـة.

وفي الحـال صـاح في وجهـي بصوتـه الحـاد، رافعـا الكلاشـينكوف بيـده اليمنـى إلى الأعـلى بحركـة لا إراديـة تـشي عن غضبه الشـديد:

- أسـكت يالحـاج، لا ترغمنـي عـلى التـصرف معـك بطريقـة أخـرى قـد لا تحبهـا. ألـزم مكانـك وألتـزم بالصمـت. وإلا...

قطبـت حاجبـي وقلـت لـه في ثقـة مفرطـة عـلى الرغـم مـن أن طـرف فمـي بـدأ في الارتعـاش مـن شـدة غيظـي:

- إلاّ مـاذا؟ أنـت لا تعـرف مـن أكـون، سـتندم. لـن أتركهـا لـك

تمـر هكـذا دون حسـاب. سـأتصل بمسـؤوليك، وسـتدفع ثمـن كل كلمـة تفوهـت بهـا.

وبعـد أن تطلـع في وجهـي في صمـت برهـة زمـن، قـال وهـو عابـس السـحنة بعـد أن أخـرج صـدره، كأنـه لم يأبـه لنـبرة كلامـي:

- نحـن في مهمـة رسـمية، وهـا أنـت بسـلوكك هـذا تعرقـل رجـال الأمـن أثنـاء أدائهـم عملهـم وواجبهـم المهنـي. يجـب أن تتوقـف عـن تهديداتـك التـي لا طائـل منهـا. وأن تدخـر جهـدك وقوتـك للخـروج مـن ورطتـك.

ابتعـدت عنـه، وعـدت أدراجـي مرتـدا القهقـري حيـث مـا زالـت سـكينة جالسـة عـلى الكـرسي ويداهـا حـول رأسـها، ثـم سـاد صمـت طويـل. لـو لا ضجيـج الأصـوات المنبعثـة مـن الغـرف الـذي كـسر الهـدوء. في غرفـة الأولاد أحـدث رمـي الأغـراض والموجـودات بعـض الجلبـة، فقـد كانـوا ينبشـون كل شيء، ويفتشـون في كل مـا يقـع تحـت أيديهـم ثـم يلقـون بـه كيفـما اتفـق. ظللنـا أنا وسـكينة جالسـين عـلى كـراسي طاولـة المطبـخ بـلا حـراك، نـضرب أخماسـا بأسـداس، وهـم يقلبـون البيـت رأسـا عـلى عقـب. لم يكـن بوسـعي معرفـة مـا يـدور في أذهانهـم الآن، عـلى الرغـم مـن الجهـد الكبـير الـذي بذلتـه في التفكـير في الأمـر. لم يكـن أمامنـا إلا الانتظـار، لا نملـك شـيئا آخـر غـيره. انتظـار مـا ستسـفر عنـه الهيسـتريا التـي اجتاحتهـم!

بعـد أيـام تـم اسـتدعاؤنا أنـا وسـكينة وسـعيد مـن قبـل

الشرطة ثم الدرك، وخضعنا إلى تحقيقات طويلة ومتتالية حول أسباب اختفاء ابني ادريس. لم أت لهم على ذكر سيرة الدفتر والمفكرة اللذين عثر عليهما ابني سعيد في غرفة نومه وسط الأغراض والملابس المبعثرة فوق بعضها البعض كيفما اتفق. لقد احتفظت بهما في خزانتي ولم أجرؤ على فتحهما وقراءة ما احتواه باطنهما.

وفي ضحى يوم من الأيام التي تلت تلك التحقيقات المرهقة والمضجرة قررت خوض المغامرة، اقتربت من الباب الجانبي للخزانة المحاذي للحائط، ظهرت صورتي شاحبة على المرآة، لم أتردد، فتحت الباب بالمفتاح المثبت فيه، امتدت يدي تحت الملابس المرصوفة فوق بعضها البعض، سحبت الدفتر والمفكرة، تأبطتهما كأنني أحاول إخفاءهما على الرغم من أنني كنت بمفردي في غرفة نومي.

جلست على طرف السرير، وشرعت في فتح الدفتر الكبير ذي اللون الأحمر المرجاني، وبعد هنيهات امتدت أصابعي للمفكرة الصغيرة ذات اللون الأخضر الغابي، كنت أقلب الصفحات تباعا، الأسطر كانت مرتبكة ومائلة وكبيرة لدرجة أنها بدت كأنها متداخلة في بعضها البعض، لولا الخطوط الرفيعة في الصفحات لتعذر علي فك طلاسمها. اكتشفت أنها ما يشبه اليوميات أو الانطباعات مدونة بخط ابني إدريس. اعتدلت في جلستي، بعد أن أخذت نظارتي من فوق الطاولة المحاذية لزاوية السرير، ثم شرعت في القراءة.

-١٧-

الدفتر الكبير ذو اللون الأحمر المرجاني

لم أكن ألعب وأشاغب كباقي الأولاد، ولم أعش طفولة طبيعية كما ينبغي لمن هم في مثل سني، فقد مررت بأوقات عصيبة وحرمت من التمتع بأبسط ما يرغب فيه طفل صغير.

أكره تذكر تلك الأوقات وقسوتها غير المحتلمة، كل ما مررت به زاد في انعزاليتي، وقضى على كل مشاعري، بت أكثر انطوائية مقارنة بأترابي، وأضحت علاقتي بالأشياء وبمن هم حولي باردة جدا، ولا تطاق. فلا غرابة أن لا تعتريني مشاعر الفرحة عند الحصول على علامة جيدة، أو عند سماع خبر نجاحي بتفوق، أو أثناء ظفري بأشياء أو ثياب جديدة.

تحالفت ضدي كل الظروف السيئة، وغالبا ما كان مناخ البيت والمدرسة من صنع هواجسي تلك، ففي البيت كان أبي، وفي المدرسة كان زملائي. وعند الحديث عن المدرسة ومحيطها؛ غالبا ما كان جلال كواشي أهم سبب في كل بلاء حل بي هناك، فقد عانيت مرارا وتكرارا من ميوله العدوانية، وكان مصدرا

لأغلب المشاكل التي حدثت بيني وبين زملائي في الدراسة.

كان بشعا إلى درجة لا توصف، بصوته البوق، وقامته القصيرة، وجسمه الفائض وكرشه العظيمة. أما جمجمته الكبيرة المنفرة، وخصوصا جبهته المسطحة، فغالبا ما كان يستغلها كميزة تمنحه الأفضلية في العراك والمبارزة، فكثيرا ما كان يسقط منافسه مغشيا عليه بنطحة قاضية، لا ينفعه معها الصراخ أو التلوي. كنت أبذل جهدا كبيرا كي أتجنبه وأتفادى شره وتعنيفه، اضطر مكرها إلى تحمل الضجر والملل الذي ينتابني أثناء جلوسي في المقاعد الأولى من الصف الدراسي، وتحمل المعلمات البائسات وطلباتهن التي لا تنتهي؛ «إدريس امسح السبورة. جاوب على السؤال. أكتب الحل في السبورة. أحرس زملاءك أثناء خروجي»، وغيرها. لأنه غالبا ما كان يختار المقاعد الأخيرة.

هو مخلوق غير مهذب ونزق وعدواني، الواقع أن كل سلوكاته وأفعاله المشينة لا تمت بصلة لبراءة الطفولة، له جرأة غير متوقعة، لا يعرف شيئا اسمه الخجل أو التراجع، فهو مؤهل وقادر على فعل أي شيء، لائق أو غير لائق، مستحيل أو غير مستحيل. لا يوجد شيء في قاموسه اسمه عيب، أو غير مقبول، أو غير ممكن، كأن وجهه مطلي بالغائط.

دوما ما كنت ضحية هجماته المباغتة وغير المتوقعة، لديه رغبة كبيرة في إذلالي وجعلي مثار سخرية أمام الجميع، أنا دون غيري! يسخر من نبرة صوتي، ومن طريقة كلامي وجلوسي ووقوفي، ومن حركاتي وسكناتي، ومن جل ما أقوم به!

لم أر طفلا آخر في مثل سنه له هذا القدر الكبير من الميول والغرائز الحيوانية المتوحشة. فلم أفلح أنا التلميذ المهذب والودود والمسالم في تجنب الوقوع في شرك السوء الذي غالبا ما كان هو من يقف من ورائه، ولم أقو على التعايش مع ما كان يفرضه علي من شروط، وما يتلفظ به في حقي، وتهديداته المتكررة، وتوعداته التي لا تتوقف. ولم أفهم إلى غاية اليوم لماذا هذا الكائن مطبوع على الكراهية والشر إلى هذا الحد؟

أعترف بقدرته الخارقة على اختيار الكلمات وبناء المعاني، فقد كان يمتلك موهبة فطرية في هذا المجال، لا يجاريه فيها أحد؛ يختلق شعارات وأغانيَ باحترافية بالغة تتجاوز ملكات من هم في مثل سنه، ولو لم أكن أعرفه عن قرب لما صدقت أنه صاحب تلك الكلمات. دوما ما كان يعترض تلاميذ السنة أولى ابتدائي، ويردد: « سنة أولى يا البغولة، نهار الجمعة تجيكم الغولة».

أعتقد أن تعوده على الذهاب مع والده إلى الملاعب، واختلاطه بأجواء المباريات الساخنة التي تخوضها فرق حمرا عنابة واتحاد عنابة بكل ما فيها من تنافس وهرج ومرج الأغاني والشعارات والهتافات الرياضية، هو سبب بروز تلك الموهبة لديه في سن مبكرة. كانت كلماته وشعاراته وأغانيه تنهل من منبع التهكم والسخرية والاستهزاء بالآخرين، وخصوصا الفرق المنافسة. ومن حظي العاثر وقدري المشؤوم أنه كان لي نصيب من ذلك، فقد كنت موضوعا خصبا تناولته

بعض منها. ولم تلبث أن انتشرت كالنار في الهشيم، تقاذفتها الألسن، وبات الكثير من زملائي في المدرسة يحفظها عن ظهر قلب، بسبب كثرة ترديدها وتداولها على نطاق واسع امتد إلى رفاقي في الحي الذي أقطن فيه. وأضحيت بسبب تلك الهتافات والأغاني أشهر من نار على علم.

لم أعد أطيق الخروج من البيت فما بالك تواجدي في المدرسة، كرهت ذاتي، وكرهت المدرسة وكل ما فيها.

كان يجدر بوالدي اختيار اسم أفضل لي، فلم أحس بأدنى رابط حقيقي بين اسمي وشخصيتي، لما كنت أقف أمام المرآة وأحدق في ملامح وجهي مطولا، وأتحسس حواسي، علني أعثر على رابط ما، عبثا كنت أحاول. هذا الاسم غير المتداول الذي أطلقوه علي غصبا لا يشبهني إطلاقا. وكان جلال أول من انتبه إلى تلك المفارقة الغريبة، ومباشرة بعد اكتشافه العظيم حولني إلى مجرد أهكومة يتقاذفها الجميع كالكرة بين الأرجل، وأصبحت كلماته الاستهزائية تثقل كاهلي وتنفرني من ذاتي. إلى درجة أنني كنت أرغب لحظتها في أن أخرج من جلدي، أو كنت أتمنى في قرارة نفسي لو ولدت بقوقعة عملاقة أشبه بقواقع السلاحف، أتمكن من الاختباء داخلها، كي تقيني من قذائف التهكم والسخرية التي يمطرونني بها؛ والتي تبدأ في القسم، ثم تنتقل إلى ساحة المدرسة المزدحمة بالتلاميذ، وتتواصل خارج أسوارها، كما قد تمتد في بعض الأحيان إلى الحي الذي أقيم فيه؛ فلا يتورع زملائي من رشقي بتهكماتهم

التـي قـد تصحبنـي مـن القسـم إلى بـاب العـمارة، أحمـل محفظتي الثقيلـة عـلى ظهـري، خافضـا رأسي، حاثـا الخطـى، لا ألـوي خلفـي، ولا أنبـس ببنـت شـفة. والجميـع خلفـي يـردد متتاليـة تهكميـة صـارت كشريـط مـشروخ مـن كـثرة مـا سـمعتها:

- «يا إدريس يا وجه التيس عمرك ما تركب في البيس..

يا إدريس يا خشم الكبريس عمرك ما تروح لباريس..

يا إدريس يا شعر الديس روح أسكن مع إبليس».

الأمـر لم يتوقـف معـي عنـد هـذا الحـد، سـواء أكنـت في البيـت، أو في أي مـكان آخـر، حتـى وإن لم يصـل إليـه أي طفـل يعرفنـي، ويعـرف حكايتـي. فـإن صـدى أصـوات هـؤلاء الأطفـال، وهـم يتفوهـون بتلـك التهكـمات، يظـل يـتردد عـلى مسـامعي بشـكل مسـتمر، ومـن دون انقطـاع. كأن هنـاك مـن يلاحقنـي أينـما ذهبـت، ولا يتوقـف عـن الهمـس بهـا في أذني.

ومـن سـنة دراسـية إلى أخـرى، صـار اسـمي إرثـا ثقيـلا، أثـر عكسـيا عـلى شـخصيتي ومظهـري وتعامـلاتي مـع النـاس؛ فلـم أكتـف بتفضيـل العزلـة وتفـادي الاختـلاط بأتـرابي، بـل أصبـت كذلـك بالتأتـأة، وبـت عاجـزا عـن النطـق بصـورة طبيعيـة. الأمـر الـذي زاد أكـثر في إذكاء نـيران السـخرية والاسـتهزاء منـي بشـكل مهـين ومـؤلم جـدا.

ومـع ذلـك كانـت حيـاة النـاس مـن حـولي تتغـير باسـتمرار، إلا

حياتي أنا؛ ظلت ثابتة على عهدها، غارقة في الرتابة والروتين القاتل، وحتى وإن تغيرت، فإنما للأسوإ. كأنني في حالة عدم تعيين، لا أقوى على الفكاك من بين فكي كماشة السيئ والأسوإ المسننة، فلا حيلة لي وأنا أراها تفعصني وتقضي على كل شيء بقى حيا فيّ، ولا أحد بإمكانه تخليصي من بين أسنانها الحادة. ألج بوابة المدرسة هرولة، كي لا يصطادني جلال، في الحقيقة كنت أحاول البقاء بمنأى عن المتاعب.

بالقرب من سور المدرسة ألمحه بطرف بصري، يدفن ثلاث نملات فرنسيس حمراء وثلاث عرب سوداء، ثم يواري عليهم التراب في الحفرة التي نبشها بأظفاره الطويلة السوداء. تصلني تعويذته وأنا أعبر بجنبه، كنت أتطلع من حولي، وأتوقف من حين لآخر، مررت بسلام دون أن ينتبه لوجودي، فهو متماه تماما مع ما يقوم به، لدرجة الانغماس والانفصال عمّا حوله، كمن يؤدي طقسا صوفيا. كنت أدرك الغاية من هذا الطقس المنتشر بين الأطفال الصغار في مرحلة التعليم الابتدائي، الهدف هو التسبب في إحداث حائل يمنع من حضور المعلمة إلى المدرسة، الإشارة الايجابية تأتي عندما تعجز أي نملة عن الخروج من تحت التراب، عندها يعم الفرح ويتعالى صراخ الأولاد ابتهاجا بتغيب المعلمة، وفي حالة حدوث العكس، يعم المكان صمت رهيب وضجر ثقيل، ويندفع الأولاد مخذولين إلى قاعة الدرس.

أما أنا فقد كنت مخذولا جدا، ليس بسبب حضور معلمتي

نادية، بل بسبب حرماني من مشاركتهم ممارسة الكثير من الألعاب والطقوس والهوايات التي أرغب فيها بشدة. الأولاد يكرهونني في المدرسة. ولا يرغبون في اللعب معي. لم أعرف ماذا يعني أن أعيش تجارب ومغامرات قد تتاح لمجرد طفل عادي؟ فلم أحظ في طفولتي بصديق حقيقي واحد يخفف عني وطأة حياتي البائسة، ويقاسمني بهجة الطفولة التي كبرت محرومة منها. لا، لا أتذكر أي لحظة أو أي شعور شاذ لم يساهم في دفعي نحو الانطوائية وجري إلى هوة العزلة القاتلة.

استسلمت للوحدة وهجرت الجميع بمن فيهم أقرب المقربين مني. لم أشعر ولا مرة واحدة أن الأطفال الصغار يرغبون في بناء علاقات صداقة متينة معي، كل ما حدث من علاقات، كان عابرا ومات في المهد. على الرغم من أنني كنت مستعدا للمضي بعيدا في هذا الشأن مع أحدهم، فقط لو كانت عنده رغبة، كنت أكثر استعدادا للبذل والعطاء.

نعم الوحدة كانت خياري الوحيد المتاح آنذاك، وبسبب ذلك تعايشت على مضض مع فكرة البقاء بمفردي طوال الوقت، بينما من هم في مثل سني ينعمون بكل ما تتيحه لهم الرفقة والصداقة من مزايا فقدت الأمل حتى بالحلم بها؛ كالذهاب للبحر صيفا ضمن مجموعة أصدقاء، والاستمتاع بالسباحة في الشواطئ الرملية أو الصخرية، الأمر الذي حرمني من تعلم السباحة، فأنا إلى غاية اليوم لا أجيد السباحة وأخاف البحر. ومشاهدة ذاك النوع الخاص من الأفلام في

سينما إفريقيا، حتى وإن كانت تعرض حينذاك على شاشة تلفاز صغيرة باستعمال جهاز قراءة أشرطة الفيديو. لندرة ذلك الجهاز وقتذاك في البيوت، كان الشباب والمراهقون وحتى الأطفال الصغار يتهافتون على بعض قاعات السينما للاستمتاع ولافتكاك لحظات من اللذة، ودوما ما كنت أتحسر عندما أسمعهم يكررون الحديث عن لقطات بعينها، لا زالت راسخة في أذهانهم، ويعيدون تصويرها بمتعة منقطعة النظير. والتسكع في ميناء الصيد، وترقب عودة بواخر وسفن الصيادين محملة بصناديق السمك، وممكن حينها الظفر ببعض الأسماك، والاستمتاع بشوائها على الجمر. وغيرها من المزايا الأخرى التي تتيحها الصحبة وشلة الأصدقاء، وفقدانها سبب لي جرحا غائرا لم يشفه الزمن. ونمّى في داخلي ما يشبه فوبيا التحفظ بشكل مبالغ فيه، لم تتوقف عن التضاعف كحالة مرضية، تغذيها افتراضاتي المسبقة حول الآخرين.

فجل خساراتي وخيباتي المتلاحقة كانت بسبب ثقتي المفرطة في أناس سبق وعرفتهم ثم خذلوني، دونما اعتبار لأي شيء كان بيننا، لم أعد أثق في أي كان، في جل الناس، في ميولاتهم وبواعثهم وأهواهم، وكل شيء آخر.

بت أنظر بعين الريبة للجميع دون استثناء، كل شيء بالنسبة لي أضحى محل شك، أشك حتى في نفسي. لا أنفك عن النظر وإعادة النظر، والتمحيص. أنظر أمامي، أستدير خلفي، ألتفت على يميني ثم على شمالي. وأحسب للناس ألف حساب

وحساب.

لم أعد ذلك الأعمى والمغفل الذي سبق وكنته، الخيبات المتكررة في الناس قوت عظمي، وقلصت من اللدغات التي تأتيني من جحر الثقة والاطمئنان المبالغ فيهما، لكنها في الوقت ذاته زادت في اتساع الفجوة بيني وبين الخلق.

أنا مرتاح في برجي العاجي، لا يهمني ضجيجهم وزيفهم، برد الوحدة ووجعها أفضل من دفء نار الخلق، فعاجلا أو آجلا، سيأتي يوم وتحرقك، لا أحد غيرك سيشفق عليك. حتى رائحة لحمك المشوي ستسيل لعابهم. أما رماد عظامك فستذروه رياح أنانيتهم، لا تترك أثرا لك، عندها ستغدو نسيا منسيا، لا أحد سيتذكرك أو سيذكرك بخير أو بشر، كأنك لم تكن!

بالنسبة لي فقدت كل الأشياء معانيها، لم أر أي جدوى من أي شيء كان أو سيكون على الإطلاق. لقد عشت حياة فارغة وباهتة وغير دافئة، حياة بلا معنى أو طعم، حياة ميتة لم أجن أي فائدة أو متعة من خوض غمارها ومجابهة أمواجها العاتية. حياة نصفها مشاكل وضغوطات، قابلت فيها أناسا على قدر كبير من السوء، لم أحظ معهم بأية أيام جميلة، يمكن أن أتذكرها وقت الشدة كزاد يمنحني القوة والصلابة للمواجهة والمواصلة.

أعتقد أن حياة خالية من معاني الأشياء والتواصل والذكريات الجميلة هي موت يلبس ثوب الحياة. كنت أشبه بالأموات،

الفـارق فقـط أننـي لم أدفـن في حفـرة تـراب، كأن جسـدي نظـف وتـم حقنـه بالفورمالـين ليحافـظ عـلى بقائـه دون أن يتعفـن، الجميـع يعتقـد أننـي حـي، لكـن في حقيقـة الأمـر كنت ميتـا أرزق.

النحـس والتوتـر ظـلا يلازمننـي مـن طفولتـي المشـتتة والمفككة، عشـت خـارج المـكان الـذي لفظنـي، وخـارج الزمـن الـذي اسـتنزف طفولتـي. كـم هـو قـاس أن تحيـا بمـرارة غربـة الأمكنـة وتنكرهـا لـك، وأن تشـهد لحظـة احتضـار طفولتـك وموتهـا في داخلـك. فقـد كنـت مثـل زهـرة، ذبلـت أوراقهـا، وتفسـخت ألوانهـا الزاهيـة مبكـرا، لـذا تنتابنـي مشـاعر الكآبـة وعـدم الرضـا دومـا.

أحيانـا حـين يكـون العـدم أو الوجـود عـلى هـذه الحيـاة سـيان، لا تنتابـك أدنى رغبـة بالتمسـك بالحيـاة، تفكـر حينهـا أن المـوت هـو خلاصـك! حقـا هـو الطريـق الوحيـد الـذي سـيجعلني أتوقـف عـن الشـعور بالسـوء، وارتـاح مـن زيـف مـن هـم حـولي.

أحيانـا عندمـا أستسـلم للخـوف والقلـق، أتمنـى في قـرارة نفـسي أن ترعـد السـماء، وتمطـر حجـارة، تسـقط عـلى رؤوس هـؤلاء الأولاد الصغـار الذيـن عكـروا صفـو حيـاتي وأحالوهـا إلى جحيـم، اسـتحالت المدرسـة إلى وكـر ثعابـين.

أرغـب بشـدة في أن ترجمهـم السـماء انتقامـا لمـا ألحقـوه بي مـن أذى. أنـا في عجلـة مـن أمـري، لـن أمهلهـم لحظـة قـط، لطلـب العفـو، لـن أغفـر لهـم مـا تسـببت فيـه عجرفتهـم ورعونتهـم وسـفالتهم ونذالتهـم.

أرغـب في أن أرى دماءهـم متدفقـة كالأنهـار، أراهـم ممزقـين إربـا إربـا كالأوراق السريـة المتلفـة في ماكينـات القطـع، أرى أشـلاءهم مشـتتة كالطيـور والحيوانـات النافقـة.

أرغـب في إخـماد النـار التـي أشـعلوها في داخـلي. حينهـا سـتعتريني فرحـة غامـرة، وسـأغرق في نشـوة مجنونـة لا حـد لهـا، سـأصرخ بأعـلى صـوتي، سـأحتفل، سـأرقص بهبـل، وسـأطرب وأغنـي. لـن أصحـو مـن ثمالتـي تلـك، ولـن يتمكـن أي أحـد مـن إيقـاف بهجتـي اللذيـذة، وإفسـاد سـعادتي الوليـدة....

-١٨-

المفكرة الصغيرة ذات اللون الأخضر الغابي

بـت عاجـزا عـن حمايـة نفـسي من نفسي! أشـعر بـذاتي تتحطم مـن الداخـل، كل مـا حـدث ومـا زال يحـدث معـي كان يَهُـدني هَدًا، يهـدم إنسـانيتي ويحولنـي إلى كائـن ميـت بـلا إحسـاس، مـا بقـي منـي سـوى زفـرات وشـهقات معـدودات، عـدا ذلـك بـت لا شيء يذكر.

تتداعـى روحـي بجـواري، أراني ألتقـط أحجارهـا المتهدمـة لـكي أبنـي بهـا شـاهد قـبري، علنـي أحظـى بـذات جديـدة في حيـاة أخـرى، هـي ليسـت نفسـها ذاتي السـابقة بـلا أدنى شـك! وحتـى وأنـا عـلى عتبـات النهايـة كنـت أبحـث عـن مـكان آخـر يؤوينـي، وينسـيني غربتـي في هـذا الفضـاء البائـس، الـذي عشـت فيـه عزلـة أبديـة، نهـاره كليلـه، كانـت عزلـة كئيبـة لا مـكان فيهـا للفـرح. ومـن عزلتـي تلـك شرعـت كل أبـوابي عـلى المغامـرة، حتـى وإن كانـت مقامـرة بحيـاتي، ليـس لـدي مـا أخـسره طبعـا. علنـي أحظى بحريتـي وأكـون طليقـا كطائـر حـر يحلـق في الفضـاء الأرحـب.

عزلة ظالمة وخارجة عن خياراتي، لا إرادة لي فيها، فقد كنت عاجزا ومقيدا بخضوعي لعوامل أكبر من درجة تحملي.

كنت أشك في كل شيء، وكانت رغباتي غامضة ومرتبكة، فأنا إنسان هش وناقص، أعيش بذات معطوبة ومجروحة وجارحة في الآن ذاته، أعيش مع التباسات شتى وشخصيات متعددة، لا أرغب في استرجاعها أو استرداد صورها المتباينة والمتناقضة تارة، والمتماثلة والمتطابقة في أطوار أخرى! لا أرغب في ذلك ولو ذهنيا. الأمر يفوق قدرتي على التحمل.

كما لا أرغب في الاعتراف بانزعاجي وتضايقي من الرفض الذي لاقيته ولا زلت ألاقيه باستمرار، لا اعتقد أنني سأتمكن من نسيان ذلك الماضي والأمس القريب والبعيد. كما لا أمتلك أدنى رغبة في كشفه وتفكيكه وفضح خفاياه. وإن فعلت هل ستحظى روحي المتشظية بالسلام الداخلي والسكينة؟

لو كانت كذلك سأعري زيف الناس ولن أدخر جهدا في كشف هوة الانفصام والانفصال بين ما يدعونه من قيم إنسانية وأخلاق نبيلة وبين سلوكاتهم العنصرية المقيتة. حينها سأعري وأفضح واقعا مسكوتا عنه ووجها قبيحا مخفيا خلف قناع، يأبى جل الناس كشفه، فظهوره يزلزل ذاتهم وكينونتهم الفردية والجمعية الراسخة والثابتة منذ دهور أبدية.

ومع كل تلك الاضطرابات التي رافقتني ما زال كل من عرفتهم يتعاملون معي باعتباري مثارا لسخريتهم، كنت عرضة لاستهزاء

وتهكم الجميع، خصوصا تعبيراتهم المشينة وغير اللائقة في حقي. وعادة ما تتسبب تلك الأقوال العابرة والسلوكات غير المحسوبة في نفوري من كل شيء، وفقدان شهيتي جراء الاضطرابات النفسية الناتجة عنها.

غالبا ما كنت أكرر غسل يدي وتنظيف أعضائي بالماء مرات عديدة في اليوم. كلما كانت تسوء حالتي النفسية كنت أعتقد أن والدي سيطردنا كلنا من البيت، فقد عشت وما زلت معاناة حقيقية بأتم معنى الكلمة.

كان عقلي لا يتوقف عن اجترار الأشياء السلبية والتفكير في الاحتمالات السيئة لأفعال والدي وقراراته المرتقبة، الكثير من تلك الأفكار المرعبة والمخيفة كانت تطاردني في يقظتي ونومي. أحس دوما أنني منهك لأنني استنفدت جهدا نفسيا وعاطفيا عظيما. وفي بعض المرات لا أرغب في الخروج من تحت مرش الماء الدافئ، أبقى طيلة ساعات طويلة من الزمن، لا أبه لصراخ أبي وتهديداته باقتحام حمام الاستحمام. حتى وان رغبت بالخروج لا أستطيع، أخاف من مواجهة القلق والتوتر.

لا أمتلك الحيلة في إيقاف هذا الوضع أو التحكم فيه، إنه مريع ومنهك في حقيقة الأمر بدرجة لا يمكن تصورها. أشعر بقلق متعاظم مأتاه عجزي عن التعامل مع ما يعترينى من اختلالات وهواجس، الأمر الذي يضاعف من تعاستي وعذابي وشقائي.

بـت أشـعر بالخجـل مـن التـماس المسـاعدة مـن قريـب أو مـن طبيـب، لأننـي أدركـت متأخـرا فداحـة وحـدتي القاتلـة.

عندمـا فرغـت مـن قـراءة صفحـات الدفـتر والمفكـرة، أصبـت بالدهشـة والذهـول في ذات الوقـت، واعترتنـي حالـة مـن الخيبـة والصدمـة مـما خطـه إدريـس في متنهـما وهامشـهما عـلى حـد سـواء، فهـو مـن شـدة عجزه عـن الاندمـاج مـع الآخرين وفشـله في التعايـش مـع واقعـه، أفـرغ جـمّ سـخطه وغضبـه عـليّ أنـا، والـده، كأنـه لم يكتـف بالتدويـن في المـتن، بـل سـوّد بكلماتـه الفائضـة عـن المعقـول هوامـش الصفحـات!

هـا هـو ذا يُعَلِّـقُ فشـله وعجـزه عـلى مشـجب الآخريـن، ويلقـي بـكل اللائمـة عـليَّ أنـا والـده، دون خجـل وبـلا أدنى تفكـير فيـما ضحيـت بـه لأجـل أن يحيـا حيـاة كريمـة، أو تريـث لفهـم أغـوار حالتـه المعقـدة.

كـما عـزى ذلـك إلى بعـض زملائـه ومـن عرفهـم مـن زمـن الطفولـة، مسـتبعدا نفسـه مـن تحمـل أدنى مسـؤولية فيـما آلـت إليـه حياتـه مـن ضيـاع وانقطـاع عـن كل مـا يحيـط بـه.

مـن غـير المنطقـي أن يعيـش الإنسـان العمـر كلـه في عزلـة عـن التفاعـل، أو التواصـل والتعامـل مـع بيئتـه، ثـم يـأتي في النهايـة وبـكل بسـاطة ليلقـي باللائمـة عـلى الآخريـن، ويعفـي ذاتـه مـن أي مراجعـة أو مسـاءلة!

فاجـأني إدريـس وصدمنـي بالصـورة التـي رسـمها لي في ذهنـه،

وأنـا ذا كنـت أعتقـد مخطئـا أنـه كان يتجنـب خـوض الحديـث معـي في الشـؤون التـي تخصـه بدافـع الخجـل والاحـترام والتوقـير الـذي يكنـه لي، وحتـى وإن كنـت أنـا المبـادر، كان يقتصـد قـدر الإمـكان في ردوده، ولا يلبـث وأن ينـصرف.

لم أكـن أتصـور في يـوم مـن الأيـام بأنـه يحمـل في داخلـه كل هـذا الغـلّ تجاهـي! في حقيقـة الأمـر، كلـما كنـت أسـتمر في قـراءة مـا كتبـه، كانـت دهشـتي تتعاظـم وخيبتـي تتضاعـف. كـما أننـي كنـت أجـدني بعـد قـراءة كل كلمـة أكتشـف شـخصا آخـر، مختلفـا، تمامـا عـن الـذي عرفتـه، وعـاش معـي تحـت سـقف بيـت واحـد كل هـذه السـنين. بعـد أكـثر مـن ثلاثـة عقـود هـا أنـذا أكتشـف بـكل خيبـة، وحـسرة، وتأسـف أننـي لا أعـرف ابنـي الـذي هـو مـن صلبـي. وأدرك متأخـراً بعـد مـضي كل هـذا الزمـن كـم كنـت مخطئـا في فهمـي كثـيرا مـن الأمـور والأشـياء، وهـا أنـذا أقـف عـلى حقيقـة مؤلمـة وموجعـة بأننـي كنـت أنـا هـو الشـيطان الرجيـم سـبب كل الكـوارث التـي حلـت بالبـشر، وآدم الضحيـة هـو ابنـي، وقـد تسـببت في طـرده مـن الفـردوس إلى جحيـم الأرض؛ هكـذا صورتنـي كلـمات ابنـي إدريـس، هكـذا حاكمتنـي، هكـذا جلدتنـي، هكـذا أدمتنـي!

-١٩-

نهضت في أوج قيلولتي مفزوعا على وقع رنين الهاتف الذي صدع أذني، أرغب بشدة في إيقاف اشتراك هذا الهاتف اللعين، بات يزعجني ويستثيرني أكثر من أي وقت مضى، لا فائدة ترتجى من وجوده، غير أني في نهاية كل شهر أذهب مكرها إلى شركة الاتصالات العمومية وفي يدي ورقة الفاتورة. أدفع بانتظام ثمن الاشتراك دون جدوى، ضرره أكثر من نفعه، لم يبق الكثير على نهاية هذا الشهر، حينها سأوقفه من غير رجعة، هذه المرة قررت، ولن أتراجع على قراري الفصل مهما كانت الظروف، لن أستمع لأي كان، ولا تهمني كل المبررات التي ستسوقها سكينة تباعا من أجل إقناعي بالعدول عن رأيي، أعرف أنها تتسلى بالهاتف في الثرثرة مع أختها، وفي استقبال مكالمات الأولاد وفي تذكيري بقائمة المشتريات غير المنتهية لما أكون خارج البيت.

كنت أتأفف من تحت اللحاف، وأرغي وأزبد متذمرا، إلى أن نادتني سكينة من غرفة الاستقبال:

- عبد القادر إن صديقك بشير ميزيغاش ينتظر على سماعة الهاتف، وقد طلب استعجالك.

- أووووف، هذا الرجل سكن في حياتي، كلما أدلف خارج البيت إلا ويحاصرني أينما ذهبت وحللت. لم يكفه ذلك، وها هو اليوم يلاحقني إلى داخل بيتي. ما أشد ابتلائي وحظي العاثر، فمن مثله لا يأتي الخير، من ورائه غير الهم والغم، أكيد فهو يتصل من أجل مصلحة له أو لأحد أبنائه المتمدرسين، أو لتجزية الوقت كعادته، فهو لا يمل ولا يكل من تتبع عورات خلق الله.

رفعت السماعة متثاقلا عن مضض، وصلني من الجهة الأخرى صوته شاحبا وباهتا:

- مساء الخير يا عبد القادر.

- تربح، نهارك زين.

- أرجو أن تشغل التلفاز، وتفتح على قناة الجزيرة الإخبارية.

- ما الداعي لذلك؟

- شغل التلفاز وستفهم.

أردت أن أستفسره، بصراحة لم أفهم مبعث هذا الطلب الغريب. لكنه استعجلني بالذهاب، لأن البرنامج بدأ والوقت سينفد لو استغرقنا في الشروحات.

مسحت بعيني الغرفة بحثا عن الرمود كونترول، وقع بصري عليها على حافة الكنبة مرمية كيفما اتفق. دوما أعاتبهم على تلك العادة السيئة، لا جدوى من تكرار الكلام، فمن اعتاد على الفوضى والإهمال هذا هو ديدنه دوما، ذيل الكلب يبقى أعوج مهما حاولنا تقويمه. مددت يدي بسرعة لأخذها، وتلقائيا ضغطت على زر التشغيل بلهفة ظاهرة. غيرت القناة، هناك برنامج يعرض الآن على الشاشة، تظهر امرأتان بينهما طاولة مهترئة، واحدة سافرة والأخرى منقبة، الأولى تسأل والأخرى تجيب.

ركزت بصري على المرأة المنقبة بالسواد وهي تجيب عن أسئلة المراسلة الحربية بصوت ممزوج ببحة، يظهر من كلامها أن الندم يعتصرها على تفريطها في حياتها السابقة في كنف أسرتها بتونس. في حين أن الصحفية كانت من حين لآخر تحرك رأسها كدليل على متابعتها لكلام المرأة، كما كانت تعض على شفتيها دون أن تنتبه، وعيناها ضائعتان من شدة تفاجئها أو صدمتها من الردود غير المتوقعة التي تلفظت بها المرأة المنقبة. هذه الأخيرة اعترفت بخيبتها الكبيرة مما وجدته، مقارنة بما كانت تنتظره وتتوقعه عن دولة الخلافة، فقد عددت ما فرطت فيه في سبيل خدمة دين الله وتطبيق شرعه.

من رفرفة عينيها، الجزء الوحيد البارز وسط السواد الذي يلف جسدها ككفن أسود، يظهر أنها ذات جمال وحسن.

تكلمت عن زوجها؛ يا إلهي، قالت: « إدريس الجزائري»، لما تلفظت بهذا الاسم؛ تسمرت في مكاني، تصلبت شراييني، استبد بي هلع عظيم، تجمدت الدماء في عروقي. اعترتني حالة ذهول لا يمكن وصفها، يا ربي سمعنا الخير، ومن أين يأتي الخير؟

لا أعتقد أن هذا النوع من الكائنات مصدر للأخبار المفرحة والمطمئنة!

زاد فزعي، حاولت أن أهدئ من روعي؛ ممكن كانت تقصد شخصا آخر، ليس شرطا أن يكون ابني، هناك الآلاف من خلق الله يحملون ذات الاسم. لكنها أردفت لما سألها مرافق المراسلة الذي كان يرتدي بزة عسكرية خضراء اللون. في الحقيقة لم أنتبه لوجوده، إلا بعد تحريك عدسة الكاميرا صوبه، استفسر عن كيفية التحاقها بمعسكر دولة الخلافة.

بعد تردد أخبرته عن نشوء علاقة بينهما على الفايسبوك، كانت هي تقيم في تونس العاصمة وهو يقطن في مدينة عنابة. لما ذكرت كلمة عنابة أيقنت بما لا يدع للشك، أن المقصود من كلامها هو ابني إدريس لا غيره. بالكاد كنت أقوى على الحركة، فقد كانت أعضائي تستجيب لي بصعوبة بالغة، حاولت الاقتراب أكثر من الشاشة، وفتحت عيني المتعبتين على آخرهما، علني أعرف مصير ابني المفقود. قالت:

- التقينا في بن غردان التونسية بعد أن قدم هو من الجنوب بطريقة غير شرعية، حيث وجدنا هناك من يرشدنا

إلى شخصين، أقمنا عندهما يومين بلياليهما، ثم تم نقلنا عن طريق المسالك السرية إلى صبراتة الليبية، حيث وجدنا من كان ينتظرنا. ثم سلمونا إلى مجموعة أخرى، وضعونا مرة أخرى في بيت واسع طيلة أيام، أخذوا هواتفنا وكنا محل مراقبة مشددة، إلى أن نقلونا في سيارة سياحية إلى مدينة سرت الليبية، طيلة الطريق كان الرجل الذي يجلس بجنب السائق، يتلقى التعليمات عن طريق الهاتف. لم نصادف أدنى عائق طيلة رحلتنا تلك، كانت السبل ممهدة والطرق آمنة جدا. لما وصلنا إلى سرت التي كانت تسيطر على شطر كبير منها دولة الخلافة.

قاطعتها المراسلة:

- هل تم زواجك في تونس أم في ليبيا؟

- اجتمعنا بالقادة العسكريين وبمجموعة من الشيوخ الشرعيين في سرت، حيث عقدوا قراننا أنا وإدريس.

- كيف كانت إجراءات زواجك، أو كيف كانت عقود الزواج داخل دولة الخلافة؟

- كان المهر سورة الأنفال وسورة الملك، في حين عقد بالتوازي العديد من عقود القران الأخرى على وافدات جديدات، أكثرهن تونسيات ومصريات، كما كانت هناك حبشيات وإفريقيات ونسوة من مختلف الجنسيات حتى الغربيات لكنهن قليلات جدا. منهن من كان مهرهن دنانير ذهبية صكتها دولة الخلافة، أو مصحفا، أو كلاشينكوفا، أو حزاما ناسفا، أو تفسير سورتي

الكهف ومريم. هناك من رفضن الزواج.

- ما مصير النسوة اللواتي أبين الزواج من رجال دولة الخلافة؟

- الشيوخ أخضعنهن قسرا، لدواعي الجهاد والبذل في سبيل الله. وأي امرأة كانت ترفض تتهم مباشرة بالردة. لذلك كلهن يخضعن في النهاية لرغبة الشيوخ خوفا من تنفيذ حكم الردة، وهو الإعدام بطلقات نارية.

- وهل كانت هناك عقود رسمية أم أن الزواج شرعي فقط وغير موثق؟

- سلمونا العقد عليه ختم دولة الخلافة، كان تحت عنوان: عقد النكاح، دوّنت عليه كل المعلومات عني وعن إدريس وعن المهر وعن الشاهدين، فقد شهد على زواجنا كل من زكريا الموريتاني ولخضر التونسي.

- كيف كانت حياتكن أنتن النسوة في ظل المناطق التي يسيطر عليها التنظيم؟

أجهشت بالبكاء، ثم استرسلت في الكلام بصوت يشي بدرجة كبيرة من الإحباط:

- مررنا بأوقات عصيبة، وعشنا مآسيَ وأوجاعا لا حصر لها، كنا نعامل بقسوة منقطعة النظير، وكانوا يعزلوننا فوق بعضنا البعض كالحيوانات في مضافات؛ عشنا فيها تجارب وصور مؤلمة

وموجعة، من القسوة والانعزالية وانعدام المشاعر. عندما كنا نتعرض لظروف قاسية يفرضها علينا الحصار أو الهجوم المباغت للجيش والميلشيات التابعة له، كانوا لا يأبهون للأطفال والنساء، ما يهمهم هو أن ينفذوا بجلدهم، كانوا يستخدموننا كدروع بشرية نحن النساء والأطفال أمام قصف الجيش من دون رحمة أو شفقة. حتى أننا كنا في أوقات الحصار نتغذى على الماء والسكر لأيام بطولها بينما ثلاجات القادة وزوجاتهم ومن يليهم في الرتبة والدائرة المقربة منهم مليئة بالغلال واللحم والأرز!

- هل سبق وقمت بعمليات جهادية لصالح التنظيم؟

بعد تردد تجيب:

- بعض العمليات فقط.

تواصل الصحفية سؤالها مرة أخرى عن ذات الموضوع:

- حديثينا عنها؟

تخفض رأسها، تنظر إلى الأسفل واليسار، ثم إلى الأعلى واليمين وهي صامتة لم تنطق بكلمة. تلك اللحظات مرت بالنسبة لي كدهر، شعرت باستياء كبير، ظللت مسددا نظرتي الجامدة إلى الشاشة باشمئزاز وعيناي مسمرتان في وجهها المتوشح بالسواد في انتظار حركة شفتيها التي ستكسر بها ذلك الصمت المزعج الذي كاد أن يخنقني. ثم ها هي تواصل حديثها بصوت

منقطع يشي بخوف ممزوج ببعض الندم:

- غزوة مراكش.

كلمتان متقطعتان وثقيلتان، تلا ذلك مرة أخرى صمت القبور. فركت يدي ثم مؤخرة رقبتي على حد سواء، شعرت بالقشعريرة بسبب انطباع غامض اعتراني فجأة. بيد أنها أضافت بعد أن ألحت عليها الصحفية على مواصلة الحديث، بينما كنت أسمع بذهول محاولا تهدئة انفعالاتي:

- كانت شوارع وسط مراكش في مساء ذلك اليوم تعج بالناس، والمطاعم والمقاهي مليئة على أخرها. لم يكن من باب الصدفة اختيار تلك الليلة الصيفية المعتدلة حيث اجتمع الناس لمشاهدة مباراة مهمة لدوري أبطال أوروبا على شاشات كبيرة وضعت خصيصا للحدث. قبل ليلة التفجير كنا في ساحة لَفْنَا، في الطريق لفت انتباهي طلاء المساكن والمباني الإدارية والفنادق باللون الأحمر الياجوري، كما استغربت مبالغة وجرأة جمهور من النساء والفتيات على اعتلاء الدرجات النارية وسياقتها في طرق وشوارع المدينة دون أدنى تحرج. كانت ساحة لَفْنَا ليلتها تعج بالنفوس، شققنا الصفوف البشرية كأننا مستعجلون، ومررنا بمحاذاة حلقات واسعة وأخرى صغيرة، لم نستجب لنداءات شيخ كان يحمل ثعبانا عظيما على ظهره ويدعو الوافدين على الساحة والسياح إلى مداعبة ثعبانه والتقاط الصور معه. واصلنا طريقنا غير آبهين وسط الاكتظاظ، فيما كانت أجساد المشاة تكاد تلتحم ببعضها البعض، اختلطت الأصوات

مع روائح البهارات والأطعمة والأسماك المشوية وفواكه البحر. ولما كنا أنا وإدريس موشكين على اجتياز آخر مطعم للأسماك والمأكولات الشعبية، رمقني بنظرة مقتضبة سرعان ما أدركت مغزاها، ثم التفت مباشرة إلى الأطباق المرصوفة على الطاولات، شعرت برغبة شديدة في الأكل، فقد كنت أستلذ رائحة الطعام المنبعثة من تلك المطاعم المتتابعة، والتي يظهر أن وجباتها لذيذة المذاق. ما كان عليّ إلا أن أومأت له برأسي موافقة. لم يكن إدريس طيلة بقائي معه في مراكش يتكلم كثيرا، فنادرا ما كان يفتح فمه، إذ غالبا ما كان يخلد للصمت ويغرق في حالة من الشرود، في ذلك الشرود تجده لا يشعر بما يحيط به، وينقطع تماما عن كل من حوله. ما جعلني ألتزم الصمت في غالب الأوقات، ولا أتكلم إلا نادرا أو كلما دعت الضرورة، كي لا أزعجه بثرثرتي وأفسد عليه تركيزه. بعد وجبة العشاء قصدنا أنا وإدريس مقهى فرنسا، طبعا كنت سافرة الوجه كي لا أثير إذ ذاك أدنى شك، كما كان إدريس حليق الوجه، في الحقيقة لما حلق لحيته بدا لي مختلفا بعض الشيء، لكن حافظ على النظرة ذاتها عدا مسحة الحزن التي طبعت قسمات وجهه. اخترنا ليلتها طاولة تمنحنا رؤية كل زوايا المقهى بأريحية، كان إدريس يمسح بعينيه المحجوبتين خلف نظارة سوداء المكان مسحا شاملا، هذه النظارة تضفي عليه بعض الغموض، خطر ببالي أنه قادر على إثارة انتباه المخبرين السريين. كان يترصد بعينيه وأذنيه رواد المقهى وهمساتهم وسكناتهم، ويتبع بعينيه حركة الناس خارج المقهى في ذهابهم وإيابهم، كأنه يحسب

أنفاسهم ويعد خطواتهم عدا. بينما كنت أرتشف من كأس النعناع وانظر إلى الطاولات المحاذية لنا بحذر، يظهر أن من يجلسون على الطاولات من كل الأجناس والأعراق، بما فيهم الذين يتقاطرون على مراكش الحمراء من كل أنحاء العالم لارتكاب المعاصي والمحرمات؛ على شمالي لمحت امرأة تجلس لوحدها وتحتسي الحليب بالشوكولا وعلى طاولتها علبة سجائر وقداحة، وأمامي يظهر رجل يقرأ جريدة وعلى طاولته مجموعة كتب، في حين على شمالي كان هناك زوجان، امرأة برفقتها رجل على طاولتهما صحفة مثلجات وكوب عصير الكوكتيل الطبيعي، وبالقرب منهما لمحت شابين يتحادثان ويتضاحكان ويقهقهان ويتغامزان في الوقت ذاته، لم اطمئن لوجودهما، حاولت الاستماع إليهما، ممكن أن يكونا مخبرين سريين. ولكنني لم أستطع فك شفرة لهجتهما.

في الليلة الموعودة كنا خمسة أنا وإدريس وثلاثة آخرين؛ اثنان منهم من مقاتلي التنظيم والثالث من خلاياه النائمة هنا في مراكش. ها هو إدريس يبدو متوترا مثلي. وفجأة ذهب، وقبل أن يذهب أخرج صورة مطبقة من جيب بنطلونه الضيق، وأعطاني إياها. كانت صورة أمه، امرأة بيضاء تتمتع بقدر كبير من الجمال، بشعر كتسنائي وعيون زرق كفصوص اللازورد، لفرط بهائها وسحرها تبدو كأميرة أسطورية. كم كنت أحسدها في قرارة نفسي، وأتمنى أن أحظى ولو بجزء من ملكة جمالها. وبعدها نظر في عيني لحظة زمن هاربة، مرت كلمح البصر، لكن كثافتها كانت كالدهر بالنسبة لي، وأظن أن

الشعور ذاته اعتراه. اعتقدت أنه سيقول لي شيئا ما، أو ربما سيوصيني بأمر ما، لكنه لم يتفوه بأي كلمة، ولم يقل شيئا على وجه الإطلاق. ذهب وفقط. بينما أنا شردت وانفعلت كثيرا، ورغم فداحة كل ذلك، وقسوته ووطأته على نفسي حاولت أن أتماسك وأن أخفي تلك المشاعر التي انتابتني فجأة. بقينا نحن الأربعة نترقب من مكان بعيد بينما انطلق إدريس وسط الجموع، رأيته يمشي الهوينى، كان يلتفت مرتبكا يمينا وشمالا، ثم شرع في المشي هرولة، ما هي إلا دقائق حتى وصل إلى مقهى فرنسا. كانت الخطة تقتضي تفجير أكبر عدد ممكن من الناس. كنت قلقة بعض الشيء من سائح شاب، كان في وسط الناس يلتقط صورا للمبنى الذي كنا نقف بمحاذاته، لا أنفك من مراقبته، وقد لا حظ علي أحد الإخوة توتري. إذ ذاك ما هي إلا لحظات حتى سمعت انفجارا ضخما، وبدأ الجميع بالجري في اتجاهنا وهم يصرخون ويبكون، وعندما نظرت شعرت بلفح حار على عنقي، وسط الدخان الكثيف ورائحة الحريق التي ملأت المكان، كانت الجثث وبقايا الأعضاء المتطايرة في كل مكان، كما هناك العشرات من الناس ملقون على الأرض مصابون بجروح خطيرة أغلبهم سياح ومراهقون وشباب. لم أشعر في حياتي بمثل هذا الخوف الغريب الذي سيطر عليّ من هول المنظر وصدمة جموع الناس من حولي؛ من كيف تحولت سهرة مشاهدة مقابلة في كرة القدم إلى ليلة رعب. اختلطنا بالناس وكنا نجري مثلهم، الجميع كانوا في حالة من الهلع، وقد حدث تدافع كبير عند الشارع الرئيسي الذي كان

يفيض بالناس، لذلك فضلنا الانعطاف إلى شارع جانبي، ومنه نزلنا من درج إسمنتي، الرجال في المقدمة وأنا وراءهم، التفت آخرهم إليّ وقال: «اسرعي وإلا ستلحق بنا الشرطة». ثم سلكنا طريقا فرعية أخرى كي نتوارى في الظلام الذي هبط على المدينة، انحدرنا في الطريق دون أن نتحدث بشيء، سيطر عليّ الخوف من كلامه، كنت مضطربة، أسرعت الخطى كي ألحق بالمجموعة، شعرت كأن الشرطة خلفي تطاردني. وفي طريقنا صادفنا حانة أو علبة ليل مفتوحة، أشار إلينا أحد مقاتلي التنظيم بالدخول، ما كان عليّ إلا أن أطيع وانصاع لرغبته كغيري، وإلا سيكون مصيري القتل ذبحا. هذا القذر مذ وصولنا إلى مراكش صار في غياب إدريس يرميني بنظرات تقطر عفونة وشبقا، توترت أعصابي تماما، وصرت أرغب في رجم هذا السافل. كنت أتفادى النظر صوبة، فكلما يحدث وأن تتقاطع أعيننا إلا وكنت أشيح عنه. لكن هذا النذل لم يفهم، وظل يكرر من جديد حركاته البائسة والمقززة بطريقة فجة جدا، دون كلل أو ملل، كأنه مراهق لعين. زاد اشمئزازي من سلوك هذا المسخ، يا إلهي لم يحترم أنني امرأة متزوجة! كنت أتساءل من أي طينة هذا المخلوق؟ لو كان الأمر بيدي لغمسته في مرجل يغلي إلى حد الموت. لما دخلنا إلى تلك الحانة وجدناها أشبه بعلبة رقص، صخب الموسيقى والأضواء الملونة المتقاطعة والمتراقصة، والغناء والرقص المختلط، ورائحة الخمرة تملأ المكان. أخرج واحد من المقاتلين مسدسا، وراح يطلق كيفما اتفق في كل اتجاه، بينما الرجلان الآخران اللذان كانا بالقرب مني أخرجا سكاكين حادة،

وراحا يطعنان ويبقران بطون كل من يصادفهما. قمت بدوري بركل بعض الجرحى والمصابين الذين تعثرت بهم في طريقي، وحتى أثبت ولائي أكثر رحت أنادي: الله أكبر.. الله أكبر.. هذا باسم الله يا فجرة. وخلال دقائق معدودة قتل أكثر من عشرة أشخاص وعشرات المصابين قبل أن تقتل الشرطة لاحقا المقاتلين الثلاثة بالرصاص. بينما تمكنت أنا من الفرار والاختلاط بجموع الناس قبل أن تغلق الشرطة الطرق القريبة وتخلي المنطقة من الناس. وفي الطريق رأيت شابة تترنح، كانت تنزف من رقبتها وفمها، عدت القهقرى، ثم دخلت ممرا جانبيا مختصرا، لكنني هلعت من رؤية مجموعة من السياح الذي صادفتهم يجرون مرعوبين في كل الاتجاهات على غير هدى، وكان كثيرا منهم يبكون ويواسون بعضهم. لما تجاوزتهم انتبهت لجموع من الناس، انجرفت مع الحشد...

بينما تلك المرأة المنقبة مازالت تسرد تفاصيل حادثة الهجوم، حتى ظهرت كتابة في شريط أحمر أسفل الشاشة، أحاول أن أقرأ الكلمات التي تظهر بحروف صغيرة إلى درجة أني تحسست الطاولة بحثا عن النظارة.

لما وضعت النظارة على عيني بدت الحروف أقرب وظهرت بحجم أكبر من ذي قبل. كاد يغمى علي عندما قرأت الاسم الثالث في قائمة القتلى الذين راحوا ضحية تفجير مقهى فرنسا في مراكش: «٣- عبد اللطيف الركراكي «.

ضربت جبهتي بكف يدي اليسرى من هول الفاجعة،

ورحت ألطم رأسي بكلتا يديَّ، ثم بدأت في ضرب رأسي على الحائط حتى أحسست بدوار شديد أفقدني الوعي، لم أستيقظ منه إلاّ في قسم الاستعجالات في مستشفى ابن سينا. لما فتحت عيني أول ما رأيت سكينة وسعيد واقفين حول السرير. ثم غبت عن الوعي مرة أخرى؛ كنت أراهما طفلين بملابس العيد الجديدة معا، كما لم أرهما من قبل مجتمعين في مكان واحد، كانا لحظتها يضعان اليد في اليد، الفرحة والبهجة تغمرهما. حاولت الاقتراب منهما لطبع قبلة على خديهما البضين، لما انحنيت لفحت أنفي رائحة غريبة! رجعت أدراجي إلى الخلف ثم رفعت رأسي وحدقت فيهما مجددا، يا إلهي أرى جسديهما محترقين ومفرغين من اللحم. على الرغم من ذلك المشهد المفزع، حاولت الاقتراب منهما مرة أخرى، ومغالبة ذلك الألم الذي عصف بي لحظتها، كلما كنت اقترب أكثر كانت الرائحة تكتسح المكان، كان الألم يعتصرني أكثر. لما أصبحت على مسافة قريبة جدا منهما، توقفت وحاولت الإمساك بيديهما ومداعبتهما بحنو، بيدي اليمني أمسكت يد عبد اللطيف وبيدي الثانية شددت برفق على يد إدريس، بدت يداهما مختلفتين عليّ، غالبت دموعي ووجعي. أحسست فجأة أنني اقبض على الفراغ، لما انتبهت لم أصدق هول ما رأته عيناي، اكتشفت أنهما استحالا إلى رماد. بقيت بين اليقظة وفقدان الوعي؛ جسدي مبلل بالكامل بفعل العرق الذي لم يتوقف عن السيلان من كل مسامات جسمي، التي أشعر بها تتسع وتتسع حتى تستحيل إلى فجوات هائلة. أحس بنبضات قلبي

المتصاعدة كأنها تريد أن تخترق صدري الذي لم يعد يقوى على التحمل أكثر، وأنفاسي متقطعة ومختنقة كأن رئتي معتلتان أو كأن هناك من يجثم فوق صدري بكتلته العظيمة.

لست أدري إن كنت الآن في البيت أم في المستشفى. خرجت مسرعا، لا أتذكر كيف نزلت كل تلك الدرجات، ما أتذكره هو أني كنت أرغب في الذهاب بعيدا. كنت أركض بما أسعفتني به قدماي اللتان لم أشعر بهما كأنني كنت أنتعل الريح، لم أحس بمضي الوقت، فقط كنت أجري مسرعا كالذي فقد عقله.

من شدة التعب تهاويت على الأرض مغشيا علي. أفقت وجموع الناس من حولي مصوبون سهام فضولهم الفج واستغرابهم المقيت من أعينهم المتقدة، فجأة لمحت الطاهر سموك البهلول بينهم، تقاطعت نظراتنا، العين في العين، كنت خائر القوى بالكاد أعي ما حولي، اقترب مني ثم انحنى صوبي هامسا بكلام غير مفهوم. اعتدل في وقفته حدق مليا في تلك النفوس، ثم ما لبث وأن راح ينادي:

- «يَا نَاسْ يَاوْ مَا بْقَا وَالُو.. بْقَا غِيرْ الماء يَحْمَا.. الدَنيْاَ بِنْت كلب.. والناس عميان وْرَاهَا.. كْلاَوْنَا الكْوافَة والجْبُورَة.. وَلِينَا أَحْنَا أُولاَدْ البَلاَد بِينَاتْهُمْ ضايعين.. وهُماَّ يحكموا بأحكامهم.. وجوه البق، دمنا كامل مصوه.. ما يشبعوه، يوكلوا كي الحلالف، الجيعانين في كروشهم.. ما يَحْشموش، وجوهم صْحاَحْ ما يَعْرقُوشْ، وما يَعْرفُوشْ كار لَقْدَرْ.. بلا أصل.. لا دين ولا ملَّة.. فرنسا خرجناها بالقوة، وهم استعمرونا.. وجوه

نَـــــــــمـــــــــ.... تفووووه..الـخ».

كنـت مسـتلقيا عـلى ظهـري ورأسي مصوبـا إلى الأعـلى، السـماء فوقـي شـاحبة، عتمتهـا أثقلـت صـدري وسـحابها أصابنـي بالقنوط. كان النـاس مـن حـولي يسـتحيلون تدريجيـا إلى كائنـات خرافيـة مقـززة، ظللـت أحـدق فيهـم مسـتغربا مـن ملامحهـم البشـعة وملابسـهم المتسـخة والممزقـة وأطرافهـم العظيمـة والمشـوهة ووجوههـم القـذرة والمرعبـة. كان الـشر يتطايـر مـن أشـداقهم بينـما كانـوا يضحكـون ويصرخـون، وتثير حركاتهـم ضجيجـا وجلبـة مهولـين، وأجسـادهم الرطبـة واللزجـة كانـت تنفـث سـائلا قاتـم اللـون يصبـغ الأماكـن التـي يتسـاقط عليهـا ببقـع عظيمـة، وبخـار أشـبه بالدخـان يتصاعـد مـن بثـور ومسـمات جلـود أجسـادهم المتهيجـة والمبللـة بالعـرق، وكلـما كانـوا يغـرزون أظافرهـم في رؤوس تلـك البثـور بصـورة غـير محتملـة، كانـت تتطايـر القشـور وتنتـشر رائحـة كريهـة وخانقـة. وكنـت بـين اليقظـة والغيـاب عـن الوعـي أرى الطريـق مزدحمـة بهـؤلاء الأوغـاد، واصلـت طريقـي، لم أتوقـف عـن الارتطـام بأكتافهـم الهائلـة وأرجلهـم العملاقـة التـي تسـد عـليَّ كل الفجـوات والمنافـذ. ضـوء صـارخ يحجـب عنـي الرؤيـة، فتحـت عينـي عـلى آخرهـما حتـى كادتـا أن تخرجـا مـن محجريهـما.

مـرة أخـرى لم أسـتطع رؤيـة أي شيء، البيـاض الطاغـي صبـغ كل شيء. أغمضـت عينـي، تلمسـت حاجبـي وجفنـي بأصابـع يـدي اليمنـى، مسـحت عليهـما ببـطء بتمريـر يـدي اليـسرى غـير

مصدق ما حل بي! بالكاد حركت أصابعي المرتجفة، بدا الأمر مرعبا. فتحت عيني مجددا، استحال البياض الكثيف إلى ظلمة خانقة، فركت عيني، لا جدوى!

حاولت أن أسترجع أنفاسي واستعيد طاقتي المهدورة، لم يكن الأمر هينا، فقد كنت أعمى أسير على غير هدى. في النهاية تغلبت على عجزي وخوفي بعسر، وواصلت طريقي؛ لست أبالي بوعثاء الطريق ومشقتها وطول الأيام الرتيبة والمضجرة وتمططها، ما مضى كان قد مضى وانتهى، وما سيكون سيكون، لا مفر منه، تركت الماضي خلف ظهري ولم أرهق نفسي في التفكير في أشياء ستكون أو لا تكون في مستقبل قد ما يكون. كنت فقط أبحث عن طريقي، أتحسسها بخطواتي، إلى أن عثرت عليها، الآن أراها ببصري وبصيرتي، سأغمض عيني، وسأحلم، الآن أنا مرتاح ومطمئن. بدأت أتخفف تدريجيا، هبت رياح خفيفة، أحسست بنسماتها تداعبني وتلاعبني، حتى بدأت أرتفع رويدا رويدا، بعيدا عن تلك الكائنات الخرافية كقشة أو كريشة إلى أن تلاشيت في العدم.

كُتبت في عنّابة، الجزائر العاصمة،

بروكسل، وبيروت خلال الفترة (٢٠١٦- ٢٠١٨).

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس
WH
™